كولين مكلو

طيور الشوك

رواية

«في ثلاثة أجزاء»

ترجمتها عن الانكليزية

نضال حوّاط

١

علي مولا

منتدى مكتبة الاسكندرية www.alexandra.ahlamontada.com

بسم الله الرحمن الرحيم

دمشق : منطقة المزة (3) - حي الجلاء (5) شارع كعب بن مالك
(طلعة الإسكان سابقاً) بناء رقم (2) - ص.ب : 16035
هاتف: 6618013 - 6618961 تلفاكس: 6618820 - برقياً: طلاسدار
Website: www.dartlass.com E-mail: info@dartlass.com

مكتبة دار طلاس - برج دمشق - مقابل وزارة الداخلية - هاتف: 2319558

ريع الدار لهيئة مدارس
أبناء و بنات الشهداء في الجمهورية العربية السورية

طيور الشوك

الآراء الـــواردة في كـتب الـــدار
تعبـــر عـــن فـكـر مؤلفيهـــا
و لا تعبر بالضرورة عن رأي الـدار

الطبعــــــة الرابعـــــة: 2007

رقــم: 2859 _ تاريـــخ: 1986/4/28

جميــع الحقـــوق محفوظـــة
لدار طلاس
للدراســات والترجمــة والنشــر

كولين مكلو

طيور الشوك

روايـــة
« في ثـلاثـة أجـزاء »

ترجمتها عن الانكليزية
نضال حوّاط

الجزء الأوّل

اسم الكتاب باللغة الانكليزية

THE THORN BIRDS

COLLEEN McCULLOUGH

تقول الأسطورة أن هناك عصفوراً يغني مرة واحدة في حياته، وغناءه أعذب من غناء كل مخلوقات الأرض. فمنذ اللحظة التي يهجر فيها عشه، يطير باحثاً عن غصن شائك ولا يرتاح حتى يجده. عندئذ يغرز في صدره أحدَّ شوكة وأكثرها طولاًوهو يتابع غناءه بين الأغصان الوحشية. وإذ هو يلفظ أنفاسه يرتفع فوق نزعة في غناء يفوق شدو السنونو والشحرور روعة. أغنية فائقة ثمنها الحياة.

ويجمد الكون ليسمعه، ويبتسم الله في سماواته. لأن الأفضل لا يُبلَغُ إلا بألم كبير.. أو هذا على الأقل ما تقوله الأسطورة.

الكتاب الأول

ميـغي

١٩١٥ ــ ١٩١٧

الفصل الأول

في الثامن من كانون الأول عام ١٩١٥ بلغت ميغي كليري عامها الرابع. وبعد أن غسلت أمها أطباق الافطار، رمت بين يديها، بدون أية كلمة، علبة مغلفة بورق بني اللون وأمرتها بالخروج. فخرجت ميغي وجلست القرفصاء تحت شجرة الوزّال وبدأت تفك الربطة بنفاد صبر. كانت أصابعها تتعثر وكان الغلاف سميكاً. وتصاعدت إلى أنفها رائحة خفيفة ذكرتها بمخازن (واهيني) وهذا ما جعلها تحزر أنّ ما بداخل العلبة كان، بأعجوبة ما، «مشترى» ولم يكن من صنع البيت ولا هبة من أحد.

وظهر من زاوية العلبة شيء ناعم يلمع كالذهب تقريباً وشددت ميغي هجومها على الورق تنتزعه إرباً.

« انييس ، أوه أنييس » همست بحب وهي ترف بأهدابها أمام الدمية المستلقية في عشها الورقي الممزق .

إنها أعجوبة حقاً . لم تذهب ميغي إلا مرة واحدة في حياتها إلى مخزن واهيني وكان ذلك في أيار الماضي ، مكافأة لها على وداعتها . وفي طريق عودتها إلى البيت لم يكن بوسعها أن تتذكر شيئاً مما رأته في المخزن وذلك لانفعالها الشديد وهي منتصبة قرب أمها على مقعد العربة ، تحاول أن تتمالك نفسها . لم تتذكر إلا (انييس) الدمية الرائعة ، جالسة كالأميرة على طاولة التاجر ، مرتدية تنورة من الساتان الوردي تزينها كشاكش من الدانتيلا . وقد أعطتها على الفور اسماً (انييس) ، الاسم الوحيد الانيق الذي بدا لها لائقاً بهذه المخلوقة التي لا مثيل لها .

ومع ذلك ففي الأشهر التي تلت ، لم تتجاوز رغبتها بانييس حدود الأمل . لم تكن ميغي تملك دمية ولم يكن ليخطر ببالها أبداً أن الدمى إنما هي للبنات الصغيرات ، بل كانت تكتفي بأن تلعب سعيدة بصفارات اخوتها الصبيان ونقافاتهم وعساكرهم المكسرة بينما يداها قذرتان وحذاؤها موحل .

كما لم يخطر لها أن باستطاعتها أن « تلعب » بأنييس ، ولهذا

بدأت تداعب برفق كشاكش الثوب الوردية الفاتحة، الثوب الذي لم تر مثل جماله على امرأة حقيقية. ورفعت أنيس برفق بين يديها. كان لذراعيها ويديها مفاصل يمكن تحريكها في كل الاتجاهات وكذلك عنقها وخصرها النحيلان. وكان شعرها الذهبي المصفف بطريقة قديمة رائعة مزيناً بلآلىء صغيرة بينما كان شال من الدانتيل الخفيف، مثبت بلؤلؤة، يكشف عن صدرها الناصع. وأما الوجه الخزفي الناعم الملون بدقة فقد كان رائعاً وبدون أي طلاء برّاق فبدت البشرة طبيعية تماماً. وكانت عيناها الزرقاوان بالعدستين المخططتين والمحاطتين بالأزرق الغامق تلمعان ببريق يشبه بشكل مدهش بريق الحياة من خلال رموش محنية من الشعر الطبيعي واكتشفت ميغي مسحورة أن انييس كانت تغمض عينيها عندما تستلقي تماماً على ظهرها. وكانت هناك شامة على خدها الوردي، أما شفتاها الداكنتان فكانتا منفرجتين عن أسنان دقيقة ناصعة البياض. ووضعت ميغي الدمية برفق في حجرها وجلست على ساقيها المطويتين تتأملها، فقط تتأملها.

كانت لا تزال جالسة خلف الشجيرة عندما تسلل جاك وهوغي خلسة عبر العشب الطويل والكثيف والذي لم يصل إليه

المنجل لقربه من السياج. وكان شعر الصبيين نموذجاً لكل عائلة كليري، فقد ابتلى كل الأولاد ما عدا فرانك بشعر كثيف عصي يميل لونه إلى الاحمرار. ولكن جاك أخاه بمكر وهو يشير إلى ميغي ثم افترقا مكشرين الواحد للآخر بخبث، مدعيين أنهما جنديان يلاحقان أحد المارقين «الماووري»[1] ولم تكن ميغي لتسمعهما وهي مستغرقة في الغناء لدميتها لو لم يصرخ جاك وهو يقفز أمامها:

ـ ما معك يا ميغي، أريني؟

ـ نعم، أرينا.

قال هوغي وهو يقهقه ويقوم بمناورة تقطع على أخته خط الانسحاب. فضمّت الفتاة الدمية إلى صدرها وهزت رأسها:

ـ كلا، إنها لي. لقد حصلت عليها في عيد ميلادي.

ـ هيا، أرينا. إننا لا نريد إلّا إلقاء نظرة فقط.

وغلب الفخر والفرح في صدر الفتاة ورفعت الدمية لتريها لأخويها:

ـ انظرا كم هي جميلة. انها تدعى انييس.

ـ انييس؟ انييس؟ قال جاك بسخرية. ما هذا الاسم المخيف؟ لماذا لم تسميها مرغريت أو بيتي؟

---

(١) الماووري: سكان نيوزيلاندة الأصليين.

ـــ لأنها انيبس.

ولاحظ هوغي مفاصل قبضة يد الدمية وصفر :

ـــ ايه جاك ، انظر ، انها تستطيع تحريك يدها .

ـــ وكيف هذا؟ أريني .

ـــ لا . صرخت الطفلة وهي تضم اللعبة إلى صدرها وامتلأت عيناها بالدموع. سوف تحطمانها، اوه.. يا جاك، لا تأخذها مني ، انك سوف تكسرها .

وانطبقت يدا الولد السمراوان القذرتان تضغطان بشدة على معصم الصغيرة :

ـــ هل تريدين أن ألوي يدك؟ ولا تبكي كالأطفال وإلّا أخبرت بوب .

وأخذ يقرص جلدها ويعصره في كل الاتجاهات حتى انسحب الدم منه ، بينما كان هوغي يمسك الدمية من تنورتها ويشدها إليه .

ـــ أعطني الدمية وإلا آلمتك فعلاً .

ـــ لا يا جاك، أرجوك ، سوف تكسرها ، اني أعلم انك ستكسرها ، أرجوك دعها وشأنها ، لا تأخذها ، أرجوك .

وبرغم القبضة العنيفة المطبقة على رسغها فقد كانت تتعلق بالدمية وهي تنتحب وتحاول التملص رافسة الأرض بقدميها :

لقد حصلت عليها، صرخ هوغي صرخة انتصار بينما الدمية تنزلق من ذراعي الطفلة. ولم يكن افتتان الصبيين بالدمية أقل من افتتان أختهما فأخذا ينزعان ثيابها قطعة قطعة حتى استلقت عارية وهما يشدان على أعضائها في كل الاتجاهات وفي كل الأوضاع الممكنة، ويدفعان بقدمها فوق رأسها وبرأسها نحو عمودها الفقري وقد نسيا ميغي وهي واقفة تبكي، ولم يخطر ببالها أن تستغيث إذ أنه جرت العادة في عائلة كليري إلا تُمدّ يد المساعدة ولا الشفقة لمن لا يستطيع الدفاع عن نفسه. وكانت هذه القاعدة تطبق على الفتيات أيضاً.

○

وتطاير شعر الدمية وتناثرت اللآلىء اللامعة واختفت بين الأعشاب العالية. وسَحَقَ حذاء قذر غير مبال الثوب المرمي، ولُطّخ الساتان بالشحم الذي علق به من ورشة الحدادة. وسقطت ميغي على ركبتيها تكشط الأرض بجنون محاولة تجميع الملابس الصغيرة قبل أن تتكبد أذية أكبر. ثم أخذت تبحث في الأعشاب محاولة العثور على اللآلىء. كانت

الدموع تعميها وقلبها يمتلىء بألم جديد، فحتى ذلك الحين لم تكن قد امتلكت أي شيء يستحق الألم.

رمى فرانك بالنضوة في الماء البارد فبدأت تصفر، وانتصب. لم يعد ظهره يؤلمه في هذه الأيام، ربما أنه قد اعتاد على الحدادة «ولقد حان الوقت لذلك بعد ستة أشهر من العمل»، كما كان والده سيقول. ولكن فرانك وحده كان يعرف كم من الوقت مضى على رفقته للسندان والكور ولقد قاس هذا الوقت بالكره والحقد. ورمى فرانك المطرقة في علبتها ودفع بشعره الأسود عن جبينه بيد ترتعش، ونزع صدارة الجلد القديمة المعلقة حول رقبته. وكان قميصه مرمياً على كومة من القش في زاوية فاقترب منه بتثاقل ثم توقف ونظره مثبت على جدار المستودع المتشقق كما لو أن لا وجود له وعيناه السوداوان جامدتان على سعتهما.

كان الشاب قصير القامة نوعاً ما، لم يكن يتجاوز المتر والستين سنتمتراً، وكان نحيلاً ككل المراهقين، ولكن عضلات كتفيه وساعديه كانت بارزة وصلبة من العمل بالمطرقة، أما الجلد الشاحب الملمس فكان يلمع بالعرق. كان لشعره الأسود وعينيه السوداوين صبغة أجنبية إذ أن شفتيه المليئتين وأنفه المعقوف لم يكونا شيئاً مألوفاً في العائلة، فالدم الماووري كان يجري في عائلة

أمه ولقد ورث عنها هذا ، كان يبلغ السادسة عشرة من عمره تقريباً بينما كان بوب يقارب الحادية عشرة ، وجاك العاشرة وهوغي التاسعة وستوارت الخامسة . وأما الصغيرة ميغي فكانت في الثالثة . وتذكر فرانك عندئذ أن ميغي قد بلغت الرابعة في ذلك اليوم ، الثامن من كانون الأول ، فارتدى قميصه وغادر المستودع .

كان البيت يقع على هضبة صغيرة ترتفع حوالي الثلاثين متراً عن المستودع والحظائر ، وككل بيوت نيوزيلاندة كان مصنوعاً من الخشب ، ومن طابق واحد يمتد على مساحة كبيرة انطلاقاً من فكرة أنه إذا حصلت هزة أرضية فلا بد أن يبقى منه جزء ما . وكان محاطاً بأشجار الوزّال المتداعية تحت ثقل أزهارها الصفراء في مثل هذا الوقت من السنة . أما العشب فكان أخضر وافراً كما في كل مراعي نيوزيلاندة . ولم يكن لونه يصفرُّ حتى في عز الشتاء عندما كان الصقيع يرفض أن يذوب طوال النهار إذا ما وُجد في الظل . أما الصيف الطويل اللطيف فكان يجعله أكثر اخضراراً . وكان المطر يتساقط بلطف دون أن يؤذي أي شيء ينمو برقة . لم يكن هناك ثلوج ، أما الشمس فكانت تملك من القوة ما يكفيها على الإحياء فقط ، فالدمار لم يكن في مقدورها . أما مصيبة نيوزيلاندة الكبرى فكانت تخرج مزمجرة من بطن الأرض بدلاً من

أن تسقط من السماء، وكان الناس يعيشون دائماً بقلق انتظار خانق لرعشة خافتة تنتقل إليهم عبر أقدامهم ، لأن قوة مرعبة كانت ترقد تحت سطح الأرض، قوة بلغ جبروتها أنها محت جبلاً بكامله عن وجه الأرض، لثلاثين عاماً مضت . وكان البخار ينبثق صافراً من شقوق في جوانب الهضاب البريئة المظهر والبراكين تقذف بدخانها نحو السماء بينما تتراكض المياه الساخنة شلالات . وكانت بحيرات عظيمة من الوحل اللزج تغلي وأمواج البحر تلحس بتردد الأجراف التي ربما لن تكون هناك لتستقبل الموجة التالية، وأما في بعض المناطق فلم تكن سماكة القشرة الأرضية لتتجاوز العشر أمتار .

ومع ذلك فقد كانت الأرض لطيفة مضيافة، فوراء البيت يمتد سهل أخضر كالزمردة في خاتم خطبة «فيونا كليري» مرصع ببقع قشدية اللون، وعندما ينظر الانسان عن قرب يرى أنها خراف . وبينما تبرز حوافي التلال بوضوح على السماء الزرقاء ينتصب جبل إغمون على علو ثلاثة آلاف متر صاعداً لمقابلة الغيوم بمنحدراته المغطاة دوماً بالثلوج البيضاء وبتناسقه الرائع الذي لم يكفّ يوماً عن اثارة ذهول فرانك رغم رؤيته له كل يوم من أيام حياته .

كان الطريق من المستودع إلى البيت مجهِداً ، ولكن فرانك سارع الخطى لعلمه أنه لم يكن عليه أن يترك دكان الحدادة فقد كانت أوامر والده واضحة . وعندما دار حول زاوية المنزل رأى المجموعة الصغيرة قرب شجرة الوزّال .

كان فرانك قد قاد أمه بالعربة إلى مخزن واهيني لشراء الدمية ، وحتى تلك الساعة كان يتساءل ما الذي دفعها إلى هذا التبذير فقد كانت تعتقد أن الهدية يجب أن تكون مفيدة إذ أن العائلة لم تكن تملك المال الكافي لشراء هدايا غير ضرورية ولم تقدم بحياتها لعبة لأحد منهم قبل اليوم . كانوا كلهم يحصلون على ملابس كهدايا ، فأعياد ميلادهم وعيد الميلاد كانت فرصة لتجديد خزانتهم الهزيلة ، ولكن يبدو أن ميغي كانت قد رأت الدمية في زيارتها الأولى والوحيدة للمدينة ولم تنس فيونا ذلك . وحين سألها فرانك تفسيراً تمتمت ببضع كلمات عن أن البنات يحتجن لدمية ، ثم غيرت الحديث بسرعة .

كان هوغي وجاك يجلسان في الممر أمام البيت والدمية بينهما يديران مفاصلها بفظاظة ، ولم يكن باستطاعة فرانك أن يرى إلا ظهر ميغي وهي واقفة تنظر إلى أخويها يدنسان الدمية ، وكان

جوربها الأبيض قد انزلق متجعداً حول حذائها الأسود الصغير وساقاها الورديتان تبدوان عاريتين تحت ذيل ثوبها المخملي البني الذي تلبسه يوم الأحد والمناسبات. وكان شعرها الأجعد الغزير يتساقط شلالاً على ظهرها ويلمع في الشمس بلون يحار بين الأحمر والأشقر، أما الشريطة البيضاء التي كانت ترد خصلات شعرها عن جبينها فكانت تتدلى رخوة مهملة وقد لطخ الوحل ثوبها وهي تشد بيد على ثياب الدمية بينما تحاول بالأخرى أن تدفع هوغي بلا جدوى.

ــ أيها القذران الصغيران.

وقفز جاك وهوغي على قدميهما وأسرعا يجريان وقد نسيا الدمية، إذ أن من الأفضل الهرب عندما يتكلم فرانك بهذه اللهجة.

وصاح فرانك وراءهما:

ــ إن أمسكت بكما مرة ثانية وانتما تلمسان هذه الدمية أيها الأصهبان القذران، فسأكوي قفاكما بالحديد المحمّى.

ثم انحنى على ميغي وأمسك بها من كتفيها وهو يهزها برفق:

ـــ اهدئي، اهدئي، لا حاجة للبكاء. هيا بنا، لقد ذهبا ولن يلمسا دميتك ثانية، إني أعدك بذلك. هيا ابتسمي لي بمناسبة عيد ميلادك. ايه؟

كان وجهها متورماً وجفناها منتفخان ونظرت إلى فرانك بعينيها الرماديتين الواسعتين وكانتا مليئتين بالأسى حتى أن فرانك شعر بأنه يختنق فسحب من جيبه قطعة قماش وسخة وأخذ يمسح وجهها مرتبكاً ثم امسك بأنفها الصغير بين طيات القماش وطلب منها أن تنفخ ففعلت وهي تشهق بصوت عال بينما كانت تجفف دموعها:

ـــ أوه يافر... فر... فرانك، لقد أخـ... أخـ... أخذا انييس مني.

وتابعت وهي تشخر:

ـــ لقد سقط شعرها وفقـ.. فقدت لآلئها الجمـ.. جميلة الغصـ.. «الغصيرة». لقد سقطت كل اللآلىء في العـ.. العشب ولا أستطيع أن أجدها.

وتصاعدت دموعها ثانية وتساقطت على يد فرانك. ونظر إلى يده المبللة لحظة ثم بدأ يلحس قطرات الدمع.

ــ حسناً، حسناً، علينا أن نجدها أليس كذلك؟ ولكنك لن تستطيعي العثور على أي شيء وأنت تبكين. ثم ما هذا الكلام الصبياني؟ لم أسمعك تقولين «غصيرة» بدل «صغيرة» منذ ستة أشهر. والآن نظفي أنفك واحملي انييس المسكينة، إنها ستنال ضربة شمس إذا لم تلبسيها ثيابها الآن.

واجلسها على حافة الممر وناولها دميتها برفق ثم بدأ يزيح الأعشاب باحثاً عن اللآلىء وما لبث أن أطلق صرخة انتصار وهو يمسك بإحدى اللآلىء:

ــ ها هي الأولى، سوف نجدها جميعها. انتظري وسترين.

ونظرت ميغي إلى أخيها الكبير بحب كبير بينما هو يبحث بين الأعشاب رافعاً بيده كل لؤلؤة يجدها. ثم تذكرت أن بشرة انييس رقيقة جداً ويمكن للشمس أن تحرقها بسرعة. فأدارت انتباهها إلى الدمية تلبسها ملابسها. لم تكن الدمية قد تحملت أذى حقيقياً، فشعرها كان ينتشر مشعثاً وذراعاها وساقاها وسختان في الأماكن التي لمستها يدا الولدين القذرتان ولكن كل عضو كان يتحرك بشكل طبيعي. وكانت ميغي تضع في شعرها مشطين من الصدف يمسكان بخصلاتها على جانبي رأسها،

فجذبت أحدهما وحررته من شعرها ثم بدأت تسرح شعر أنييس الذي كان شعراً بشرياً حقيقياً مثبتاً بمهارة على قاعدة من القماش المصمغ، ومصبوغاً بلون كلون القش الذهبي.

كانت تشد بارتباك على عقدة كبيرة في الشعر محاولة تسليكها عندما حصلت الكارثة. فقد سقط الشعر بكامله وتدلى أشعث من بين أسنان المشط. ونظرت ميغي وراء جبين انييس ولم تجد شيئاً، لا رأس ولا صلعة ولا أي شيء إلا فجوة فاغرة بشعة. وانحنت ميغي لتتفحص التجويف وهي ترتعش فريسة للرعب وبدت لها تقعرات الخدين والذقن غير واضحة، وكان قليل من الضوء يتسرب عبر الشفتين المنفرجتين عن أسنان سوداء كانياب حيوان وفوق كل شيء كانت هناك العينان، كرتان شنيعتان تطقطقان ويربط بينهما خيط معدني يثقب رأسها بوحشية.

وتصاعد صراخ ميغي عالياً حاداً، لا يشبه بشيء صراخ طفل وقذفت بأنييس بعيداً وهي لا تزال تصرخ وقد غطت وجهها بيديها مرتعدة مرتجفة ثم أحست بفرانك يزيح أصابعها ويأخذها بين ذراعيه مخبئاً رأسها في عنقه، وشددت من عناقها له باحثة عن الطمأنينة حتى هدأت، وعندئذ انتبهت إلى رائحته الطيبة النفاذة، رائحة الخيل والحديد.

وعندما هدأت تماماً جعلها فرانك تحكي له ما حدث، ثم التقط الدمية ونظر إلى الرأس المجوف باشمئزاز محاولاً أن يتذكر إذا كان هذا النوع من الرعب قد هاجم يوماً عالم طفولته ولكنه تذكر أن الأشباح الكريهة التي كانت تلازمه كانت أشخاصاً وهمسات ونظرات باردة، وخيال وجه أمه المنقبض الذي بدأ يذبل ويدها المرتعشة تمسك بكتفه بينما يتصلب كتفاها.

ما الذي رأته ميغي حتى انفعلت بهذا الشكل؟ وتصور أنها ما كانت لتتأثر بهذا الشكل لو أن دم انبيس المسكينة كان قد سال عندما فقدت شعرها. فسيلان الدم حقيقة واقعة وكل أسبوع يسيل دم أحد أفراد العائلة بغزارة.

ــ عيناها، عيناها. همست ميغي وهي ترفض النظر إلى الدمية.

ــ إنها رائعة يا ميغي، إنها حقاً رائعة. تمتم لها وهو يدفن وجهه في شعرها.

كم كان شعرها جميلاً! ناعماً كالحرير، غزيراً يبدو وكأنه يشتعل! ومرت نصف ساعة وهو يلاطفها ليجعلها تنظر إلى انبيس، ونصف ساعة حتى استطاع إقناعها بالنظر إلى تجويف الرأس، ثم أراها كيف تعمل العينان وكيف كانتا مركزتين بعناية

حتى تستقران تماماً في محجريها فيمكنهما عندئذ الانغلاق والانفتاح عندما تنحني الدمية .

ــ هيا بنا الآن ، لقد حان الوقت لنعود إلى البيت .

قال هذا وهو يرفعها بين ذراعيه ، واضعاً الدمية بين صدريهما .

ــ سوف نطلب من الوالدة إصلاحها ، سنغسل ثيابها ونكويها لها ثم نلصق شعرها من جديد ، وسوف اصنع لك دبابيس لشعرها تثبتين بها اللآلىء فلا تسقط ، وسيكون باستطاعتك أن تسرحي شعرها بأية طريقة تشائين .

كانت فيونا كليري في المطبخ تقشر البطاطا . كانت امرأة جميلة ، شقراء البشرة ، قصيرة القامة ولكن وجهها كان صارماً وقاسياً . وكان قوامها جميلاً جداً وخصرها نحيلاً رغم حملها لستة أولاد . كانت ترتدي ثوباً من الخام الرمادي يجر وراءها على الأرض النظيفة ، ويغطيه من الأمام صدار أبيض كبير منشى وقد مررت شريطته من وراء رقبتها وعقدتها في ظهرها عقدة جميلة . ومنذ أن تنهض في الصباح وحتى تنام في المساء ، كانت تقضي وقتها ما بين المطبخ والحديقة الخلفية راسمة بحذائها الأسود السميك طريقاً ثابتة

تذهب من المطبخ إلى مكان الغسيل ومن حديقة الخضار إلى حبل الغسيل ثم تعود إلى الفرن .

وضعت فيونا السكين على الطاولـة ونظـرت إلى فرانك وميغي وتدلّت زوايا فمها الجميل .

ـــ ميغي ، لقد تركتك هذا الصباح ترتدين فستان الأحد على شرط واحد ، هو ألا توسخيه . والآن انظري إلى نفسك . ماذا فعلت أيتها الصغيرة القذرة ؟

ـــ لم تكن غلطتها يا ماما ، قاطعها فرانك ، لقد أخذ جاك وهوغي دميتها وحاولا أن يفهما كيف تعمل الذراعان والساقان . ولقد وعدتها بأن نصلحها لها فتعود وكأنها جديدة . وسنفعل ، أليس كذلك ؟

ـــ دعني أرها .

ومدت «في» يدها تأخذ الدمية .

كانت امرأة صموتاً ليس من طبعها الحديث العفوي ، ولم يكن أحد يعلم أفكارها ، حتى زوجها . وكانت قد تركت لزوجها الاهتمام بتربية الأولاد بينما تنفذ هي كل ما يأمرها به دون تعليق ولا شكوى إلا في ظروف غير اعتيادية . وكانت ميغي قد سمعت

الصبيان يقولون أنها تخشى الوالد مثلهم بالضبط. ولكن لو كان هذا صحيحاً فلا بد أنها تخفي خوفها هذا تحت طلاء من الهدوء الغامض.

وعندما أنهت فحص الدمية، وضعتها على خزانة الصحون قرب الفرن ونظرت إلى ميغي:

ـــ سأغسل ثيابها غداً واسرح شعرها. أما فرانك فسيلصق الشعر هذا المساء بعد الشاي، على ما أظن، وسيحمّمها.

كانت كلماتها مصبوغة بالعقل أكثر منها بالتعزية. وأحنت ميغي برأسها موافقة وعلى شفتيها ابتسامة مترددة. أحياناً كانت تشتهي من كل قلبها أن تسمع أمها تضحك، ولكن هذه لم تكن تفعل أبداً. وكانت تشعر أن بينها وبين أمها شيئاً خاصاً لا يشاركهما فيه الأب ولا اخوتها الصبيان، ولكنها لم تستطع أن تكشف أبداً ما وارء هذه القامة المنتصبة وهاتين القدمين اللتين لا تتوقفان عن الحركة. كانت الوالدة تكتفي بهز رأسها شاردة وتنورتها تروح وتجيء بين الفرن والطاولة بينما هي تعمل وتعمل وتعمل. والذي لم يلاحظه الأولاد ـــ ما عدا فرانك ـــ هو أن الأم كانت متعبة دوماً، متعبة دون أمل في الشفاء.

أشياء كثيرة كان يجب أن تتم وليس هناك المال الكافي ولا الوقت الكافي لإنجازها، ولم يكن هناك إلّا يدان للعمل. كانت تتوق إلى اليوم الذي تكبر فيه ميغي لتساعدها، ومع أن الطفلة كانت تقوم بأشغال بسيطة فلم يكن بإمكانها وهي طفلة في الرابعة أن ترفع العبء عن كاهل أمها. ستة أولاد وواحد منهم فتاة وهي أصغرهم فوق كل حساب. كان معارفها يشفقون عليها وفي الوقت نفسه يحسدونها ولكن هذا لم يكن كافياً لإنجاز العمل. كان في سلة الخياطة جبل من الجوارب المثقوبة تنتظر من يرتقها، بينما كانت صنانير الصوف لا تزال تحمل جورباً لم ينته بعد، وهاهو هوغي قد كبر ولم يعد باستطاعته ارتداء صداريه الصوفية ولم يكن جاك قد كبر كفاية ليرتدي ثياب أخيه.

عاد «بادرايك كليري» إلى البيت في الأسبوع الذي احتفلت فيه ميغي بعامها الرابع وكان ذلك بمحض الصدفة. فالوقت لا يزال مبكراً على موسم جزّ الأغنام وكان يعمل في المناطق المجاورة في الفلاحة والزراعة.

كانت مهنته جزّ الأغنام وعمله هذا كان موسمياً يمتد من أواسط الصيف حتى آخر الشتاء، وبعد هذا يأتي زمن النتاج.

وكان عادة يتدبر أمره ليجد ما يشغله في الربيع وأوائل الصيف، فيساعد في وضع النعاج أو في الفلاحة أو في حلب البقر الذي لا نهاية له. كان يذهب حيث يجد عملاً، تاركاً عائلته في المنزل الكبير تهتم بنفسها، ولم يكن هذا يبدو قاسياً. فحين لا يملك الشخص أرضاً كافية فهذا كل ما يستطيع عمله ليعيش. وعندما وصل بعد المغيب بقليل كانت القناديل مضاءة في البيت والظلال المرتعشة تلعب على السقف المرتفع. كان الصبية مجتمعين على الشرفة الخلفية يلهون بضفدع. ما عدا فرانك، وكان بادرايك يعرف أين يجده إذ كان يسمع طرقات الفأس المنتظمة قادمة من جهة المحطبة. وتوقف على الشرفة قليلاً ليرفس جاك ويقرص أذن بوب.

ـ اذهبا وساعدا فرانك في تقطيع الحطب أيها الكسلانان القذران. والأحسن أن تسرعا قبل أن تضع أمكما الشاي على المائدة وإلا فسيتطاير جلدكما وشعركما.

وهز برأسه ناحية فيونا المنهمكة أمام الفرن. لم يقبلها أو يعانقها لأن إظهار العواطف بين رجل وامرأته كان بنظره مقتصراً على غرفة النوم فقط. وبينما كان يخلع جزمته الموحلة هرعت ميغي

حاملة له خفيه، وابتسم للطفلة وعاوده ذلك الإحساس بالتعجب الذي كان يشعر به كلما نظر إليها. كانت جميلة جداً، وكان شعرها جميلاً وامسك بيده خصلة منه وشدها إليه ثم تركها وذلك ليتلذذ فقط برؤيتها تقفز متلوية ثم تعود إلى مكانها. ورفع الصغيرة بين يديه واقترب من المقعد الوحيد المريح في المطبخ، وهو من طراز «وندسور» وله وسادة معلقة في مكان الجلوس، وكان موضوعاً بقرب النار، فجلس وهو يطلق تنهدة خفيفة، وسحب غليونه وأخذ يضربه ضربات خفيفة ليفرغ ثفالته على الأرض، بدون مبالاة. وتكورت ميغي في حضنه ووضعت ذراعيها حول عنقه ورفعت وجهها الصغير الغض نحو أبيها آملة أن تلعب لعبتها الليلية وهي أن ترى الضوء يتسرب عبر لحيته الذهبية القصيرة.

ـ كيف حالك يا «في»؟ سأل بادرايك زوجته

ـ بخير يا «بادي». هل أنهيت اليوم الأرض المنخفضة؟

ـ نعم، لقد انتهت، أستطيع أن أبدأ الجهة العليا غداً صباحاً. ولكن يا إلهي، كم أنا متعب!

ـ لا شك في ذلك، هل أعطاك ماك فرسون الفرس العجوز المعتوهة؟

ـ بالطبع، هل تظنين أنه يقبل العمل بنفسه مع هذه البهيمة

ويعطيني الحصان الأغبر ؟ إني أشعر بساعديّ وكأنما قد خرجا من مفاصلهما وأقسم أن تلك الفرس هي أعند ما رأيت في نيوزيلاندة .

ــ لا تهتم . إن كل خيول العجوز روبرتسون جيدة وقريباً ستكون هناك .

ــ لقد حان الوقت لذلك .

وملأ غليونه بالتبغ الخشن ثم تناول فتيلاً طويلاً من وعاء ضخم قرب الفرن وأشعله بتمريره بسرعة أمام الجمر المتوهج ، واستلقى في مقعده وسحب نفساً عميقاً من الغليون الذي أخذ يقرقر .

ــ ماهو شعورك ببلوغك الرابعة يا ميغي ؟

ــ شعور حسن يا أبي .

ــ هل أعطتك أمك الهدية ؟

ــ آه يا بابا ، كيف حزرت أمي أنني أرغب في أنييس ؟

ــ انييس ؟ وألقى نظرة سريعة على « في » مبتسماً ومقطباً حاجبيه في تساؤل ، هل هذا اسمها ؟ انييس ؟

ــ نعم ، إنها جميلة يا أبي . أتمنى أن أنظر إليها النهار بطوله .

وتمتمت « في » :

ــ ستكون محظوظة بأن تجد شيئاً تنظر إليه ، لقد استولى هوغي وجاك على الدمية قبل أن يتسنى لميغي رؤيتها حقاً .

ــ حسناً ، إن الصبية لا يتغيرون . هل الضرر كبير ؟

ــ لا شيء لا يمكن إصلاحه ، لقد قبض عليهما فرانك قبل أن يتماديا في الأذى .

ــ فرانك ؟ وماذا كان فرانك يفعل هنا ؟ كان من المفروض أن يمضي النهار في حانوت الحدادة . إن هنتر ينتظر بوابته .

ــ لقد بقي في الحانوت طوال النهار . وقد جاء فقط يبحث عن إحدى الأدوات . أجابته « في » بسرعة ، فقد كان بادرايك قاسياً على فرانك .

ــ إن فرانك أحسن الأخوة يا أبي ، لقد أنقذ انييس ولولاه لماتت ، وهو سوف يعيد إلصاق شعرها بعد العشاء .

ــ هذا جيد . أجاب والدها مهمهماً وهو يسند رأسه على ظهر المقعد ويغلق عينيه .

كان المكان حاراً أمام الفرن ولكن يبدو أنه لم يلاحظ ذلك ، وتجمعت قطرات من العرق فوق جبينه ، لامعة ، فوضع ذراعيه خلف رأسه وأغفى .

كان الأولاد قد ورثوا عن أبيهم حمرة شعرهم الكثيف المتموج ولكن أحدهم لم يرث تماماً هذا الرأس المشتعل كالنار. كان قصير القامة ولكن جسمه كان فولاذياً مرناً، وكانت ساقاه مقوستين من عمر أمضاه فوق ظهر الخيل، وكانت ذراعاه طويلتين من جزّ الأغنام سنين عديدة، أما صدره وساعداه فقد غطتهم جزّة ذهبية كثيفة كانت ستبدو قبيحة لو كان لونها غامقاً. وكان بالإمكان أن تحزر لون عينيه الأزرق الفاتح من خلال الجفنين المتقاربين كجفني بحار ينظر إلى البعيد. ووجهه كان لطيفاً ينم عن شيء من نزوة كانت تجعله محبباً لمن يراه للمرة الأولى.

وأما أنفه الرائع فكان رومانياً حقاً، ومحيّراً بدون شك لمواطنيه الأيرلنديين، ولكن لِمَ الدهشة؟ فكم من سفينة تحطمت على شواطىء إيرلندا! وكان قد احتفظ من اللغة الغالية الايرلندية باللهجة الناعمة، ولكن عشرين سنة من التجوال تركت عليه أثرها فضعفت هذه اللهجة وتباطأت سرعة لفظه قليلاً كساعة عتيقة يجب تدويرها. رجل سعيد توصل أن ينجح في حياته الشاقة أكثر من أغلب أقرانه، وبالرغم من أنه فرض على البيت نظاماً من حديد، وبالرغم من ركلاته السريعة فقد كان أولاده يعبدونه ما عدا

واحداً. وحين لم يكن هناك من الخبز ما يكفي الجميع، كان يتنازل عن حصته، وعندما كان يجب الاختيار بين أن يشتري ثوباً جديداً لنفسه أو لولد من أولاده فقد كان يعدل عن الثوب لنفسه. وكان ذلك برهان حب أفصح من كل القبلات. كان طبعه ملتهباً جداً، ولقد قتل رجلاً مرة، ولكن الحظ كان حليفه، فالرجل كان انكليزياً، وكان هناك سفينة في مرفأ «دان لوغان» مغادرة إلى نيوزيلاندة، فركبها.

ذهبت فيونا إلى الباب الخلفي ونادت: «هيا إلى المائدة».

ودخل الصبيان الواحد بعد الآخر وكان آخرهم فرانك وذراعاه محملتان بالحطب فرماه في صندوق كبير قرب الفرن. وأنزل بادرايك ميغي أرضاً واتجه صوب رأس الطاولة في الطرف الأقصى من المطبخ بينما كان الصبية يجلسون حول المائدة وميغي تحط كعصفور على الصندوق الخشبي الذي وضعه والدها على كرسي بقربه. وسكبت فيونا الطعام مباشرة في الأطباق بمهارة وخفة أكثر من مهارة وخفة نادل، ثم حملتها اثنين اثنين لعائلتها، بادي أولاً ثم فرانك والباقين، وأخيراً ميغي، ثم أتت بطبقها هي.

ـــ آه، يخنة أيضاً. قال ستوارت وهو يكشر ويمسك بسكينه وشوكته.

ـــ كل. امره بادي.

كانت الصحون كبيرة ومع ذلك فقد كانت مليئة حتى حافتها: بطاطا مسلوقة ويخنة بلحم الخروف وفاصوليا خضراء قطفتها الأم ذلك اليوم من الحديقة.

وبالرغم من بعض التذمرات المخنوقة وهمسات الاشمئزاز فكلهم، وحتى ستوارت، نظفوا صحونهم تنظيفاً بالخبز ثم أكلوا عدة قطع من الخبز مع الزبدة والمربى المصنوع في البيت. وجلست « في » وابتلعت وجبتها، ثم وقفت وسارعت إلى طاولة عملها ثانية حيث أخذت تملأ صحون حساء كبيرة بكميات ضخمة من البسكويت المحشي بالمربى والمرشوش بالسكر، ثم سكبت القشدة المغلية فوق كل صحن وأخذت تروح وتجيء حاملة الصحون إلى المائدة، اثنين في كل مرة. وأخيراً جلست وهي تتنهد، الآن تستطيع أن تأكل الحلوى على راحتها.

ـــ مم، مم، هتفت ميغي، الحلوى! وأخذت تغرز ملعقتها في القشدة حتى تسرب المربى الوردي من خلال صفار القشدة.

ـــ حسناً يا فتاة ، اليوم عيد ميلادك ولهذا فقد صنعت لك أمك حلواك المفضلة . قال أبوها وهو يبتسم . وهذه المرة لم تُسمع أية شكوى فقد أكلها الجميع بشهية . إذ أن آل كليري جميعاً يحبون الحلوى .

ولم يكن أحد من أفراد العائلة يحمل أوقية واحـدة من الشحم الزائد بالرغم من كميات النشويات الضخمة التي كانوا يتناولونها . فقد كانوا يحرقون في العمل أو اللعب كل غرام يأكلونه . وكانوا يأكلون الخضار والفاكهة لأنها مغذية ، ولكن لم يكن هناك مثل الخبز والبطاطا واللحم والحلويات البيتية لمقاومة الإرهاق .

وبعد أن صبت « في » فنجاناً من الشاي لكل فرد من أبريق عملاق ، جلسوا يتحدثون وهم يشربون ويقرأون ساعة أو أكثر بقليل ، وبادي يدخن غليونه وقد دفن رأسه في أحد الكتب ، و« في » تملأ الفناجين باستمرار بينما كان بوب يطالع هو أيضاً ، والصغار يرسمون خططاً للغد . فالمدرسة كانت قد حررت الأولاد لعطلة الصيف الطويلة[1] ، وكان الصبيان أحراراً ومتشوقين لإنجاز

---

(١) في نيوزيلاندة تبدأ العطلة الصيفية في كانون الأول .

الأعمال الموكولة إليهم في المنزل والحديقة. كان على بوب أن يعيد طلاء الحيطان الخارجية في الأماكن التي تساقط طلاؤها بينما تولى جاك وهوغي أمر الحطب والعناية بالأبنية الخارجية وحلب المواشي، أما ستوارت فكان يهتم بالخضار وكان يعدّ هذا لعباً بالمقارنة مع أهوال المدرسة.

ومن وقت لآخر كان بادي يرفع رأسه ليضيف شيئاً جديداً إلى لائحة الأعمال، ولم تقل «في» شيئاً بينما كان فرانك مسترخياً تعباً يرشف من فنجان الشاي.

وأخيراً، أشارت «في» إلى ميغي برأسها أن تجلس على مقعد خشبي مرتفع وأخذت تسرح لها شعرها ثم لفت الخصلات حول قطع من الورق للمحافظة على تجعيده أثناء الليل، وأرسلتها هي وهوغي وستوارت إلى السرير. واعتذر جاك وبوب وهما يخرجان لإطعام الكلاب بينما أخذ فرانك دمية ميغي إلى طاولة العمل وبدأ يلصق شعرها، وتمطّى بادرايك وهو يغلق كتابه ويضع غليونه في القوقعة الكبيرة اللامعة التي كانت تستعمل كمنفضة:

ــ حسناً، أيتها الوالدة، أنا ذاهب للنوم.

ــ ليلة سعيدة يا بادي.

ورفعت فيونا الأطباق عن مائدة الطعام وتناولت وعاء كبيراً من الزنك كان معلقاً على الحائط ووضعته على طاولة العمل في الجهة المعاكسة لفرانك، ثم أخذت الغلاية الحديدية السميكة وصبت منها الماء الساخن في وعاء الزنك ثم أضافت إليه ماءً بارداً من علبة قديمة كانت تحتوي على الكاز فيما مضى. وبعد أن حركت في الماء قطعة من الصابون موضوعة في سلة صغيرة من الأسلاك المعدنية، بدأت تغسل الصحون وتفضها ثم تسندها إلى أحد الفناجين.

كان فرانك منهمكاً في الدمية دون أن يرفع رأسه ولكنه عندما رأى كومة الصحون ترتفع نهض بصمت وتناول فوطة وبدا يجفف الصحون ثم ينقلها من الطاولة إلى الخزانة بدون ارتباك لاعتياده على هذا العمل. كانت هذه لعبة سرية وخطرة يلعبها مع أمه لأن إحدى القواعد الصارمة في نظام بادي كانت التقيد بتوزيع المهمات. فالمنزل كان من اختصاص النساء ولا مجال لمناقشة هذا، ولم يكن يحق لأحد من الذكور في العائلة أن يتدخل في الأعمال النسائية. ولكن فرانك كان يساعد أمه كل مساء بعد أن ينام بادي، وكانت «في» متواطئة معه على ذلك إذ كانت تؤجل غسل

الصحون حتى تسمع خُفّ بادي الثقيل يرتمي على الأرض عندما يخلعه ليصعد إلى السرير، فتعلم عندها أنه لن يعود ثانية إلى المطبخ. ونظرت « في » إلى فرانك بحنان وقالت :

ــ لست أدري ماذا كنت سأفعل بدونك. لا يجب عليك أن تساعدني فسوف تكون متعباً في الصباح.

ــ لا تقلقي يا أمي فتجفيف بضعة صحون لن يقتلني. إنه شيء صغير جداً ربما هوّن عليك تعب الحياة قليلاً.

ــ إنه عملي يا فرانك وأنا لا أشكو منه.

ــ أتمنى أن نصبح أغنياء يوماً وعندها تستطيعين أن تأتي بخادمة.

ــ لا تحلم يا بني.

ومسحت الصابون عن يديها المحمرتين بقطعة من القماش ثم وضعتهما على ردفيها وهي تتنهد. كانت عيناها قلقتين وهما تستقران على ولدها. كانت تحس بسخطه ومرارته اللذين كانا أقوى من تمرد العامل العادي على قدره.

ــ فرانك، لا تملأ رأسك بالأوهام فهي لا تؤدي إلّا إلى المشاكل، نحن عمال وهذا يعني أننا لن نصبح أغنياء ولن يكون لنا خدم. إرضَ بحالك وبما تملكه. وعندما تقول أشياء كهذه فأنت تشتم

والدك وهو لا يستحق الشتم. أنت تعلم ذلك. إنه لا يشرب ولا يقامر وهو يشتغل كالحصان من أجلنا. إنه لا يضع في جيبه قرشاً واحداً مما يربح بل يعطيه كله لنا.

فارتعشت كتفاه القويتان بنفاذ صبر وتجهم وجهه وقال:

ـــ لماذا يبدو سيئاً أن نطلب من الحياة أكثر مما تعطي؟ لست أدري أين الخطأ في أن نتمنى أن يكون لك خادم!

ـــ هذا خطأ لأنه غير ممكن. أنت تعلم أننا لا نملك نقوداً لإرسالكم إلى المدرسة، وإذا لم يكن بإمكانكم أن تتعلموا فكيف تأمل أن تصبح أكثر من عامل؟ إن لهجتك وثيابك ويديك تنبيء عن أنك تعمل لتعيش. ولكن ليس من العيب أن تكون يداك مشققتين فكما يقول والدك، عندما ترى يدي شخص مشققتين فاعلم أنه شريف.

فهز فرانك بكتفيه ولم يجب. كانت الصحون كلها قد أصبحت في مكانها فاخرجت «في» سلة الخياطة وجلست في مقعد بادي، قرب النار بينما عاد فرانك إلى إصلاح الدمية.

ـــ مسكينة ميغي. قال فجأة.

ـــ لماذا؟

ـــ اليوم ، عندما كان الشيطانان الصغيران يمزقان لعبتها كانت واقفة تبكي وكأن عالمها كله قد تهاوى من حولها . ونظر إلى الدمية التي كانت قد استعادت شعرها .

ـــ انبيس ! إنني اتساءل أين وجدت لها هذا الأسم !

ـــ أظن أنها سمعتني أتحدث عن انبيس فورتيسكو سميث .

ـــ عندما أعطيتها الدمية نظرت إلى تجويف رأسها وكادت تموت من الرعب . لقد أفزعها شيء ما في العينين ولست أدري ماهو .

ـــ إن ميغي ترى دائماً أشياء لا وجود لها .

ـــ من المؤسف ألاّ توجد نقود كافية لإرسال الأولاد إلى المدرسة ، إنهم أذكياء جداً .

ـــ فرانك ، عندما تصبح الأمنيات خيولاً يصبح المتسولون أغنياء . قالت أمه بلهجة متعبة . ومررت يديها فوق عينيها وهي ترتجف قليلاً ثم شكت إبرتها في كرة من الصوف الرمادي .

ـــ سأتوقف عن الخياطة فلم أعد أرى جيداً لتعبي .

ـــ اذهبي ونامي يا أماه ، سأطفيء المصباح .

ـــ سأذهب حالما أضع الحطب في المدفأة .

ـــ دعيني أفعل ذلك .

ونهض وهو يضع الدمية الخزفية برفق خلف قالب الحلوى

على الخزانة حيث لا خطر عليها. لم يكن خائفاً من أن يحاول الأولاد تكسيرها ثانية فقد كانوا يخشون أخاهم أكثر من خوفهم من أبيهم لأن فرانك كان يخفي شيئاً من الشر ولم يكن هذا يبدو عليه عندما يكون مع أمه أو أخته، ولكن إخوته الصبيان كانوا ينالون نصيبهم منه.

كانت «في» تراقبه منقبضة القلب. كان عند فرانك شيء من الوحشية واليأس، هالة من العذاب الداخلي. لو أنه فقط كان متفاهماً مع بادي! ولكنهما كانا عاجزين عن النظر إلى الأمور بالنظرة نفسها وكانا يصطدمان دائماً. ربما كان قلقاً جداً عليها، ربما كان ولدها المفضل. ولو كان هذا صحيحاً فالغلطة غلطتها. ومع ذلك فما قاله يدل على حبه وطيبة قلبه. لم يكن يريد إلا أن يجعل حياتها رغيدة. ومرة أخرى وجدت نفسها تتشوق لليوم الذي تكبر فيه ميغي لتزيح قليلاً من العبء عن أكتاف فرانك.

تناولت فيونا مصباحاً صغيراً كان على الطاولة ثم وضعته مكانه ثانية ومشت إلى حيث كان فرانك جالساً القرفصاء أمام الفرن وهو يضع الحطب في الموقدة ويرصّه. وكانت عروق ذراعه بارزة ويداه المتناسقتان ملطختين ببقع لن تزول أبداً. ومدت يدها

بخجل وأزاحت شعره الأسود عن عينيه بنعومة زائدة. وكانت هذه الحركة أكثر ما كان بمقدرتها أن تظهره من الحنان:

ـــ ليلة سعيدة يا فرانك، وشكراً.

كانت الظلال تدور ثم تختفي أمام المصباح بينما كانت فيونا تتجه بسكون نحو الباب الذي يقود إلى القسم الأمامي من المنزل. كان فرانك وبوب يتقاسمان الغرفة الأولى، ودفعت الباب الذي انفتح بدون ضجة ورفعت المصباح فأضاء السرير العريض في الزاوية. كان بوب مستلقياً على ظهره وفمه مفتوح وهو يرتجف كالكلب، فتقدمت نحو السرير وقلبت الصبي على جانبه الأيمن لكي لا يرى كابوساً ثم وقفت برهة تنظر إليه. كم كان يشبه بادي!

أما جاك وهوغي فقد كانا ينامان متعانقين في الغرفة الملاصقة. يا للوغدين الصغيرين! كانا يقومان دائماً بحيلهما الخبيثة ولكن بدون أثر للشر فيهما. وحاولت بدون جدوى أن تبعدهما عن بعضهما لترتب أغطية السرير قليلاً، ولكن الرأسين الأحمرين رفضا الانفصال. وتنهدت برفق وتراجعت. كيف سيتمكنان من النهوض في الصباح يقظين نشيطين بعد ليل كهذا؟

ذاك ما لم تستطع فهمه. ولكن يبدو أن الوضع كان ملائماً لهما. كان مظهر الغرفة التي ينام فيها ستوارت وميغي حزيناً وقاتماً بالنسبة لطفلين، إذ كانت الجدران مطلية باللون البني والأرض مغطاة بمشمع بني أيضاً، ولم تكن هنالك أية صورة على الحائط، كبقية الغرف.

كان ستوارت قد أدار نفسه رأساً على عقب ولم يكن يظهر منه إلا قفاه الصغير المغطى بقميص النوم والذي كان يحتل مكان الرأس في السرير. ولاحظت «في» أن ركبتي الصغير كانتا تلاصقان جبينه وكالعادة تعجبت كيف لا يختنق. ومدت يدها تتحسس الملاءة ثم تصلبت. لقد بلل نفسه ثانية. حسناً. يجب الانتظار حتى الصباح وعند ذاك ستكون الوسادة مبللة أيضاً. كان يفعل ذلك دائماً فيدور على نفسه ويبلل السرير مرة ثانية. لابأس، فصبي واحد من بين خمسة صبية يبلل نفسه لم يكن بالشيء السيّء.

أما ميغي فكانت متكورة على نفسها في كومة صغيرة. وإبهامها في فمها، وشعرها المرصع باللفافات الورقية منتشراً حول رأسها. البنت الوحيدة. ولم تلق عليها «في» إلاّ نظرة سريعة قبل

أن تخرج . ليس هنالك أسرار عند ميغي ، فهي مجرد فتاة . وكانت « في » تعلم مصير الصغيرة ولا تحسدها بقدر ما تشفق عليها . ولكن الأمر كان مختلفاً بالنسبة للصبيان فقد كانت تعتبرهم أعاجيب ، ذكوراً خرجوا من جسمها الأنثوي . كان قاسياً عليها ألاّ تجد من يساعدها في البيت ولكن هذه الأعاجيب تستحق التعب . وكان وجود هؤلاء الذكور يعطي لبادي ميزته الأساسية بين أقرانه . لقد كانوا ثروته الوحيدة . فالرجل ليس رجلاً حقاً إلا عندما ينجب ذكوراً .

أغلقت « في » باب غرفتها بلطف ووضعت المصباح على الطاولة الصغيرة ، وتطايرت أصابعها الرشيقة حول الأزرار الصغيرة التي تغلق ثوبها من العنق إلى الخصر ، وأخرجت ذراعيها من الكميّن ثم من القميص الداخلي وهي تمسكه بعناية أمام صدرها ثم أخذت تتلوى لتدخل في قميص النوم ، وعندها فقط ، عندما غطت جسدها بحشمة تخلصت من القميص الداخلي والسروال . وبعد ذلك سحبت كل الدبابيس من شعرها ووضعتها على الطاولة وتركت شعرها الذهبي الذي كان معقوداً بشدة ينسدل على كتفيها . لكن هذه الحلية برغم جمالها وكثافتها ولمعانها وطولها ، لم

يكن لها الحق في الحرية. ورفعت «في» مرفقيها فوق رأسها وبدأت تضفر شعرها ويداها خلف رقبتها. وعندما انتهت، استدارت نحو السرير وهي تمسك أنفاسها لا شعورياً، لكن بادي كان غارقاً في النوم فتنفست الصعداء. وليس ذلك لأن رغبة بادي لم تكن تعجبها، إذ أنه كان حبيباً خجولاً وحنوناً وودوداً جداً، ولكنه كان من الصعب إنجاب طفل آخر قبل أن تكبر ميغي قليلاً.

الفصل الثاني

عندما كانت عائلة كليري تذهب إلى الكنيسة أيـام الآحاد، كان على ميغي أن تبقى في البيت مع أحد أخوتها وهي تتلهف لليوم الذي ستكبر فيه وتستطيع بدورها الذهـاب إلى الكنيسة. وكان بادرايك كليري يصر على أنه ليس للأطفال مكان إلاّ في المنزل وكانت قاعدته هذه تطبق على بيت الله. وبإمكان ميغي أن تذهب إلى الكنيسة بعدما تبدأ بالذهاب إلى المدرسة، فهي عندئذ ستجلس هادئة، وليس قبل ذلك. وهكذا فكل صباح أحد كانت تقف كئيبة قرب شجرة الوزّال أمام البوابة الأمامية بينما كانت العائلة تتكوم في العربة القديمة، وبينما كان أخوها المكلف بحراستها يتظاهر بأنه سعيد جداً بالتخلص من القداس. والحقيقة أن فرانك فقط كان سعيداً بالافتراق عن العائلة.

علي مولا

كان الدين بالنسبة لبادي جزءاً لا يتجزأ من حياته، وحينما تزوج من «في» لم يوافق الكاثوليك على هذا الزواج إلا من أطراف شفاههم لأن «في» كانت عضواً من كنيسة انجلترا[1] ومع أنها تخلت عن مذهبها لأجل بادي إلاّ أنها رفضت أن تعتنق مذهبه. ويصعب تفسير هذا إلاّ إذا علمنا أن آل ارمسترونغ كانوا ينحدرون من أعرق عائلة من رواد «كنيسة انجلترا» بينما كان بادي مهاجراً مفلساً جاء من بلد بلا دين ولا قانون وليس عنده ما يعتز به إلاّ أنه يخضع للتشريع الانكليزي. وكانت عائلة ارمسترونغ قد أتت إلى نيوزيلاندة قبل وصول المستعمرين «الرسميين» بزمن طويل وكان هذا جواز سفر للارستقراطية الاستعمارية. ومن جهة نظر آل ارمسترونغ كان زواج فيونا من بادي زواجاً غير متكافىء.

كان رودريك ارمسترونغ قد أسَّس قبيلته في نيوزيلاندة بطريقة غريبة، فقد بدأ ذلك بحدث كان له أصداء غير متوقعة على انجلترا في ذلك الوقت من القرن الثامن عشر: حرب الاستقلال الأميريكية. حتى سنة ١٧٧٦ كانت انجلترا ترسل كل عام أكثر من ألف مجرم إلى ولايتي فيرجينيا وكارولينا وتبيعهم بموجب عقد

(١) كنيسة انجلترا: البروتستنت.

يضعهم في موضع ذل ليس أفضل من العبودية، وكانت العدالة البريطانية في ذلك الوقت صارمة لا تتزحزح: فالقتـل والحرق وجرائم «الشعوذة» الغامضة والسرقة، سرقة أكثر من شلن واحد، كانت تُعاقب بالشنق، أما الجنحة الصغيرة فكانت تعاقب بالنفي إلى الأميريكيتين مدى الحياة. ولكن، وفي عام ١٧٧٦، عندما أغلقت أميركا أبوابها، وجدت انجلترا نفسها حائرة أمـام عدد ضخم ومتزايد من المحكومين وهي لا تملك مكاناً تضعهم فيه، كانت السجون تغص بالمساجين، ومن لم يكن لهم مكان في السجن كانوا يُكدسون على أطواف عفنة عائمة في مصبـات الأنهار. وكان على انجلترا أن تجد حلاً ووجدته. وبكثير من التذمر والامتعاض، إذ كان ذلك يكلفها بضعة آلاف من الجنيهات، أمرت القبطان آرثر فيليب أن يبحر نحو «أرض الجنوب الكبرى». كان ذلك عام ١٧٨٧. وكان أسطوله المؤلف من إحدى عشرة سفينة يحمل أكثر من ألف محكوم، هذا عدا من البحارة والضباط وفصيلة من مدفعيي البحرية. ولم تكن هذه الحملة رحلة مغامرة بحثاً عن الحرية. وفي آخر كانون الثاني من عام ١٧٨٨، أي ثمانية أشهر بعد مغادرته لانجلترا، ألقى الأسطول مراسيه في خليـج بوتاني، وهناك كان جلالة الملك «المجنون» جورج الثالث قد وجد

مزبلة لإلقاء مجرميه وهي مستعمرة الغال الجنوبية الجديدة «نيو ساوث ويلز».

في عام ١٨٠١ وعندما بلغ رودريك أرمسترونغ عامه الحادي والعشرين، حُكم عليه بالنفي مدى الحياة. وفيما بعد أكّد أحفاده على أنه كان ينحدر من عائلة نبيلة من سومرست كانت قد فقدت ثروتها في أعقاب الثورة الأميركية، وأن جريمة رودريك لا وجود لها، ولكنّ أحداً لم يحاول أن يبحث بجدية عن جذور الجد الشهير واكتفوا باستغلال صدى أمجاده مغالين فيها من وقت لآخر.

ومهما كان أصل رودريك ووضعه أمام العدالة الانكليزية فقد كان جباراً لا يقهر فعلاً. فطوال أشهر الرحلة الفظيعة التي قادته إلى «الغال الجديدة» برهن عن أنه سجين عنيد وصعب المراس، وقد أثار إعجاب ضباط السفينة برفضه للموت. وعندما وصل إلى سيدني في عام ١٨٠٣، ازداد سلوكه سوءاً ولهذا فقد أُرسل على ظهر سفينة إلى جزيرة نورفولك حيث كان هناك سجن للمتمردين. ولم يستطع أي شيء تحسين سلوكه. فلقد حُرم من الطعام وحُبس في زنزانة صغيرة حيث لم يكن يستطيع لا

الجلوس ولا التمدد ولا الوقوف، وجُلد حتى أصبح ظهره قطعة لحم دامية ثم قُيِّد بالسلاسل إلى صخرة في البحر حتى كاد يغرق، فكان يضحك في وجه جلاديه وقد أصبح كومة من العظام في غلاف نتن ولم يبق في فمه سن واحد ولا موضع إصبع في جلده بدون ندبة، وفي داخله كانت تتوهج نار من الحقد والتحدي لا يخمدها شيء. وكل فجر كان يشد عزيمته كي لا يموت، وكل مساء كان يضحك ضحكة انتصار إذ ما زال حياً.

وفي عام ١٨١٠ أُرسل إلى أرض «فان ديمن» حيث وُضع في الأغلال مع مجموعة أخرى من المحكومين كانوا يقومون بشق طريق عبر منطقة صخرية وراء «هوبارت». وعند أول سانحة فتح بفأسه صدر الجندي القائم بالمراقبة وانضم إلى عشرة مجرمين آخرين فهجموا على خمسة من الجنود ينزعون جلودهم إرباً إرباً حتى ماتوا، والمجرمون منتشون بصراخ جلاديهم وهم يعانون سكرات الموت، لأنهم وحراسهم كانوا حيوانات، مخلوقات بدائية انحدرت مشاعرها إلى مستوى البهائم. وكان رودريك ارمسترونغ عاجزاً عن الهرب دون إيذاء جلاديه أو عن قتلهم بسرعة دون تعذيب، كعجزه عن تحمل حياته في المنفى كمجرم.

وتزود الرجال بالروم والخبز واللحم المجفف الذي أخذوه من حراسهم وشقوا طريقهم عبر أميـال من الغابـات تحت المطـر الجليدي إلى أن بلغوا مرفأ صيد الحيتان المدعو « هوبارت » حيث سرقوا زورقاً ليعبروا عليه بحر « تاسمانيا » بدون طعام ولا شراب ولا أشرعة. وعندما رسا الزورق على الشاطىء الغربي الموحش من جزيرة نيوزيلاندة الجنوبية كان رودريك لا يزال حياً هو واثنان آخران. ولم يتكلم أبداً عن تلك الرحلة اللامعقولة، إنما قيل أن الثلاثة لم يبقوا على قيد الحياة إلاّ لأنهم قتلوا رفاقهم وكانوا أضعف منهم، وأكلوهم.

حدث ذلك بعد نفي رودريك من انجلترا بتسع سنوات بالضبط. كان لا يزال شاباً ولكنه كان يبدو عجوزاً في الستين. وفي الوقت الذي وصل فيه أول المستعمرين الرسميين إلى نيوزيلاندة عام ١٨٤٠، كان قد استملك أراضي شاسعة في منطقة كانتربري الغنية في الجزيرة الجنوبية وتزوج من صبية ماوورية (من السكان الأصليين) وأنجب ثلاثة عشر خلاسيا في غاية الجمال. وفي عام ١٨٦٠ كانت عائلة ارمسترونغ إحدى العائلات الارستقراطية في الجزيرة، وكانت ترسل أولادهـا الذكـور إلى أفضل المدارس في

انجلترا، وقد برهنت العائلة ببراعتها وضراوتها على أنها تنحدر فعلاً من رجل عجيب هائل. أما فيونا فهي ابنة جيمس، أحد أحفاد رودريك ولقد ولدت عام ١٨٨٠ وكانت الفتاة الوحيدة بين خمسة عشر صبياً.

وإن كانت «في» قد اشتاقت لطقوس طفولتها البروتستنتية الصارمة فهي لم تصرِّح بذلك أبداً وتحملت معتقـدات بادي الدينية وكانت تذهب معه لسماع القداس وتفعل كل ما ينبغي كي يعبد الأولاد رباً كاثوليكياً محضاً. ولكن بما أنها لم تغير أبداً مذهبها فقد ظلت بعض الطقوس مجهولة في المنزل كصلوات الشكر قبل الطعام والصلاة قبل النوم وغيرها من مظاهر التدين اليومي.

○

عدا عن تلك الرحلة التي كانت قد قامت بها منذ ثمانية عشر شهراً إلى مخزن واهيني، لم تكن ميغي قد ابتعدت عن البيت إلى ما وراء المستودع وحانوت الحدادة في الوهد. وفي صباح اليوم الذي كانت ستذهب به إلى المدرسة للمرة الأولى كانت منفعلة جداً حتى أنها تقيأت فطورها وتوجب إرجاعها إلى غرفتها لتنظيفها

وإبدال ملابسها ، فنزعت عنها أمها ثوبها الجديد الجميل ذا اللون الأزرق الغامق وقبة البحارة البيضاء لتلبسها صدارة شنيعة بنية اللون مقفلة بأزرار حتى عنقها الصغير مما جعلها تحس بالاختناق .

ــ بحق السماء يا ميغي ، عندما تشعرين بالتوعك مرة ثانية ، اخبريني حالاً ولا تجلسي كالبلهاء حتى يفوت الأوان وتجبريني على تنظيف هذه الأقذار إضافة إلى كل ما عندي . والآن عليك بالإسراع . فلو تأخرت عن الجرس فإن الأخت أغاثا سوف تكوي ظهرك بالعصا . تصرفي جيداً واصغي إلى ما يقوله أخوتك .

كان بوب وجاك وهوغي وستو يقفزون على أقدامهم أمام مدخل البيت حين دفعت « في » بميغي أخيراً خارج الباب وكانت الصغيرة تحمل غذاؤها المؤلف من شطائر بالمربى في حقيبة مدرسية قديمة .

ــ « هيا يا ميغي ، سوف نتأخر » . صرخ بوب وهو يبتعد نحو الطريق ، وتبعت ميغي راكضة خيالات أخوتها الذين كانوا قد ابتعدوا . كانت الساعة قد تجاوزت السابعة صباحاً بقليل وكانت الشمس اللطيفة قد أشرقت منذ ساعات وجفت قطرات

الندى عن الأعشاب إلاّ ما كان منها في الظل. كان الطريق إلى واهيني عبارة عن درب ترابي تركت فيه عجلات العربات آثارها: شريطان أحمران داكنان يفصلهما شريط من العشب الأخضر اللامع. وكان بياض زنابق اللوف يختلط بصفرة أزهار السلبوت في أوج تفتحها على حافتي الطريق حيث كانت الأسيجة الخشبية الأنيقة تمنع المشاة من الاقتراب.

كان بوب يذهب إلى المدرسة «ماشياً» على السياج الأيمن وحقيبته الجلدية على رأسه بدلاً من ظهره، أما السياج الأيسر فكان من «حق» جاك، وهذا ما كان يسمح للثلاثة الباقين باقتسام الطريق. وفي أعلى الهضبة الطويلة الشديدة الانحدار التي كان عليهم تسلقها من الوهد حيث يوجد حانوت الحدادة وحتى ملتقى طريقي روبرتسون وواهيني، توقف الأولاد برهة ليستريحوا ويستردوا أنفاسهم، وبرزت الرؤوس الخمسة المشتعلة على صفحة السماء المنثورة بالغيوم الناعمة. كانت هذه أحلى اللحظات: هبوط الهضبة، فكان بعضهم يمسك بأيدي البعض الآخر ويقفزون على حافة الطريق المعشبة التي كانت سرعان ما تتحول إلى مزيج من الألوان والأزهار، وهناك كانوا يتمنون دائماً لو أن لديهم الوقت

الكافي ليزحفوا من تحت سياج السيد شامبان ويتدحرجوا إلى الأسفل كالحجارة.

كانت واهيني تبعد ثمانية كيلو مترات عن منزل كليري، وفي الوقت الذي رأت فيه ميغي أعمدة الهاتف من بعيد بدأ ساقاها بالارتجاف وانزلق جورباها كاشفين عن كاحليها. وامتدت الآذان تصغي لصوت الجرس ونظر بوب إلى ميغي بتذمر وهي تمشي وتعرج وتحاول رفع سروالها الذي بدأ يسقط، وهي تتنهد من وقت لآخر بقلق عميق ووجهها تحت كتلة الشعر النحاسي يبدو متورداً وشاحباً شحوباً غريباً في آن واحد. وناول بوب حقيبته لجاك ثم اقترب من ميغي مؤرجحاً ذراعيه:

ـــ تعالي يا ميغي، سوف أحملك على ظهري ما تبقى من الطريق، قال هذا بشيء من القسوة وهو يلقي نظرة شريرة على أخوته متحفزاً فيما لو حاول أحدهم أن ينعته بالحنان. وتسلقت ميغي ظهره ورفعت نفسها حتى استطاعت أن تعقد ساقيها حول خصر أخيها وأسندت رأسها بسعادة على كتفه النحيفة. إنها تستطيع الآن أن تكتشف واهيني وهي مرتاحة.

لم يكن هناك شيء يستحق المشاهدة، فواهيني لم تكن أكثر من قرية كبيرة متوضعة من جهة وأخرى من طريق معبدة، وكان الفندق يشكل أهم المباني وهو من طابقين، ويظلل الرصيف أمامه ستارة تقي من الشمس وتستند إلى أعمدة قائمة على طول القناة التي تمر أمامه. وكان المخزن العام يأتي بعده من حيث الأهمية وله هو أيضاً ستارة واقية، وتحت الواجهات المليئة بالبضائع كان هناك مقعدان خشبيان ليرتاح عليهما المارة. وأمام المحفل الماسوني تنتصب صارية يخفق عليها علم انجليزي أمّحت ألوانه. ولم يكن هناك مرآب في المدينة فالسيارات كانت نادرة بينما كان هناك حانوت حدادة قرب المحفل الماسوني وخلفه اسطبل ومضخة وقود تقف منتصبة قرب مورد الخيل. وكان المبنى الوحيد الذي يلفت الأنظار فعلاً في المدينة مخزناً مطلياً باللون الأزرق الفاقع ومظهره غير انجليزي بتاتاً إذ أن الأبنية المجاورة كانت كلها مدهونة بالبني الغامق. وكانت المدرسة والكنيسة البروتستنتية تقفان جنباً إلى جنب في الجهة المعاكسة تماماً لكنيسة القلب الأقدس الكاثوليكية والمدرسة الرعوية.

وبينما كان أولاد كليري يخثون الخطى أمام المخزن العام بدأ

الجرس الكاثوليكي يقرع وتبعته طنطنات الجرس الكبير في المدرسة العامة. وأخذ بوب يجري ودخلوا إلى باحة المدرسة بينما كان خمسون طالباً يصطفون أمام راهبة قصيرة القامة تحمل قضيباً ليّناً أطول منها. ودون أن يقول له أحد شيئاً جمع بوب أخوته بجانبه ووقف يحدق في الخيزرانة.

كان دير القلب الأقدس مؤلفاً من طابقين ولم يكن بالإمكان رؤيته مباشرة لوجوده بعيداً عن الطريق وراء السور. وكانت ثلاث من راهبات الرحمة يسكنّ في الطابق العلوي مع راهبة رابعة تقوم بالأعمال المنزلية ولا تظهر أبداً إلى الخارج. وأما الطابق الأرضي فقد كان يحتوي على القاعات المخصصة للتدريس وكانت هناك شرفة عريضة مظللة تلتف حول البناء المستطيل، وفي الأيام الماطرة كان يسمح للأطفال بالجلوس تحتها بنظام وقت الفرصة لتناول غذائهم بينما كان محظوراً على أي ولد أن يضع قدمه هناك في الأيام المشمسة. وكان هناك عدد من أشجار التين الضخمة تلقي بظلها في أرجاء الباحة الفسيحة، ووراء المدرسة كانت الأرض تنحدر بلطف حتى فسحة معشوشبة أُطلق عليها اسم طنان «ملعب الكريكت»، بسبب النشاط الرئيسي الذي كان يجري عليها.

وقف بوب وأخوته جامدين متجاهلين سخرية الأولاد المكتومة بينما كانوا يدخلون إلى الصفوف على صوت ترتيلة «إيمان الآباء» التي كانت الأخت كاترين تعزفها على البيانو المبحوح. وعندما اختفى آخر التلاميذ داخل الصف أرخت الأخت أغاثا عضلات جسمها المتصلب وتقدمت باتجاه أطفال كليري وطيات تنورتها الثقيلة تكنس الأرض وراءها. ووقفت ميغي فاغرة الفم فهي لم تكن قد رأت راهبة من قبل. كان المنظر عجيباً فقد رأت الطفلة أمامها شخصاً مؤلفاً من ثلاث بقع، بقعة الوجه وبقعتي اليدين، وما تبقى كان بياض الصدارة الناصعة المنشاة يلمع على سواد الثوب الفاحم بينما تدلت حبات مسبحة خشبية ضخمة من حلقة معدنية كانت تمسك بطرفي حزام جلدي مشدود حول قامة الأخت أغاثا البدينة. كانت بشرة الأخت أغاثا دائمة الإحمرار بسبب النظافة المبالغ بها وبسبب وشاح الرأس الذي كانت أطرافه الحادة تضغط بشدة على الوجه فلا تترك منه إلا القليل مما يذكّر بوجه انسان. أما الصدارة فكانت تخنق الذقن المغطى بشعيرات مجعدة فتجعله مزدوجاً. ولم يكن يبدو من شفتيها إلا خط واحد وذلك لشدة تركيزها على مهمتها الصعبة التي تتلخص في كونها عروس المسيح في هذه البلاد الضائعة ذات الفصول المقلوبة، بينما

كانت قد نذرت نفسها لخدمة الرب في هدوء دير كيلدني الوداع منذ خمسين سنة مضت. وكانت تلبس نظارتين تحملان إطاراً معدنياً يضغط باستمرار على عظمة أنفها تاركاً عليها بقعتين حمراوين ووراء زجاج النظارات كانت العينان الزرقاوان الشاحبتان تتفحصان الأشخاص والأشياء بحدة وارتياب.

ـــ حسناً يا روبرت كليري، لم هذا التأخير؟ نعقت الأخت أغاثا بصوتها الجاف الذي كان ايرلندياً ناعماً فيما مضى.

ـــ آسف أيتها الأخت، أجاب بوب وهو يتصلب وعيناه الزرقاوان المخضوضرتان مثبتتان على طرف القضيب الذي كان يرتعش كلما هزته الراهبة في قبضتها.

ـــ لماذا أنتم متأخرون؟

ـــ إنني آسف أيتها الأخت.

ـــ هذا أول يوم في المدرسة هذه السنة يا روبرت كليري، وكنت أظن أنك ستبذل جهداً خاصاً هذا الصباح على الأقل كي لا تصل متأخراً.

ورجفت ميغي واستجمعت كل شجاعتها وتمتمت بصوت مختنق:

ــ أرجوك أيتها الأخت، إنها غلطتي.

وتحولت العينان الشاحبتان عن بوب وبدتا وكأنهما تخترقان روح ميغي بالذات وقد وقفت هذه تنظر ببراءة إلى الراهبة وهي لا تعلم أنها خالفت أولى قواعد السلوك في المبارزة الوحشية التي تدور بين الطلاب والمدرسين منذ تأسيس المدارس. وهذه القواعد تقول: لا تتطوع أبداً لإعطاء المعلومات. ولكز بوب بسرعة قدم ميغي ووجّه إليها نظرة مليئة بالدهشة.

ــ ولماذا هي غلطتك؟ سألت الراهبة في صوت لم تسمع ميغي أشد بروداً منه في حياتها.

ــ لقد تقيأت هذا الصباح على المائدة ولوثت حتى «سروالي» فكان على أمي أن تبدل لي ملابسي وهذا ما أخّرنا.

شرحت لها ميغي الحادث بدون لف ولا دوران.

وبقي وجه الأخت أغاثا جامداً ولكنها شدت على فمها كما لو كان تحت تأثير نابض وتحرك طرف العصا بضعة سنتمترات، والتفتت نحو بوب تسأله كما لو كان موضوع سؤالها نوع من الحشرات المقززة التي لم تصنف بعد:

ـــ ومن هي « هذه » ؟

ـــ إنها أختي « ميغان » أيتها الأخت .

ـــ إذن في المستقبل عليك أن تُفهمها أن هناك مواضيع لا يجب علينا التلميح إليها إذا كنا سيدات و « سادة » حقيقيين ، وإنه ليس باستطاعتها ولا بشكل من الأشكال أن تسمي باسمها أية قطعة من ملابسها الداخلية ، كما يعلم ذلك حتماً كل أولاد العائلات . والآن ارفعوا أيديكم كلكم .

ـــ ولكن أيتها الأخت ، لقد كانت غلطتي « أنا » صرخت ميغي وهي تمد يديها وراحتاها مفتوحتان . كانت قد رأت أخوتها يقومون بهذه الحركة في البيت آلاف المرات .

ـــ « اخرسي » ، صفرت الأخت أغاثا وهي تستدير نحوها ، لا يهمني أبداً من كان المسؤول منكم . إنكم جميعاً متأخرون ولهذا يجب معاقبتكم . ست ضربات لكل واحد . ولفظت هذه العبارة بتلذذ .

ونظرت ميغي برعب إلى يدي بوب الجامدتين ورأت القضيب الطويل يصفر وهو يهوي بأسرع من لمح البصر ويلسع بحدة الراحة المفتوحة حيث كان الجلد رقيقاً ناعماً ، وفي الحال

ظهر هناك خط أحمر وسقطت الضربة الثانية على ملتقى الأصابع براحة اليد، حيث الحساسية أكبر، وهوت آخر ضربة على أطراف الأصابع، حيث حمّل الدماغ الجلد هناك حساسية لا أشد منها إلا حساسية الشفاه. كان تصويب الأخت أغاثا رائعاً.

وتبعت هذا بثلاث ضربات على يد بوب الأخرى قبل أن تنقل انتباهها إلى جاك. كان وجه بوب شاحباً ولكنه لم يصرخ ولم يأت بحركة، ولا أخوته فعلوا عندما جاء دورهم، حتى ستو الهادىء الوديع.

وعندما جاء دور ميغي انغلقت عيناها لا شعورياً وهما تتبعان ارتفاع القضيب فوق يديها، فلم تر سقوطه. ولكن الألم كان مثل انفجار هائل، مثل الحريق، وكما لو كان جسدها قد تمزق حتى العظم. وبينما كان هذا الألم لا يزال ينتشر في ذراعها أتت الضربة الثانية، وما كاد الألم يبلغ كتفيها حتى كانت الضربة الأخيرة على أطراف أصابعها تصرخ على الطريق نفسه متغلغلة إلى قلبها. وعضت على شفتها السفلى بأسنانها. فلم يكن خجلها وعزة نفسها يسمحان لها بالصراخ بينما كان غضبها وسخطها على هذا الظلم

يمنعانها من أن تفتح عينيها وتنظر إلى الأخت أغاثا . وهكذا تلقت ميغي درسها ولكنه لم يكن ما أرادت الأخت أغاثا أن تلقنها .

كان وقت الغذاء قد حان قبل أن يختفي الألم تماماً من يدي ميغي . وكانت قد أمضت الصباح في ضباب من الخشية والدهشة ولم تفهم شيئاً مما قيل أو جرى أمامها . كان أحدهم قد دفعها إلى الطاولة الأخيرة في صف أصغر التلامذة وكان للطاولة مقعدان ، غير أنها لم تلاحظ التلميذ الذي كان يجلس بجانبها . وأمضت ساعة الغذاء بحزن متكورة خلف بوب وجاك في إحدى زوايا الباحة ولم تأكل حتى أمرها بوب بصرامة أن تأكل شطيرة المربى التي صنعتها لها « في » . وعندما قرع الجرس لحصة بعد الظهر ووجدت ميغي لنفسها مكاناً في الصف ، بدأت عيناها تنفتحان وأخذت تنظر إلى ما حولها . لم يكن خجلها من العقاب قد تلاشى ولكنها كانت تقف عالية الرأس وتتظاهر بأنها لا تلاحظ لكزات وهمسات رفيقاتها الصغيرات بقربها . كانت الأخت أغاثا منتصبة أمام التلامذة وبيدها القضيب ، والأخت ديكلان تروح وتجيء نحو المؤخرة بينما هجمت الأخت كاترين على البيانو الموجود في داخل صف الصغار وبدأت تعزف « إلى الأمام يا جند المسيح » . ولقد كانت

هذه في الواقع ترتيلة بروتستنتية ولكن الحرب كانت قد جردتها من كل تعصب، وكانت الأخت كاترين تفكر وهي تنظر إلى الأطفال بفخر أنهم يمشون فعلاً كالعساكر.

من بين الراهبات الثلاث كانت الأخت ديكلان نسخة عن الأخت أغاثا وإنما أصغر منها بخمسة عشر عاماً، بينما كانت الأخت كاترين لا تزال تملك، وإنما بشكل مبهم، شيئاً من الإنسانية، وكانت في الثلاثين من عمرها، ايرلندية طبعاً ولم تكن شعلة حماستها قد انطفأت تماماً فهي مازالت تجد ابتهاجاً في التدريس وترى وجه المسيح الأزلي في الوجوه الصغيرة التي تنظر إليها بتعبد.

ولكنها كانت تعلّم كبار التلامذة، هؤلاء الذين روضتهم الأخت أغاثا بشكل كاف وأصبحت متأكدة من أنهم سيسلكون حسناً حتى ولو كانت معلمتهم شابة متسامحة. أما الأخت أغاثا فكانت تهتم بالصغار وذلك لكي تستطيع تكييف عقولهم وقلوبهم الطفلة ثم تبعث بهم إلى الأخت ديكلان في الصفوف المتوسطة.

وتجرأت ميغي وهي مختفية بأمان في آخر الصف من الطاولات، ونظرت جانبياً إلى الفتاة الصغيرة الجالسة بقربها،

ووقعت عيناها المذعورتان على ابتسامة كشفت عن أسنان مكسورة وعينين سوداوين واسعتين تبرقان في وجه أسمر يلمع قليلاً. وسحرت ميغي بلونها وهي المعتادة على الشقرة والنمش إذ أن فرانك نفسه ذا الشعر والعينين السوداوين كان أبيض البشرة، ووصلت ميغي إلى نتيجة وهي أن شريكتها في المقعد كانت أجمل مخلوقة رأتها عيناها.

ـــ ما اسمك؟ سألتها الجميلة السمراء من طرف شفتيها وهي تعلك قلمها وترمي نثرات منه في ثقب زجاجة الحبر الفارغة.

ـــ ميغي كليري. همست ميغي.

ـــ أنت التي هناك! تصاعد صوت جاف قاس من صدر الصالة.

وقفزت ميغي وهي تنظر حولها بدهشة، وعلت ضجة مشوشة عندما وضع الأولاد العشرون أقلامهم على طاولاتهم، وصرير مكتوم عندما أزاحوا أوراقهم الثمينة ليضعوا مرافقهم النحيلة خلسة على الطاولات. وفطنت ميغي وهي تشعر بقلبها يغوص إلى قدميها، إن الجميع كانوا يحدقون بها، وكانت الأخت أغاثا قادمة صوبها عبر الممر. وغمر ميغي رعب حاد وتمنت أن تهرب، أن تختفي، ولكن أين؟ فوراءها الحائط الذي يفصلها عن الصف

المتوسط ، وعلى جانبيها الطاولات ، وأمامها الأخت أغاثا . وكانت عيناها تأكلان وجهها الصغير المنكمش وهي تنظر إلى الراهبة بخوف خانق ويداها تنقبضان وترتخيان على وجه الطاولة .

ـــ أنت التي تكلمت يا ميغي كليري ؟

ـــ نعم أيتها الأخت .

ـــ وماذا قلت ؟

ـــ قلت اسمي ، أيتها الأخت .

ـــ اسمك ! قالت الراهبة بسخرية وهي تنظر حولها إلى بقية الأولاد كما لو كانوا يشاركونها احتقارها .

ـــ « حسناً يا أولاد ، لقد حصل لنا شرف كبير ، ولد آخر من أولاد كليري في مدرستنا ، ولا يمكننا الانتظار حتى تذيع اسمها » . واستدارت نحو ميغي وتابعت : « قفي عندما أوجه إليك الكلام ، أيتها المتوحشة الجاهلة ، ومدي يدك ، لو سمحت » .

واندفعت ميغي خارج كرسيها وسقطت خصلات شعرها على وجهها ثم تطايرت إلى الوراء ، وضمت يديها إلى بعضهما تعصرهما بيأس ، ولم تتحرك الأخت أغاثا بل وقفت تنتظر وتنتظر وتنتظر . ومن ثم وجدت ميغي القوة على أن تمد راحتيها ولكنها ما أن

رأت القضيب يهوي حتى جذبتهما بعيداً وهي تلهث برعب، وعندئذ قبضت الراهبة على كتلة الشعر الأحمر في أعلى رأس الطفلة وشدتها نحوها فأصبح وجه ميغي على بعد سنتمترات قليلة من النظارات المخيفة.

ــ مدي يديك يا ميغان كليري. قالت الراهبة بنعومة وبرود وإصرار.

وعندها فتحت ميغي فمها وتقيأت على ثياب الأخت أغاثا.

وأمسك كل الأطفال في القاعة أنفاسهم بذعر بينما وقفت الأخت أغاثا تنظر إلى السائل المقرف يسيل على طيات فستانها الأسود ويسقط إلى الأرض وقد احتقن وجهها من الغضب والدهشة ومن ثم... هوى القضيب وانهالت الضربات على كل جزء من جسم الصغيرة وهي ترفع ذراعيها لتحمي وجهها وركضت لتحتمي في الزاوية وهي لا تزال تقاوم التقيؤ، وحين تعبت يدا الأخت أغاثا ولم يعد بإمكانها رفع القضيب أشارت بأصبعها نحو الباب وهي تصيح:

ــ اخرجي، إلى البيت أيتها الكافرة المقرفة.

واستدارت على عقبيها وتوجهت نحو صف الأخت ديكلان . والتقت نظرات ميغي المرعوبة بعيني ستو ، وهزّ هو برأسه كما لو كان يقول لها بأن تفعل ما أمرت به وعيناه الزرقاوان المخضرتان مليئتان بالشفقة والتفهم . وتعثرت قدماها وهي تجتاز عتبة الباب وتمسح فمها بمنديلها ، ثم خرجت إلى الباحة . كان لا يزال هناك ساعتان على انتهاء المدرسة وبدأت ميغي تهبط الشارع شاردة وهي تعلم أن أخوتها لن يتمكنوا من اللحاق بها ، وخوفها يمنعها من البحث عن مكان تنتظرهم فيه . كان عليها أن تذهب إلى البيت بمفردها وتعترف لأمها بنفسها .

وكادت « في » تقع فوق ابنتها وهي تجتاز عتبة الباب الخلفي منحنية تحت ثقل السلة المليئة بالغسيل . كانت ميغي جالسة في أعلى الدرجات المؤدية إلى الشرفة الخلفية وقد أحنت رأسها وخصلات شعرها مشعثة متلاصقة ، وثوبها ملطخ من الأمام . وتنهدت « في » وهي تضع السلة الثقيلة أرضاً ، وأزاحت خصلة من شعرها كانت قد سقطت على وجهها :

ــ حسناً ، ما الذي حدث؟ سألت بصوت متعب .

ــ لقد تقيأت على الأخت أغاثا .

ــ يا إلهي ! قالت « في » ويداها على ردفيها .
ــ لقد ضربتني بالعصا ، أيضاً . تمتمت ميغي وعيناها مغرورقتان بالدموع .
ــ هذا شيء جميل حقاً . قالت « في » وهي ترفع سلتها وتميلها كي تبقى متوازنة .
ــ الحقيقة أنني لا أعرف ما سأفعله معك ، علينا أن ننتظر لنرى ما سيقوله والدك .

وابتعدت نحو الدار الخلفية وحبال الغسيل حيث كانت الملابس الجافة تتأرجح في الهواء .

وتبعت ميغي أمها بعينيها وهي تفرك خديها بإرهاق ثم وقفت وتوجهت نحو حانوت الحدادة .

كان فرانك قد انتهى لتوه من بيطرة فرس السيد روبرتسون وكان يعيدها إلى مربطها حين ظهرت ميغي على الباب ، فاستدار ورآها . وداهمته ذكريات تعاسته الهائلة في المدرسة . كانت صغيرة جداً ، طفلة وبريئة وحلوة ولكن بريق عينيها كان قد أمّحى تاركاً مكانه تعبيراً آخر جعل فرانك يتمنى أن يقتل الأخت أغاثا ، أن

يقتلها، أن يقتلها فعلاً، أن يأخذ الذقن المزدوجة بين قبضتي يديه ويشد، يشد.. ورمى بأدواته ونزع صدارته وجاء إليها مسرعاً.

ــ ماذا جرى يا عزيزتي؟ سألها وهو ينحني حتى أصبح وجهه بمحازاة وجهها، وارتفعت إلى أنفه رائحة القيء وهمّ بالتراجع ولكنه أمسك نفسه.

ــ آه يا.. فر.. فرانك. أخذت تتأوه ووجهها يتقلص ودموعها تسيل أخيراً. ولفّت ذراعيها حول عنقه وتعلقت به بانفعال شديد وهي تبكي بصمت وألم عميق كما يبكي كل أولاد كليري عندما يخرجون من طفولتهم. وكانت رؤية كل هذا الأسى هائلة وليس من كلمة ولا من قبلة لشفائه. وعندما هدأت رفعها بين ذراعيه ووضعها على كومة قش طيبة الرائحة قرب فرس السيد روبرتسون. وجلسا هناك جنباً إلى جنب تاركين الفرس تقضم سريرهما القشي وقد نسيا العالم من حولهما. وأراحت ميغي رأسها على صدر أخيها الناعم العاري بينما كانت خصلات شعرها النحاسية تتطاير كلما نفخت عليها الفرس التي كانت تصهل مبتهجة.

ــ «لماذا ضربتنا كلنا يا فرانك؟» سألت ميغي. «لقد أخبرتها أن الغلطة كانت غلطتي».

كان فرانك قد اعتاد رائحتها ولم تعد تزعجه، فمد يده وفرك خشم الفرس وهو شارد، ودفعها بعيداً عنه عندما حاولت أن تتمادى في اقترابها.

ــ نحن فقراء يا ميغي، وهذا هو السبب. إن الراهبات يكرهن دوماً التلاميذ الفقراء، وبعد أن تقضي بضعة أيام في مدرسة الأخت أغاثا القديمة فسوف ترين أنها لا تهاجم فقط أولاد كليري بل أولاد مارشال وماك دونالد أيضاً. نحن كلنا فقراء، ولو كنا أغنياء وأتينا إلى المدرسة في عربة كبيرة مثل أولاد أوبريان لرأيتهن جميعاً يتهافتن نحونا. ونحن لا نستطيع أن نهدي أرغنا إلى الكنيسة ولا ثياباً مطرزة بالخيوط الذهبية للكهنة ولا حصاناً جديداً لعربة الراهبات، ولذا فهن لا يحسبن لنا حساباً وباستطاعتهن أن يفعلن بنا ما شئن. أذكر أن الأخت أغاثا غضبت مني ذات يوم وأخذت تصرخ في وجهي «ابك بحق السماء! دعني اسمع صوتك يا فرانسيس كليري، لو استطيع سماعك وأنت تبكي لما ضربتك غالباً وبهذه القسوة». وهذا هو سبب آخر لكرهها لنا، ونحن بهذا أفضل من أولاد مارشال وماك دونالد، إنها لا تستطيع أن تُبكينا. من المفروض أن نلعق حذاءها ولكني هددت الصبيان بما سأفعله بهم لو تجرأ أحدهم

وأنّ حين تضربه بالقضيب ، وهذا أقوله لك أنت أيضاً يا ميغي .
لا أريدك أن تئني مهما كانت قسوة ضرباتها . هل بكيت اليوم ؟
ــ كلا يا فرانك .

وتثاءبت وقد بدأ جفناها ينطبقان وهي تبحث عن فمها بإبهامها . ووضعها فرانك على القش وعاد لعمله وهو يبتسم ويدندن بأغنية .

كانت ميغي لا تزال غارقة في النوم عندما دخل بادي إلى الحانوت ، وكانت ذراعاه ملطختين بالروث إذ كان قد نظف اسطبل السيد جارمان ، وقد أسدل قبعته ذات الحرف العريض فوق جبينه . ونظر إلى فرانك وهو يكوّن محور عربة فوق السندان ، والشرر يتطاير حول رأسه ، ثم وقفت عيناه على المكان الذي كانت تغفو به ابنته متكورة على القش وقد انحنت فرس السيد روبرتسون فوق الوجه النائم .

ــ «لقد كنت واثقاً أنها هنا» ، قال بادي هذا وهو يهوي بعصاه على حصانه العجوز ويقوده إلى أبعد مربط في المستودع . وهز فرانك رأسه باقتضاب ملقياً على أبيه نظرته المظلمة المليئة

بالشك والتردد والتي كانت تثير سخط بادي، ثم عاد إلى عمله في محور العربة المحمّى، وجذعه العاري يلتمع بالعرق.

وبعد أن أنزل بادي السرج عن الحصان الأصهب. استدار إلى أحد المرابط وملأ جرن الماء ثم خلط بعضاً من النخالة والشعير وبلله بالماء ليطعم الحصان. وصهل الحيوان بحنان عندما أفرغ بادي الدلو في المعلف، وتبعه بعينيه عندما توجه إلى الجرن الكبير خارج الحانوت ونزع قميصه. وغسل بادي ذراعيه وجذعه ووجهه تاركاً الماء يبلل شعره وسرواله. وبعد أن جفف نفسه بكيس قديم نظر إلى ابنه نظرة استفهام:

ــ أخبرتني أمك أن ميغي قد عادت إلى البيت معاقبة. هل تدري ما الذي حدث بالضبط؟

وترك فرانك المحور بعد أن برد وقال:

ــ لقد تقيأت الطفلة المسكينة على ثوب الأخت أغاثا.

وابتلع بادي بسرعة ابتسامة بدأت ترتسم على وجهه ونظر إلى جدار المستودع البعيد حتى يتمالك نفسه ثم استدار نحو ميغي قائلاً:

ــ لقد كانت منفعلة جداً لذهابها إلى المدرسة. ايه؟

ـــ لست أدري. لقد تقيأت قبل مغادرتها المنزل هذا الصباح، وهذا ما جعلهم يصلون متأخرين إلى المدرسة، ولقد نال كل منهم ست ضربات بالقضيب ولكن ميغي مضطربة جداً لأنها تعتقد أنه كان يجب معاقبتها وحدها. وبعد الغذاء هاجمتها الأخت أغاثا ثانية فقذفت بالخبز والمربى على ثوب الأخت أغاثا الأسود النظيف.

ـــ وماذا حدث عندئذ؟

ـــ ضربتها الأخت أغاثا بالعصا كما يجب وعاقبتها بإرجاعها إلى المنزل.

ـــ حسناً، لقد نالت عقاباً كافياً. إني احترم الراهبات وأعلم أننا يجب ألاّ نناقش تصرفاتهن ولكني كنت أود أن يكنّ أقل تحمساً للعصا. إني أعلم أنهن يتعبن كثيراً لإدخال شيء من المعرفة إلى رؤوسنا الايرلندية الغليظة ولكن هذا كان أول أيام ميغي الصغيرة في المدرسة.

كان فرانك ينظر بذهول إلى والده. فحتى هذه اللحظة لم يكن بادي قد تحدث إلى ولده البكر بهذه اللهجة، حديث رجل لرجل. وفهم فرانك وقد تناسى استياءه الدائم أن بادي رغم كل

ادّعائه كان يحب ميغي أكثر من كل أولاده الصبيان ، ولبرهة شعر أنه يستلطف والده تقريباً فابتسم بدون نية سيئة :
ــ إنها طفلة رائعة ، أليس كذلك ؟

واحنى بادي رأسه بشرود وهو مستغرق بتأملها .

ومطت الفرس شفتيها وخفق خشمها ، وتحركت ميغي واستدارت إلى جنبها ثم فتحت عينيها وعندما رأت والدها واقفاً قرب فرانك انتصبت جالسة وشحب وجهها من الخوف .
ــ حسناً يا ميغي ، لقد كان يوماً مليئاً ، أليس كذلك ؟

وتقدم بادي ورفعها عن كومة العلف وانتفض وقد تصاعدت إلى أنفه رائحة القيء . ثم هز بكتفيه وضمها إليه .
ــ لقد ضربتني بالعصا يا أبي .
ــ حسناً ، إذا صح ظني بالأخت أغاثا فلن تكون هذه المرة الأخيرة . وضحك وهو يضعها على كتفيه . من الأفضل أن نذهب ونرى إذا كان لدى والدتك بعض الماء الساخن لغسلك فإن رائحتك أسوأ من رائحة اسطبل جارمان .

ووقف فرانك على الباب ينظر إلى الرأسين الأحمرين وهما

يبتعدان على الدرب ثم استدار ورأى عيني الفرس اللطيفتين تحدقان به :

ــ هيا بنا أيتها العجوز ، سأقودك إلى البيت .

قال هذا وتناول اللجام .

كانت حادثة تقيؤ ميغي نعمة إلهية فقد تابعت الأخت أغاثا ضربها لميغي بشكل منتظم ولكنها كانت دائماً تبقى بعيدة عنها هرباً من النتائج ، وكان هذا يخفف من قوة ذراع الراهبة ويفسد فعالية سلاحها .

كانت الفتاة السمراء التي تجلس بقرب ميغي الابنة الصغرى لرجل ايطالي يملك مقهى واهيني المدهون بالأزرق الفاقع . وكان اسمها « تيريزا انونتسيو » ، ولم تكن فتاة لامعة جداً مما ساعدها على تجنب اهتمام الأخت أغاثا بها ولكنها لم تكن غبية جداً وإلا لأصبحت محط سخرية الأخت أغاثا . وعندما نبتت أسنانها من جديد بدت جميلة ملفتة الأنظار ، وكانت ميغي تحبها حتى العبادة . وأثناء الفسحات في باحة المدرسة كانت الفتاتان تتمشيان وذراع الواحدة تحيط بخصر الأخرى وكان هذا علامة على كونهما « من أحسن الأصدقاء » وعلى أنهما لن تقبلا تملقا من أية تلميذة أخرى وكانتا تتكلمان وتتكلمان وتتكلمان .

وذات مرة في وقت الغذاء أخذتها تيريزا إلى المقهى لتقدمها لوالديها وأخوتها وأخواتها الكبار، وسحرهم شعرها الذهبي كما سُحرت هي بسمرتهم، وبدت لهم كالملاك عندما نظرت إليهم بعينيها الواسعتين الرماديتين المنقطتين. وكانت ميغي قد ورثت عن أمها نوعاً من الأصالة يلاحظها الجميع حالاً كما لاحظتها عائلة انونتسيو. كان الجميع، مثل تيريزا، متلهفين للتودد إليها فقدموا إليها رقاقات البطاطا المقلية بشحم الغنم الذي كان يغلى في قدر كبيرة، كما قدموا لها قطعة من السمك المطحون اللذيذ المغطّى بالطحين والزبدة والمقلي في السائل المغلي مع البطاطا ولكن ليس في السلة نفسها التي قليت بها البطاطا. لم تكن ميغي قد أكلت ألذّ من هذا من قبل وتمنت أن تستطيع تناول غذائها في المقهى أكثر من مرة. ولكن هذا كان ضيافة تتطلب أذناً خاصاً من أمها ومن الراهبات. وكان كل حديثها في البيت يدور حول تيريزا و«ما قالت تيريزا» و«هل تعلمون ماذا فعلت تيريزا؟»... إلى أن زأر بادي يوماً قائلاً أنه لا يريد أن يسمع المزيد عن تيريزا.

ـــ لست أدري إذا كان من الصواب أن نتركها تُغرم بهذه الإيطالية.

وكان بذلك يشارك الانجليز ارتيابهم الغريزي بكل اسمر وبكل شخص من البحر المتوسط.

ـ إن الإيطاليين وسخون وهم لا يغتسلون كفاية. أضاف بادي بصوت ضعيف متردد أمام نظرة اللوم الجريحة التي قذفته بها ميغي.

ووافق فرانك والده على كلامه لأنه كان يتمزق غيرة. وهكذا لم تعد ميغي تتحدث عن أصدقائها عند وجودها في البيت، ولكن استنكار أهلها لم يؤثر على صداقتها التي كانت محصورة في أيام المدرسة بسبب بعد المسافات. وكان بوب وأخوته مسرورين لرؤية تعلقها الشديد بتيريزا فذلك كان يسمح لهم بالجري بجنون في باحة المدرسة دون أن يقلقوا بسبب أختهم.

وبدأت الإشارات الغريبة التي كانت الأخت أغاثا تكتبها على السبورة السوداء تأخذ معناها تدريجياً في عقل ميغي، وتعلمت أن إشارة «+» تعني أن عليها أن تجمع كل الأرقام سوية، بينما إشارة «−» تعني أن عليها أن تطرح الأرقام التي في الأسفل من الأرقام العلوية فيبقى لديها رقم أصغر مما كان عندها في البدء.

كانت طفلة لامعة وكان بإمكانها أن تصبح تلميذة ممتازة إذا

لم نقل متميزة لو استطاعت أن تتغلب على رعبها من الأخت أغاثا . ولكن وما أن كانت العينان النفاذتان تستديران نحوها ويلقي عليها الصوت العجوز الجاف سؤالاً مقتضباً حتى كانت تبدأ بالتلعثم والفأفأة وتصبح عاجزة عن التفكير . كانت تجد الحساب سهلاً ولكن ما أن يطلب منها أن تبرهن عن براعتها شفهياً حتى تعجز عن أن تتذكر كم يساوي اثنان واثنان . أما القراءة فكانت بالنسبة لها مدخلاً إلى عالم ساحر لم تكن تشبع منه أبداً ، ولكن عندما كانت الأخت أغاثا تطلب منها الوقوف لقراءة مقطع ما بصوت مرتفع ، كانت تتمكن بصعوبة من لفظ كلمة « هرة » ، أما كلمة « مياو » فلا داعي للكلام عنها . كان يبدو لها أنها ترتجف بلا انقطاع تحت لسع تعليقات الأخت أغاثا أو أن لونها يصبح قرمزياً براقاً لأن بقية التلامذة كانوا يسخرون منها . والواقع أن الأخت أغاثا كانت تأخذ دائماً لوحها الاردوازي وترفعه أمام التلاميذ لكي يسخروا منه ، أو تأخذ الأوراق التي كتبتها ميغي فتستعملها كمثل على الإهمال . وبعض الأطفال الميسوري الحال كانوا محظوظين إذ كانوا يملكون ممحاة ، أما ممحاة ميغي كليري الوحيدة فقد كانت أصبعها وكانت تلحسه وتحف به أخطاءها حتى تتحول الغلطة إلى لطخة ، ويخرج الورق فتائل فتائل . كان ذلك العمل ممنوعاً بتاتاً إذ

أنه كان يثقب الدفتر، ولكن يأس ميغي كان يدفعها لفعل أي شيء يجنبها انتقادات الأخت أغاثا القاسية. وحتى مجيء ميغي إلى المدرسة كان ستوارت هو الهدف الرئيسي لقضيب الأخت أغاثا وسمّها، ولكن ميغي كانت تشكل هدفاً أفضل لأن هدوء ستوارت الكئيب وتحفظه الملائكي كان كالجوز قاسياً على أسنان الراهبة. ومن جهة أخرى، فقد كانت ميغي ترتجف وتصبح حمراء كالشمندر رغم كل محاولاتها كي تتصرف كرجل ليكون بوسعها التقيد بقواعد سلوك آل كليري كما حددها فرانك. وكان ستوارت يشفق جداً على ميغي ويحاول أن يسهل لها الأمور باجتذاب غضب الأخت أغاثا على رأسه هو ولكنها كانت تدرك حالاً حقيقة لعبته ويزداد غضبها لرؤية ستوارت متحيزاً لأخته كما كان الصبيان يتماسكون مع بعضهم. ولو سألها أحدهم عن سبب تحاملها على هذه العائلة لما استطاعت الإجابة، إنما كان من الصعب على راهبة عجوز مرة الحياة أن تهضم عائلة أبيّة وحساسة مثل عائلة كليري.

أما أبشع خطايا ميغي فهي أنها كانت عسراء وعندما تناولت قلمها لتشرع بالكتابة لأول مرة انقضت عليها الأخت أغاثا كانقضاض القيصر على بلاد الغال وهي تزمجر:

ــ ميغان كليري ، ضعي قلمك على الطاولة .

وهنا بدأت بين الاثنتين معركة مَلَكية . كانت ميغي عسراء لا مجال لشفائها ، وعندما لوت الأخت أصابع ميغي اليمنى في الوضع الصحيح حول القلم ووضعته على الاردواز ، أخذ رأس ميغي بالدوار وهي تتسائل كيف يمكنها أن تجعل يدها العليلة تطيع ما تأمر به الأخت أغاثا ، ووجدت نفسها صماء وخرساء وعمياء عقلياً ، وانقطع الاتصال بين الزائدة التي لا نفع لها والتي هي يدها اليمنى ، وبين دماغها ، وكأن أصابع يدها قد أصبحت أصابع قدمها ، ورسمت يدها خطاً مستقيماً خارج إطار الاردواز لأنه لم يكن بإمكانها أن تجعله منحنياً نحو الداخل ورمت بقلمها كما لو أنها شلّت ولم تتمكن الأخت أغاثا رغم كل ما فعلته من جعل اليد اليمنى ترسم أي حرف . ثم نقلت ميغي قلمها خلسة إلى يدها اليسرى ولفت ذراعها بارتباك حول ثلاث جهات من اللوح حتى وصلت إلى أعلاه ثم بدأت ترسم سطراً تلو السطر من الأحرف الجميلة كما لو كانت مطبوعة . وربحت الأخت أغاثا المعركة ذات يوم . فعندما وقف الطلاب في صفوفهم صباحاً ، ربطت الراهبة يد ميغي اليسرى بحبل وشدته حول جسمها ولم تفكه إلا عندما قرع جرس الانصراف في الساعة الثالثة من بعد الظهر . وحتى في

فسحة الغذاء كانت ميغي مجبرة أن تأكل وتتنزه وتلعب ، ويدها مثبتة بقوة إلى جنبها الأيسر .

واستغرقت العملية ثلاثة أشهر تعلمت خلالها ميغي أن تكتب بطريقة صحيحة وفقاً لمقاييس الأخت أغاثا ولكنها لم ترسم حروفها أبداً بطريقة جميلة . وللتأكد من أنها لن تعود للكتابة بيدها اليسرى ، بقيت يدها مربوطة إلى جسمها شهرين آخرين جمعت بعدها الأخت أغاثا كل طلاب المدرسة لتقديم صلاة شكر للرب القادر على حكمته إذ جعل ميغي ترى خطأ تصرفاتها . فأولاد الله جميعاً يكتبون باليد اليمنى وأما الأعسر فهو بذرة الشيطان .

خلال سنتها الدراسية الأولى فقدت ميغي امتلاء جسمها الطفولي وأصبحت نحيفة جداً مع أن قامتها لم تكبر كثيراً ، وبدأت تقضم أظافيرها حتى اللحم ، وكان عليها أن تتحمل عقاب الأخت أغاثا التي كانت تجعلها تمشي بين طاولات التلاميذ في المدرسة فاتحة يديها حتى يستطيع كل الأولاد رؤية قباحة أظافيرها المقروضة ، وهذا بينما كان كل ولد ما بين الخامسة والخامسة عشرة يقضم أظافيره مثل ميغي تماماً .

واضطرت « في » إلى استعمال عصارة الألوة المُرّة ودهنت

أطراف أصابع ميغي بالسائل الكريه وكُلِّف كل فرد في العائلة بالانتباه حتى لا تجد فرصة لغسل يديها، وقد كان عذابها كبيراً عندما لاحظت الفتيات الأخريات في المدرسة البقع البنية على أصابعها وفهمن السبب. وعندما كانت تضع أصابعها في فمها كان طعمها يفوق الوصف، كريهاً، أسود كالمحلول القاتل للجراثيم الذي تغسل به الخرفان، وكانت تبصق بيأس على منديلها وتفرك أصابعها حتى تستطيع إزالة أكبر قدر من السائل الشنيع، فكان بادي يتناول سوطه وهو ارحم من قضيب الأخت أغاثا ويلاحقها في المطبخ. لم يكن يؤمن بضرورة ضرب الأولاد على الأصابع ولا على الوجه أو القفا وإنما على السيقان فقط، فالسيقان تؤلم كأي مكان آخر من الجسم ــ هكذا كان يقول ــ بدون ضرر. ومع ذلك، ورغم الألوة المرة، ورغم السخرية وقضيب الأخت أغاثا وسوط بادي، فقد تابعت ميغي قضم أظفارها.

كانت صداقتها لتيريزا نور حياتها والشيء الوحيد الذي كان يجعلها تتحمل المدرسة، وكانت تجلس خلال الحصص متشوقة للفرصة لكي تستطيع أن تجلس وتيريزا متعانقتين تحت الشجرة الكبيرة وهما تثرثران. وكان هناك حكايات عديدة حول عائلة تيريزا الأجنبية الغريبة وعن دماها العديدة وعن طقم الشاي

الحقيقي المنقوش الذي كانت تيريزا تمتلكه. وصُعقت ميغي عندما رأت طقم الشاي الذي كان مؤلفاً من مئة وثماني قطع. كانت الفناجين والصحون نسخة مصغرة عن الفناجين الحقيقية، وهناك إبريق للشاي ووعاء للسكر وآخر للحليب، وهو من الخزف، كما كان هناك وعاء للقشدة مع سكاكين وملاعق وشوك صغيرة على قياس الدمى التي تستعملها. وكانت تيريزا تملك ألعاباً عديدة، وعدا عن أنها أصغر بكثير من أختها التي قبلها فقد كانت ابنة عائلة إيطالية وهذا يعني أنها كانت محبوبة كثيراً وبدون حاجة لإخفاء هذا الحب، وكانت تستغل إلى أبعد حد مقدرة والدها المادية. والأطفال عادة ينظرون إلى بعضهم بخشية وحسد ولكن تيريزا لم تحسد أبداً ميغي على تربيتها البروتستنتية أو على صبرها، وبدلاً من ذلك فقد كانت تشفق عليها. هل يُعقل أنه لم يكن بإمكانها أن تركض وترمي بنفسها في حضن والدتها لتضمها وتقبلها؟ مسكينة ميغي!

كذلك لم تكن باستطاعة ميغي أن تقارن أمها النحيلة التي لا تبتسم، بأم تيريزا السمينة التي لا تكف عن الابتسام. وكانت تفكر قائلة لنفسها: «كم أتمنى أن تضمني أم تيريزا وتقبلني» ولكن

خيال طقم الشاي الصيني المنقوش كان يراودها أكثر من خيال القبلات والعناقات. كم كان جميلاً هذا الطقم! ودقيقاً وناعماً وهشاً! لو كانت تملك طقم شاي منقوشاً لاستطاعت عندئذ أن تقدم الشاي لانييس بعد الظهر في فنجان أبيض وأزرق وعلى صحن أبيض وأزرق.

وأثناء صلاة البركة يوم الجمعة في الكنيسة القديمة، بنقوشها ورسومها الماورية البدائية، وسقفها المطلي على الطريقة الماورية، كانت ميغي تركع وتصلي كي تحصل على طقم شاي. وعندما كان الأب هيز يرفع كأس القربان المقدس عالياً. كان القربان يحدق عبر النافذة الزجاجية الصغيرة، وسط الأشعة المرصعة بالجواهر ويبارك كل الرؤوس المحنية ما عدا رأس ميغي، إذ أنها لم تكن ترى القربان المقدس وهي مشغولة تحاول أن تتذكر عدد القطع في طقم تيريزا المنقوش. وعندما كان الماوريون يبدأون أغنية التسبيح برفقة الأرغن، كان رأس ميغي يدور في دوامة زرقاء كلون البحر وبعيدة كل البعد عن الكاثوليكية في بولينيزيا.

○

كانت السنة الدراسية قد قاربت على النهاية، وكانون الأول

وعيد ميلاد ميغي يقتربان مهددين بقدوم الصيف الحار، عندما علمت ميغي كم يدفع الإنسان غالياً ثمن رغبات قلبه. كانت جالسة على مقعد خشبي عال قرب الفرن بينما كانت «في» تسرح لها شعرها كالعادة قبل أن تذهب إلى المدرسة. وكان هذا عملاً معقداً. كانت شعر ميغي يميل بطبيعته إلى الجعدة، وكانت أمها تعتبر هذا نعمة من السماء إذ أن الفتيات ذوات الشعر الملس كن يعانين الأمرين حين يكبرن ويحاولن تمويج خصلات شعورهن المتهدلة الواهنة. وكانت ميغي تنام كل مساء وشعرها الذي يصل إلى ركبتيها ملفوف حول قطع قماشية بيضاء قصت من ملاءة قديمة، وكان عليها كل صباح أن تتسلق الكرسي العالي لتدع «في» تفك اللفافات وتسرح لها شعرها.

كانت «في» تستعمل في تسريحها فرشاة قديمة وكانت تمسك بخصلة واحدة رفيعة في يدها اليسرى وتفرشيها بمهارة وهي تديرها حول سبابتها حتى تلتف الخصلة بطولها حول الأصبع وتتحول إلى ما يشبه قطعة سجق لماعة سميكة. وعندئذ كانت تسحب أصبعها بحذر من مركز اللفافة وتهزها فتتدلّى الخصلة المجعدة سميكة ملفوفة بشكل جميل. وكانت تردد هذه العملية

حوالي الاثنتي عشرة مرة وبعدها كانت تجمع التجاعيد الأمامية في قمة رأس ميغي وتربطها بشريط منشّى من التافتا البيضاء وعندها فقط تكون ميغي جاهزة لبدء يومها .

كانت كل الفتيات الأخريات تذهبن إلى المدرسة وقد سرحن شعورهن على شكل ضفيرتين ولا يجعدنها إلا في المناسبات ، ولكن « في » كانت عنيدة من هذه الناحية ، فميغي ستجعد شعرها دائماً ولا يهم كم كان من الصعب إيجاد بضع دقائق كل صباح لذلك .

وكان هناك شيء لو عرفته « في » لفهمت أنها على خطأ، فقد كان شعر ميغي أجمل من شعر كل الأخريات في المدرسة وكان التجعيد اليومي يزيده جمالاً مما كان باعثاً لحسد واشمئزاز البنات في المدرسة .

كانت عملية التسريح هذه مؤلمة ولكن ميغي كانت قد اعتادتها فلم تعد تنتبه للألم وهي لا تتذكر يوماً مرّ من دون أن تتحمل هذه العملية . وكانت ذراع « في » القوية تسحب الفرشاة بعنف عبر الخصلات المتشابكة والمعقدة إلى أن تدمع عينا ميغي

التي كان عليها أن تتمسك بكلتا يديها بطرف المقعد الخشبي حتى لا تقع .

كان ذلك يوم الاثنين من آخر أسبوع في المدرسة ، وكان عيد ميلادها بعد يومين فقط . وتعلقت بالمقعد تحلم بطقم الشاي المنقوش وهي تعلم أنه مجرد حلم . كان هنالك واحد في مخزن واهيني وكانت تفهم الأسعار كفاية لتعلم أن ثمن الطقم يتعدى موارد أبيها الهزيلة .

وفجأة صدر عن « في » صوت غريب أيقظ ميغي من شرودها وجعل الذكور الذين كانوا يتناولون إفطارهم يديرون رؤوسهم بدهشة .

ـــ انظروا بحق السماء .

وقفز بادي على قدميه والذهول يعلو وجهه ، فلم يكن قد سمع « في » أبداً من قبل تتلفظ باسم الرب عبثاً . وكانت تقف وهي تمسك بيدها إحدى خصلات شعر ميغي وقد جمدت الفرشاة بين أصابعها وتقلصت عضلات وجهها معبرة عن اشمئزاز وصدمة لا يوصفان .

والتف بادي والصبية حولهما، وحاولت ميغي أن تعرف السبب فكان نصيبها لطمة من الفرشاة الشائكة دفعت بالدمع إلى عينيها.

ــ انظر. تمتمت «في» وهي ترفع بيدها خصلة في ضوء الشمس بحيث يستطيع بادي أن يرى.

كان الشعر كتلة متوهجة تلمع كالذهب في الشمس ولم يرَ بادي شيئاً لأول وهلة، ثم بدأ يلاحظ مخلوقات صغيرة تنحدر على ظهر يد «في». وأمسك هو أيضاً بخصلة وفي بريقها المتوثب فبدأ يميز مخلوقات أخرى عديدة تروح وتجيء منهمكة. وكان هناك أشياء صغيرة بيضاء ملتصقة كتلاً على طول الخصلات، والمخلوقات الصغيرة تفرز بنشاط كتلاً أخرى من هذه الأشياء البيضاء الصغيرة، فبدا شعر ميغي كالخلية.

ــ إنها مليئة بالقمل يا بادي.

وتهافت بوب وجاك وهوغي وستو لإلقاء نظرة ثم تراجعوا بسرعة كما فعل بادي ووقفوا على مسافة آمنة. ولم يبق إلا فرانك و«في» يتفرسان في شعر ميغي بجمود، بينما جلست هي محنية

الظهر تعيسة، تتسائل ما الذي فعلته. وجلس بادي في مقعده بتثاقل، يحدق في النار وعيناه ترفان بشدة.

ـــ «إنها تلك الفتاة الإيطالية اللعينة». نطق بادي أخيراً وهو يلتفت جهة «في». «أولاد الملاعين، الخنازير القذرة».

ـــ بادي! شهقت «في» بروع.

ـــ إني آسف لهذه الألفاظ، أيتها الوالدة، ولكنني عندما أفكر أن تلك الإيطالية اللعينة قد نقلت القمل إلى ميغي، فبإمكاني الذهاب إلى واهيني على التو وتدمير ذلك المقهى العفن القذر. انفجر بادي وهو يضرب براحتيه على ركبتيه بضراوة.

ـــ ما هذا يا ماما؟ استطاعت ميغي أن تسأل أخيراً.

ـــ «انظري أيتها الدودة الصغيرة الوسخة» أجابت أمها وهي تلوّح بيدها أمام عيني ميغي. «إن شعرك مليء بهذه الأشياء من تلك الفتاة القذرة التي تلاصقك دائماً. ما الذي سأفعله بك الآن؟».

وقفزت ميغي لرؤية المخلوقات الدقيقة تطوف على غير هدى حول جلد يد «في» العاري باحثة عن أرض أكثر صلابة، ثم انفجرت بالبكاء.

وبدون أن يطلب أحد منه شيئاً، إشعل فرانك النار تحت المرجل بينما كان بادي يذرع أرض المطبخ بخطواته وهو يزمجر، وغضبه يتصاعد كلما نظر إلى ميغي. وأخيراً توجه نحو المشجب بقرب الباب الخلفي، وتناول قبعته وثبّتها بإحكام حول رأسه ثم تناول السوط المعلق على الحائط قائلاً:

ــ أنا ذاهب إلى واهيني يا «في»، ذاهب لأخبر ذلك الإيطالي اللعين ما الذي عليه أن يفعله بسمكه المقلي وبطاطته، ومن ثم لأخبر الأخت أغاثا عن رأيي بها لقبولها أطفالاً قذرين في مدرستها.

ــ «كن حذراً يا بادي»، توسلت «في». «ماذا لو أن القمل لم يأت من تلك الفتاة الإيطالية؟ وحتى لو كان ذلك صحيحاً، فلربما التقطتها وميغي من شخص آخر».

ــ «هراء» أجاب بادي بازدراء وبدأ يهبط الدرج الخلفي قفزاً، وبعد لحظات سمعوا وقع حوافر حصانه على الطريق. ونظرت «في» إلى فرانك بيأس وتنهدت:

ــ حسناً، سنكون محظوظين إذا لم ينته في السجن. من الأفضل أن تعيد الصبيان إلى الداخل يا فرانك، فلن يذهبوا اليوم إلى المدرسة.

وعندما دخل الصبيان، أخذت «في» تبحث في رؤوسهم واحداً واحداً، ثم فحصت رأس فرانك وطلبت منه أن يفعل الشيء نفسه بشعرها. لم يكن هناك أي دليل على أن أحداً آخر قد أصيب بوباء ميغي، ولكن «في» لم ترغب بالمخاطرة. وعندما بدأ الماء يغلي في القدر النحاسية الضخمة، تناول فرانك الوعاء الذي يستعمل لغسل الصحون عن الحائط وملأه حتى نصفه بالماء الغالي والنصف الآخر بالماء البارد، ثم خرج يحضر وعاء مختوماً يحتوي على خمس غالونات من الكيروسين، وتناول قطعة صابون من المغسل وبدأ يغسل رؤوس أخوته، فكان يغطس كل رأس قليلاً في الماء ثم يسكب فوقه بضع كؤوس من الكيروسين ويرغي قطعة الصابون على كتلة الشعر الموحلة المفعمة بالكيروسين. وكان الكيروسين وقلي الصابون يحرقان، فأخذ الأولاد بالعويل وهم يفركون أعينهم الملتهبة ويشدون على فروة رأسهم المحمرة المتهيجة ويهددون بانتقام مروّع من كل إيطالي.

وذهبت «في» إلى سلة الخياطة وتناولت مقصاً ضخماً، وعادت إلى ميغي التي لم تكن قد تجرأت على التحرك من مكانها رغم مرور ساعة أو أكثر على جلوسها، وتوقفت «في» والمقص في

يدها تتأمل الشعر الجميل، ثم بدأت تقصه حتى تجمعت كل الخصلات الطويلة المجعدة في كومة متوهجة على الأرض وبدأ جلد رأس ميغي الأبيض يظهر على شكل بقع غير منتظمة على سطح رأسها. والتفتت «في» إلى فرانك والشك يبدو في عينيها سائلة من بين شفاهها المشدودة:

ـــ هل تظن أن علي أن أحلقه تماماً؟

ورفع فرانك يده ثائراً:

ـــ كلا يا أماه، بالتأكيد لا. يكفي أن نسكب عليه دفعة كبيرة من الكيروسين. لا تحلقيه، أرجوك.

وهكذا سيقت ميغي إلى طاولة المطبخ وأُحني رأسها فوق الوعاء، وصب فرانك على رأسها كأساً بعد كأس من الكيروسين ثم أخذ يفرك قطعة من الصابون بشدة على ما تبقى من شعرها. وعندما رضي أخوها وأمها أخيراً عن النتيجة، كانت قد عميت تقريباً من الشد على عينيها اللتين كانتا تلتهبان تحت لسع المادة الكاوية، وامتلأ وجهها وجلدة رأسها بصفوف من البثور الصغيرة. وكنس فرانك خصلات الشعر المرمية أرضاً وجمعها على ورقة ثم رماها في نار المرجل، وتناول المكنسة وغطسها في وعاء مليء

بالبترول. وغسل شعره وفعلت «في» كذلك وهما يشهقان من لسعة الأسيد، ثم أخذ فرانك دلواً وفرك أرض المطبخ بمحلول قاتل للجراثيم.

وعندما تعقم المطبخ كمستشفى، اتجهوا نحو غرف النوم ونزعوا كل الملاءات والأغطية من جميع الأسرّة وأمضوا بقية النهار يغلون ويعصرون ويمدون بياضات البيت على الحبال. كما أخرجوا الفرش والوسائد وكوّموها فوق السياج ورشّوها بالكيروسين، ونفضوا سجّاد غرفة الجلوس حتى كاد يهترىء. وساعد الصبيان كلهم في هذه الورشة، ولكن ميغي أُعفيت من العمل نظراً للخزي الذي لحق بها، فجرّت نفسها إلى خلف حظيرة الماشية وأخذت تبكي. كان رأسها يلتهب بسبب التدليك والحروقات والبثور، وكان خجلها لاذعاً بشكل لم تستطع معه أن ترفع عينيها على فرانك عندما جاء يبحث عنها وعجز عن أن يقنعها بدخول المنزل.

وأخيراً اضطر إلى سحبها بعنف إلى الداخل وهي ترفس بقدميها وتقاوم. وكانت قد دفعت نفسها إلى إحدى الزوايا عندما عاد بادي من واهيني في وقت متأخر. وألقى نظرة واحدة على شعر

ميغي المجزوز وانفجر يبكي كطفل وهو جالس يتأرجح في كرسيه وقد غطى وجهه بيديه ، بينما وقفت العائلة مرتبكة متمنية أن تكون في أي مكان آخر غير هذا المكان . وغلت « في » أبريقاً من الشاي ثم صبت لبادي فنجاناً عندما بدأ يهدأ وسألته :

ــ ماذا فعلت في واهيني ؟ لقد طال غيابك .

ــ أولاً : ذهبت حاملاً سوطي إلى ذلك الإيطالي اللعين ورميته في معلف الخيل ، ثم رأيت ماك ليود واقفاً أمام دكانه ينظر فأخبرته بالذي حصل ، فجمع بعضاً من الرجال الذين كانوا في الحانة ورمينا كل هؤلاء « الطليان » في المعلف ، رجالاً ونساء ، وألقينا عليهم بضع غالونات من مبيد الجراثيم ، ومن بعدها نزلت إلى المدرسة وقابلت الأخت أغاثا ، وصدقيني لقد جنّ جنونها لأنها لم تلاحظ أي شيء ، وسحبت الفتاة الإيطالية خارج مقعدها وفحصت شعرها ، وكان يعج بالقمل ، طبعاً . وهكذا فقد أرسلت الفتاة إلى بيتها وأمرتها بألاّ تعود قبل أن يصبح رأسها نظيفاً تماماً . وعندها تركت الراهبات الثلاث يفحصن رؤوس تلاميذ المدرسة واحداً واحداً ، ولقد تبين أن هناك الكثيرين من المصابين ، وأخذت كل من الراهبات تهرش جلدها كالمجنونة ظانة أن لا أحد يراقبها .

وابتسم لهذه الذكرى ثم رأى رأس ميغي من جديد فتمالك نفسه ونظر إليها وهو يقول بتجهم :

ــ أما بالنسبة إليك أيتها السيدة الصغيرة ، فلا « طليان » ولا غيرهم منذ الآن ، ليس لك إلا أخوتك وسيكون من المؤسف ألاَّ يرضيك هذا . اسمع يا بوب ، إني لا أسمح لميغي بمخالطة أي شخص غيرك وأخوتك عندما تكون في المدرسة ، هل تسمعني ؟

وأحنى بوب رأسه قائلاً :

ــ نعم يا أبي .

وفي صباح اليوم التالي ، ارتعبت ميغي عندما اكتشفت أنها ستذهب كالعادة إلى المدرسة .

ــ « لا ، لا ، لا أستطيع الذهاب إلى المدرسة » . أخذت تنتحب وهي تعصر رأسها بيديها . « ماما ، ماما ، لا أستطيع الذهاب هكذا إلى المدرسة ، ليس بوجود الأخت أغاثا » .

ــ « بل تستطيعين » ، أجابت أمها متجاهلة نظرات فرانك المتوسلة . « سيلقنك هذا درساً » .

وهكذا ذهبت إلى المدرسة وقدماها تعجزان عن حملها ،

ورأسها معصوب بمنديل بني. وتجاهلتها الأخت أغاثا تماماً ولكن بقية البنات تبعنها أثناء الفسحة ونزعن منديلها عن رأسها ليرين شكلها. كان وجهها قد تحمل أذى بسيطاً ولكن منظر رأسها كان مرعباً عندما انزلق المنديل كاشفاً عن الجلد الملتهب المتقرح. وعندما رأى بوب ما يجري، أتى بسرعة وسحب أخته بعيداً إلى زاوية منعزلة من ملعب الكريكيت.

ـــ «لا تهتمي بهن يا ميغي»، قال بخشونة وهو يربط المنديل حول رأسها متلبكاً ويربت على كتفيها المتصلبتين. «انهن كالقطط الحاقدة، ولو أنني استطعت التقاط بعض هذه الأشياء الصغيرة من رأسك، وأظن أن بالإمكان حفظها، لكنت انتظرت حتى ينسى الجميع الحادثة لأنثر دفعة جديدة في بعض هذه الرؤوس».

وتجمع بقية الأخوة وجلسوا يحرسون ميغي حتى قرع الجرس. وجاءت تيريزا انونتسيو إلى المدرسة لبرهة قصيرة وقت الغذاء، وكان رأسها حليقاً وحاولت مهاجمة ميغي ولكن الأخوة ردوها بسهولة. وإذ كانت تتراجع رفعت ذراعها الأيمن في الجو وأصابعها مطبقة، وضربت بيدها اليسرى على عضلة ذراعها الأيمن

في حركة عجيبة غامضة لم يفهمها أحد، ولكن الصبيان خزنوها في ذاكرتهم لاستعمالها في المستقبل.

ـــ «إني أكرهك»، صرخت تيريزا، «لقد اضطر والدي إلى الانتقال إلى منطقة أخرى بسبب ما فعله أبوك» ثم استدارت وركضت من الباحة وهي تصرخ.

ورفعت ميغي رأسها وعيناها جافتان، كانت هذه أمثولة لها ولا يهم ما يفكر الآخرون، لا يهم، لا يهم! وتجنبتها بقية البنات إما لخوفهن من بوب وجاك، أو لأن الإشاعة كانت قد بلغت أهاليهن وطلب هؤلاء منهن الابتعاد عن ميغي لأن الاختلاط بآل كليري عن قرب كان يعني خلق المشاكل. وهكذا أمضت ميغي أيام المدرسة الأخيرة «في الدير» كما كانوا يقولون، وهذا يعني أنها كانت منعزلة تماماً وقد احترمت الأخت أغاثا هذه السياسة الجديدة، وصبت غيظها على ستوارت بدلاً من ميغي.

وإذ وقع عيد ميلاد ميغي في يوم دراسي، فقد أُرجيء الاحتفال به حتى نهار السبت كما يجري عادة. وتلقت طقم الشاي المنقوش الذي كانت تشتهيه. وكان موضوعاً على مائدة صغيرة جميلة بلون البحر، ومن جهة وأخرى منها كرسيان صنعهما فرانك

في وقت فراغه النادر، وعلى أحد الكرسيين كانت أنييس تجلس مرتدية ثوباً أزرق جديداً صنعته لها «في» في وقت فراغها النادر أيضاً. ونظرت ميغي بكآبة إلى الرسوم الزرقاء والبيضاء المنثورة على القطع الصغيرة، إلى الأشجار الغريبة بأزهارها العجيبة المنتفخة، وإلى المعابد الصينية الدقيقة المزينة، إلى العصفورين الصغيرين بسكونهما الغريب: صورتان دقيقتان تطيران إلى الأبد عبر الجسر المتلوي. كان طقم الشاي قد فقد كل سحره بالنسبة لميغي ولكنها فهمت بطريقة مبهمة أن العائلة كانت قد قطعت اللقمة عن نفسها حتى تشتري لها ما ظنته أغلى شيء على قلبها. وأحست أن الواجب يفرض عليها أن تصنع شاياً لانييس في أبريق الشاي الصغير المربع الشكل وتقدمه لها في الفنجان الصغير... ومضت في الاحتفال متظاهرة أنها فعلاً في نشوة عارمة. والشيء المؤثر هو أن ميغي ظلت سنوات عديدة تلعب بهذا الطقم بنوع من العناد، ولم تكسر أبداً حتى ولا طرف قطعة منه، ولم يفطن أحد إلى أنها كانت تكره ذلك الطقم المنقوش وتكره الطاولة الزرقاء، وتكره ثوب أنييس الأزرق.

○

في عام ١٩١٧ وقبل عيد الميلاد بيومين، أتى بادي

بصحيفته الأسبوعية إلى البيت، وكذلك بمجموعة جديدة من الكتب من مكتبة «هويفز»، ولأول مرة تستأثر الصحيفة بالاهتمام عوضاً عن الكتب، فقد كان الناشرون قد وجدوا فكرة جديدة مستوحاة من إحدى المجلات الأميركية المرغوبة، والتي كانت تجد طريقها من وقت لآخر إلى نيوزيلاندة. كان الجزء النصفي من الصحيفة عبارة عن مقال خاص عن الحرب، ترافقه صور غير واضحة لجنود مشاة أتراك يهاجمون شواطىء «جيليبولو» الصخرية، ومقالات تشيد بشجاعة الجنود النيوزيلانديين وتشير إلى العدد المرتفع من الجنود الاستراليين والنيوزيلانديين الذين حصلوا على وسام فيكتوريا منذ بدء النزاع. كما كان هناك رسم رائع، وعلى صفحة بكاملها، يمثل خيّالاً استرالياً على جواده، وقد استلّ سيفه بينما كان الهواء يلعب بالريش الحريري الطويل البارز من تحت طرف قبعته المائلة.

وما أن سنحت الفرصة لفرانك، حتى استولى على الصحيفة، وبدأ يقرأ المقالة بنهم ويروي غليله من التعابير المعجونة بالوطنية، وعيناه تشعان ببريق غريب.

والتفت إلى والده وهو يضع الصحيفة بورع على الطاولة قائلاً:

ـــ أبي ، إني أريد التطوع .

وأدارت « في » رأسها بعنف وأسقطت مرق اليخنة على الفرن ، وتصلب بادي في مقعده وقد نسي كتابه :

ـــ إنك لا تزال صغيراً يا فرانك .

ـــ كلا ، لم أعد صغيراً ، لقد بلغت السابعة عشرة يا أبي ، وأنا الآن رجل . لماذا يذبح الألمان والأتراك رجالنا بينما أجلس أنا هنا سليماً معافى ؟ لقد حان الوقت ليساهم أحد أفراد عائلة كليري بنصيبه في الحرب .

ـــ أنت لا تزال تحت السن القانونية ولن يقبلوا بك .

ـــ إنهم سيقبلون إذا لم تعارض أنت . أجابه فرانك بسرعة وعيناه السوداوان مثبتتان على وجه بادي .

ـــ ولكني أعارض حتماً . أنت الوحيد في العائلة الذي يعمل حالياً ، ونحن بحاجة إلى النقود التي تكسبها وأنت تعلم ذلك .

ـــ ولكني سأحصل على معاش في الجيش .

وضحك بادي قائلاً :

ـــ قرش الجندي ، ايه ؟ إن الحداد في واهيني يكسب أكثر بكثير من الجندي في أوروبا .

ــ ولكني سأكون هناك وربما يحالفني الحظ فأصبح شيئاً آخر أفضل من حداد، هذا هو المخرج الوحيد بالنسبة لي يا أبي .

ــ «هراء! يا إلهي، يا بني، أنت لا تعلم ما الذي تقوله. إن الحرب مروعة ولقد أتيت أنا من بلد تدور فيه الحروب منذ ألف سنة، ولهذا فأنا أعلم عما أتكلم. ألم تسمع حديث الرجال الذين خاضوا حرب البوير؟ أنت تذهب غالباً إلى واهيني وفي المرة القادمة التي تذهب بها إلى هناك، توقف واصغ. ولكن الذي يصدمني على كل حال هو أن الانجليز اللعينين يستخدمون الأستراليين لتغذية مدافع العدو إذ يرمونهم حيث لا يريدون المخاطرة بجنودهم الأعزاء. انظر إلى الطريقة التي أرسل بها القائد الماهر تشرشل رجالنا إلى معركة جيليبولو العقيمة! لقد قُتل عشرة آلاف رجل من أصل خمسين ألفاً. شيء أسوأ بكثير من الإبادة».

«لست أفهم لماذا تريد أن تحارب حرب انجلترا العجوز التي تدّعي أنها الوطن الأم؟ ما الذي فعلته من أجلك أكثر من أنها استنزفت دم مستعمراتها؟ لو ذهبت إلى انجلترا فلن تقابل إلا نظرات الإزدراء لأنك من المستعمرات. إن نيوزيلاندة

ليست في خطر، ولا استراليا كذلك. وإن خسرت انجلترا الحرب فسيكون هذا درساً مفيداً لها، لقد حان الوقت لأن يفعل بها البعض ما فعلت بإيرلندا. إني لن أذرف دمعة واحدة لو رأيت «القيصر» يختال في شوارع لندن».

ــ ولكنني أريد أن أتطوع يا أبي.

ــ تستطيع أن «تريد» كل ما تشاء يا فرانك ولكن من الأفضل أن تنسى فكرة التطوع بكاملها. إن طول قامتك غير كاف لتكون جندياً.

واحمرّ وجه فرانك. وشدّ على شفتيه. كان قصر قامته يؤلمه جداً، وعندما كان في المدرسة، كان دوماً أقصر الأولاد في صفه، وبسبب هذا كان يتعارك كثيراً معهم. ومنذ عهد قريب، بدأ شك مروّع يستولي على كيانه، فطوله لم يتغير منذ كان عمره أربعة عشرة عاماً، متر وتسعة وخمسون سنتيمتراً، وها هو في السابعة عشرة. ربما توقف عن النمو. ولم يكن أحد سواه يعلم بعذاب جسمه وروحه، ولا بأمله العقيم أو بالتمارين والحركات الرياضية التي كان يمارسها.

وكان عمله في الحدادة قد منحه قوة عظيمة لا تتماشى

مطلقاً مع قصر قامته، وعلى كل لو كان بادي قد اختار عمداً مهنة لشخص بطبيعة فرانك، لما وجد أفضل من الحدادة.

وحتى السابعة عشرة من عمره، وبفضل جسمه الصغير المزود بقوة بحتة، لم يكن قد خسر في أية ملاكمة وأصبح مشهوراً في جميع أرجاء شبه جزيرة تاراناكي. وكان يجد في القتال منفذاً لغضبه وحرمانه وعقدة نقصه، وهذا البواعث كانت تفوق ما يملكه أكبر وأشد الشبان المحليين، أضف إلى ذلك جسداً رائعاً، وعقلاً سليماً، هذا عدا عن مكره وإرادته التي لا تقهر. وكلما كان الخصم طويلاً وشديداً، كلما زادت رغبة فرانك بتمريغه في التراب وكان أقرانه يتجنبونه لمعرفتهم الجيدة بنزعته العدوانية. ومؤخراً كفّ عن مواجهة الشبان باحثاً عن غرماء يليقون به ولا يزال الرجال يتحدثون عن اليوم الذي انتصر به على جيم كولينز وجعله عجينة دامية، مع أن جيم كان في الثانية والعشرين من عمره، وطوله مئة وتسعون سنتمتراً، وكان بإمكانه رفع حصان بيده. فبالرغم من ذراعه المكسورة وعظام صدره المحطمة، ظل فرانك يقاتل حتى لم يبقَ من جيم كولينز إلا كتلة دامية ارتمت في التراب. وقد اقتضى الأمر الإمساك بفرانك لمنعه من تحطيم رأس غريمه الفاقد الوعي.

وما أن شفيت ذراع فرانك ورفع الجص عن عظام صدره، حتى سارع بالذهاب إلى المدينة حيث رفع حصاناً بيده ليبرهن لجيم أنه لم يكن الوحيد الذي يمكنه أن يفعل ذلك وأن الأمر لا علاقة له بطول الرجل أو قصره.

وبما أن بادي هو الذي أنجب هذه الظاهرة العجيبة، فقد كان على علم جيد بشهرة فرانك وكان يفهم المعركة التي يخوضها لكسب احترام الآخرين. ومع ذلك فلم يكن باستطاعته منع نفسه من الغضب عندما تتسبب الملاكمة في تعطيل فرانك عن عمله في حانوت الحدادة.

وبما أن بادي نفسه كان قصير القامة، فهو أيضاً قد نال نصيبه من القتال لكي يبرهن عن شجاعته، ولكنه لم يكن يعتبر قصيراً جداً في ذلك الجزء من إيرلندا حيث كان يعيش، وفي الوقت الذي وصل إلى نيوزيلاندة، حيث كان الرجال طوال القامة بشكل عام، كان قد أصبح رجلاً ولم يعد طول قامته هاجسه الوحيد كما هي الحال مع فرانك.

جلس بادي ينظر إلى الشاب بانتباه محاولاً أن يفهمه ولا يستطيع. وقد بقي هذا الولد أبعد أبنائه عن قلبه رغم كل محاولاته

كي لا يفرق بين ولد وآخر . وكان يعلم أن هذا الشعور يحزن « في » وأنها كانت قلقة من العداء الصامت القائم بينهما ، ولكن كل الحب الذي كان يكنه لـ « في » لم يكن باستطاعته أن يتغلب على سخطه على فرانك .

كانت يدا فرانك القصيرتان الجميلتان قد استقرتا على الصحيفة المفتوحة ، بتحفز ، وعيناه مثبتتان على وجه بادي في خليط غريب من التوسل والكبرياء العاجزة عن التوسل . كم كان وجه فرانك غريباً ! لم يكن فيه شيء يذكر بآل كليري أو بآل ارمسترونغ ، اللهم إلا أثر صغير من « في » حول العينين ، هذا فيما لو كانت عينا « في » سوداوين ، وكان بإمكانهما أن تقدحا وتتوهجا كما تفعل عينا فرانك عند أقل تحدٍ . ولكن شيئاً واحداً لم يكن مفقوداً عند هذا الولد ، وهو الشجاعة .

وأغلق الموضوع بشكل فجلئي عندما ألقى بادي ملاحظته حول قامة فرانك ، وأكلت العائلة يخنة الأرنب بصمت غير اعتيادي ، بينما كان هوغي وجاك يخوضان بحذر حديثاً صعباً وخجولاً تقاطعه بين فترة وأخرى ضحكات حادة . ورفضت ميغي أن تأكل وهي تحدق بفرانك وكأنه يوشك على الاختفاء عن نظرها

في أية لحظة. وكان فرانك يتظاهر بتناول الطعام، وبعد فترة بدت له مناسبة، اعتذر ونهض عن المائدة، وسُمعت بعد قليل ضربات فأسه الرتيبة آتية من جهة المحطبة. كان فرانك يشن هجوماً عنيفاً على الجذوع الصلبة التي أتى بها بادي إلى البيت لتخزينها واستعمالها في الشتاء لإشعال نار بطيئة.

وعندما ظن الجميع أنها قد نامت، تسللت ميغي من خلال نافذة غرفتها وتوجهت إلى المحطبة. كانت المحطبة هامة جداً بالنسبة لاستمرارية الحياة في البيت، وكانت تشغل مئة متر مربع من الأرض الصلبة المعزولة بطبقات سميكة من نشارة الخشب وقشور الأشجار. وفي جهة منها كانت هناك كومة مرتفعة من الجذوع راقدة تنتظر أن تقطّع، وفي الجهة الأخرى، ارتفع جدار من الخشب المرصوف كالفسيفساء، وقد قطع بأطوال تناسب قياس حجرة الوقود في الفرن. وفي وسط المحطبة، جثمت ثلاثة من جذول الأشجار لم تنزع من تربتها، وكانت تستخدم كمنصات لقطع الأخشاب المختلفة الطول.

لم يكن فرانك يشتغل على المنصة وإنما كان منكبّاً على جذع شجرة أوكاليبتوس ضخم يقطعه إلى أجزاء بحيث يمكنه وضعها على أحد الجذول العريضة المنخفضة.

كان الجذع الضخم ملقى على الأرض وطرفاه مثبتان برزّات من الحديد، وكان فرانك يقف فوقه وساقاه منفرجتان من جهة وأخرى منه، وقد انحنى يشقه وكانت الفأس تتحرك بسرعة كبيرة ومقبضها يصدر صوتاً كالحفيف كلما ارتفعت وهوت في قبضة فرانك الزلقة، وتلتمع فوق رأسه ثم تهوي في ضباب فضي باهت مستخرجة من الخشب الصلب كالفولاذ قطعة على شكل زاوية، وذلك بسهولة تامة وكما لو كان جذع صنوبرة أو صفصافة.

كانت شظايا الخشب تتطاير في كل الاتجاهات، والعرق يتصبب كالسواقي على صدر فرانك العاري وظهره. وكان قد عقد منديله على حاجبيه كي لا يتساقط العرق في عينيه ويمنعه من الرؤية. وتقطيع الخشب عمل خطر، فلو أخطأ فرانك بتقدير المسافة أو بتوجيه الفأس فسرعان ما سيجد نفسه بقدم واحدة. وكان يلبس في معصميه أسوارتين من الجلد لامتصاص العرق من ذراعيه، وبالرغم من أنه لم يكن يلبس قفازاً بيديه الرقيقتين، فقد كان يقبض على الفأس برشاقة وبمهارة فائقة.

وجثمت ميغي قرب قميصه الملقى على الأرض تنظر إليه بخشية. كان هناك ثلاثة فؤوس احتياطية موضوعة جانباً، لأن

خشب الأوكاليبتوس كان يثلم أشد الفؤوس حدة في دقائق معدودة. وأمسكت أحد الفؤوس بمقبضها وجذبتها إلى ركبتيها متمنية لو أنها تستطيع تقطيع الخشب مثل فرانك. ولكن الفأس ثقيلة جداً وتكاد لا تستطيع رفعها. كان للفؤوس المستعملة في المستعمرات حد واحد يُشحذ حتى يصبح حاداً كالشعرة، إذ أن الفؤوس ذات الحدين كانت خفيفة جداً ولا تناسب شجر الأوكاليبتوس. وأما الطرف الآخر من الفأس ذات الحد الواحد فقد كان سميكاً وثقيلاً وبه ثقب يسمح بمرور المقبض الذي يُثبّت بقطع صغيرة من الخشب، وإذا لم يُثبّت بشدة، فيمكن للرأس أن يفلت ويسبح دائراً في الهواء بسرعة وقوة قذيفة مدفعية قاتلة.

كان فرانك يقطع الخشب بدون انتباه تقريباً وقد بدأ ضوء النهار يختفي بسرعة. وتجنبت ميغي شظايا الخشب بسهولة لاعتيادها على ذلك وانتظرت بصبر أن يكتشف فرانك وجودها، وكان قد شق الجذع حتى منتصفه واستدار إلى الجهة الأخرى وهو يلهث، ثم رفع الفأس ثانية وبدأ يشقه من الجهة الأخرى. كان الشق في الجذع عميقاً وضيقاً للمحافظة على الخشب والإسراع في عملية القطع، وعندما وصل فرانك إلى مركز الجذع، اختفى رأس

الفأس بكامله في الشق وتطايرت قطع الخشب أقرب وأقرب إلى جسده فتجاهلها وتابع عمله بسرعة أكبر ؛ وفجأة انشق الجذع، وفي اللحظة نفسها قفز فرانك برشاقة في الجو متوقعاً انشقاق الجذع قبل أن يضرب آخر ضربة بفأسه، وعند انفتاح الجذع، قفز فرانك جانباً وهو يبتسم، ولكن ابتسامته لم تكن سعيدة .

واستدار ليتناول فأساً جديدة فرأى أخته جالسة بصبر وهي بقميص نومها المحتشم المقفل بأزرار من الأعلى إلى الأسفل . كان لا يزال يستغرب منظر شعرها في كتلة من الخصلات القصيرة المجعدة بدلاً من التسريحة التي اعتاد أن يراها، ولكنه عاد وقرر أن التسريحة الصبيانية تناسبها تماماً وتمنّى لو بقي الحال كذلك . واقترب منها وجلس على الأرض وفأسه بين ركبتيه .

ـــ كيف خرجت أيتها الشيطانة الصغيرة ؟

ـــ لقد تسللت من النافذة بعد أن أغفى ستو .

ـــ إن لم تنتبهي لنفسك فسوف تصبحين كالصبيان .

ـــ لا يهمني هذا، فاللعب مع الصبيان أفضل من أن ألعب لوحدي .

ـــ «أعتقد ذلك». وجلس مستنداً إلى جذع شجرة وأدار رأسه بإرهاق نحوها. «ما الأمر يا ميغي؟».

ـــ إنك لن تذهب حقاً يا فرانك، أليس كذلك؟

ووضعت يديها ذات الأظفار المقروضة على فخـــذي فرانك، ونظرت إليه بقلق، وفتحت فمها لأنها كانت تقاوم دموعها ولم يعد بإمكانها التنفس جيداً.

ـــ ربما يا ميغي. قال بلطف.

ـــ أنت لا تستطيع أن تفعل هذا يا فرانك. أنا وأمي بحاجة إليك، صدقني، لا أعلم ماذا كنا سنفعل بدونك.

وابتسم رغم ألمه لسماعه صدى كلمات «في» في كلمات أخته.

ـــ ميغي، إن الأحداث تجري أحياناً بطريقة لا نتمناها. عليك أن تفهمي هذا. ونحن آل كليري قد تعلمنا أن نعمل معاً من أجل مصلحة الجميع، دون أن نفكر أبداً بالمصحلة الشخصية لكل منا أولاً. ولكني لا أوافق على هذا. أظن أن علينا أن يُفكر كل منا بنفسه. أريد أن أرحل لأني أصبحت في السابعة عشرة وعلي أن أبني حياتي بنفسي. ولكن والدي يرفض. إنهم بحاجة لي في

البيت من أجل مصلحة العائلة ككيان واحد. وبما إني لست في الحادية والعشرين فعلي أن أطيع الوالد.

وأحنت ميغي رأسها بجدية، وهي تحاول أن تفك خيوط تفسيراته المعقدة.

ـ الحقيقة يا ميغي إنني فكرت طويلاً وجيداً بهذا الموضوع، وسوف أرحل. هذا ما توصلت إليه. إني أعلم أنك وأمي ستفتقدانني، ولكن بوب يكبر بسرعة وأبي والأولاد لن يفتقدوني أبداً، فأبي لا يهمه إلّا المال الذي يدخل البيت.

ـ ألم تعد تحبنا يا فرانك؟

واستدار ليشدها إلى ذراعيه، وضمها إليه وهو يلاطفها بلذة تقارب العذاب حيث اختلط الحزن والألم والحرمان.

ـ «آه يا ميغي، إني أحبك أنت وأمي أكثر من كل الآخرين سوية! يا إلهي لماذا لستِ أكبر من هذا فيكون بإمكاني التحدث إليك؟ ولكن.. ربما كان من الأفضل أن تكوني صغيرة، نعم هذا أفضل...».

ثم أفلتها فجأة، محاولاً أن يتمالك نفسه، ورأسه يتمايل يميناً

وشمالاً على جذع الشجرة، وهو يبتلع لعابه ويتنفس بصعوبة. ثم نظر إليها:

ــ ميغي، عندما تكبرين ستفهمين بطريقة أفضل.

ــ أرجوك لا ترحل يا فرانك. ردت ميغي.

وضحك وكأنه يبكي:

ــ آه يا ميغي، ألم تسمعي شيئاً مما قلته لك؟ على كل، لا يهم، الشيء المهم هو ألا تخبري أحداً أنك رأيتني هذه الليلة، أتسمعين؟ لا أريدهم أن يظنوا أنك متآمرة معي.

ــ لقد سمعت جيداً يا فرانك، سمعت كل شيء، قالت ميغي. لن أقول كلمة واحدة لأحد، إني أعدك. ولكن.. إني أتمنى ألّا تكون مضطراً للرحيل.

كانت لا تزال طفلة ولا يمكنها أن تخبره عمّا كان مجرد إحساس غامض في قلبها فما الذي سيبقى لها لو رحل فرانك؟ كان الوحيد الذي يغدق عليها حنانه علناً، الوحيد الذي يحضنها ويعانقها. وعندما كانت صغيرة جداً، كان والدها يحملها كثيراً، ولكن منذ أن بدأت بالذهاب إلى المدرسة، لم يعد يسمح لها بالجلوس على ركبتيه، ولا بأن تلف ذراعيها حول عنقه. ويقول:

«لقد كبرت الآن يا ميغي». وأمها؟ أمها كانت دائماً مشغولة جداً، ومتعبة جداً، يستأثر بها البيت والصبيان. كان فرانك هو الذي يحتلّ أكبر مكان في قلبها، فرانك الذي كان يلمع كنجمة في سمائها الصغيرة. كان الوحيد الذي يبدو سعيداً حين يجلس ويتحدث إليها ويفسر لها الأشياء بطريقة تفهمها. ومنذ اليوم الذي فقدت به انيبس شعرها، وقف فرانك بجانبها. ورغم كل المتاعب التي تعرضت لها، لم يعد هناك شيء يمسّها فعلاً حتى الأعماق؛ لا قضيب الأخت أغاثا، ولا القمل، ولا أي شيء؛ لأن فرانك كان موجوداً لكي يعزّيها.

ونهضت ميغي وهم ترغم نفسها على الابتسام:

ــ إذا كنت مضطراً للرحيل يا فرانك، فلا بأس.

ــ ميغي، كان عليك أن تكوني في سريرك، ومن الأفضل أن تعودي إليه قبل أن تقوم الماما بجولتها التفقدية. هيّا اجري بسرعة.

وبدد هذا الانذار كل فكرة أخرى من دماغها، فخفضت رأسها وقبضت على ذيل قميص نومها المتدلّي وسحبته من بين ساقيها إلى الأمام وأمسكته مثل ذيل في وضع معكوس، بينما كانت

تجري وقدماها العاريتـان تدوسان الشظايـا والرقاقـات الخشبيـة الحادة.

وفي الصباح، كان فرانك قد رحل. وعندما أتت «في» لتسحب ميغي من سريرها، كانت متجهمة وجافة، وقفزت ميغي من السرير كالقطة المسعورة، وارتدت ملابسها دون أن تطلب مساعدة أحد لإقفال كل أزرارها الصغيرة.

وفي المطبخ، كان الصبيان يجلسون بكآبة حول المائدة، بينما كان مقعد بادي فارغاً، وكذلك مقعد فرانك. وانزلقت ميغي إلى مقعدها وجلست وأسنانها تصطك من الخوف.

وبعد الأفطار طردتهم «في» إلى الخارج بقسوة. وعندما وصلوا خلف السياج، ابلغ بوب ميغي آخر الأنباء:

ــ «لقد هرب فرانك». قال لاهثاً.

ــ «ربما ذهب فقط إلى واهيني». قالت ميغي.

ــ «كلا، أيتها الحمقاء! لقد ذهب ليتطوع في الجيش. كم أتمنى أن أكون كبيراً، لكنت ذهبت معه. كم هو محظوظ!».

ــ أما أنا فأتمنى لو أنه ما زال في البيت.

وهزّ بوب بكتفيه قائلاً :

ــ لست إلا فتاة ، وهذا ما انتظر أن تقوله الفتاة .

ولم تعلّق ميغي على العبارة التي كانت تشعل النار في الأوقات العادية ، ودخلت إلى البيت لترى أمها وما بمقدورها أن تفعل لمساعدتها .

وسألت ميغي أمها بعد أن طلبت منها هذه أن تكوي بعض المناديل :

ــ أين والدي ؟

ــ لقد ذهب إلى واهيني .

ــ هل سيعود بفرانك إلى البيت ؟

فأجابت « في » بغضب :

ــ من غير المعقول حفظ السر في هذا البيت . كلا ، إنه لن يلحق بفرانك في واهيني ، وهو يعلم ذلك . لقد ذهب ليرسل برقية إلى الشرطة في « وانغانوني » . وهم سيعودون بفرانك .

ــ آه يا ماما ، إني أتمنى أن يجدوه ، أنا لا أريد أن يرحل فرانك .

وخبطت « في » ممخضة الزبدة على المائدة ، وبدأت تجمع الكتلة الصفراء الرطبة في قالبين خشبيين قائلة :

ــ لا أحد منا يرغب في رحيل فرانك. ولهذا ذهب والدك لكي يعمل على إرجاعه.

وارتجف فمها قليلاً، وأخذت تخض الزبدة بشدة أكثر.

ــ مسكين فرانك، مسكين، مسكين. وتنهدت، ليس لميغي بل لنفسها. لست أدري لماذا على الأولاد أن يكفروا عن خطايانا. يا بنيّ المسكين، المختلف عن الجميع...

ثم لاحظت أن ميغي قد توقفت عن الكيّ، فأطبقت فمها ولم تضف شيئاً.

وبعد مرور ثلاثة أيام، أعادت الشرطة فرانك إلى المنزل. كان قد قاوم مقاومة عنيفة، هذا ما أعلنه رئيس الشرطة لبادي.

ــ أي مشاغب لديك هنا! عندما لاحظ أن مكتب التجنيد قد تلقى التعليمات بخصوصه، جرى بسرعة السهم ونزل درجات السلّم أربعاً أربعاً، ووراءه اثنان من العساكر، ولو لم يكن الحظ قد خانه فوقع على إحدى الدوريات، لكان قد تمكن من الهرب. لقد قاوم كالمجنون وقد احتجنا لخمسة رجال كي نتمكن من تقييده.

وبينما كان يقول هذا فكّ سلاسل فرانك الثقيلة ودفعه

بقسوة عبر الباب الأمامي ، فاصطدم ببادي وتراجع وكأنّ هذا قد لسعه. وكان الأولاد يدورون خلسة حول البيت وهم يتجنبون الاقتراب من الكبار ، يراقبون وينتظرون . ووقف بوب وجاك وهوغي متصلبين ، آملين أن يروا فرانك يدخل في مشاجرة أخرى ، ووقف ستوارت ينظر بهدوء من خلال روحه المسالمة اللطيفة ، ووضعت ميغي يديها على خديها تضغطهما وتفركهما وهي تكاد تموت خوفاً من أن يحاول أحد إيذاء فرانك .

واستدار فرانك لينظر إلى أمه أولاً ، وتعلقت العينان السوداوان بالعينين الرماديتين في مشاركة مرّة لم ولن يفصح عنها أحدهما . وطأطأ برأسه أمام عيني بادي الزرقاوين القاسيتين وقد قرأ فيهما الازدراء اللاذع كما لو لم يكن ينتظر إلا هذا من ابنه . وكانت عينا فرانك المخفضتان تعترفان بأن لوالده الحق في الغضب .

منذ ذلك اليوم ، لم يوجه بادي إلى ابنه إلا الكلام الضروري جداً . ولكن مواجهة أخوته كانت أصعب من كل شيء آخر ، فلقد أُعيد العصفور البراق إلى المنزل قبل أن يحلّق في السماء ويكتشفها ، خجلاً ، محرجاً ، وقد قُصّ جناحاه وغرق غناؤه في الصمت .

وانتظرت ميغي حتى أنهت «في» جولتها المعتـادة، ثم تسللت عبر نافذة غرفتها واجتازت الدار الخلفية. كانت تعلم أنها ستجد فرانك في مخزن العلف، آمناً من النظرات الفضولية ومن والده:

ــ فرانك، فرانك، أين أنت؟

همست ميغي وهي تتقدم على غير هدى في المستودع المظلم، وقدماها تستكشفان الأرض المجهولة أمامهـا بحساسيـة كحساسية الحيوان.

ــ إني هنا يا ميغي.

أتى صوته متعباً ويكاد لا يشبه صوته، لا حياة فيه ولا انفعال.

وتبعت ميغي الصوت إلى حيث وجدت فرانك متمدداً على القش، فتكـورت بقربـه وأحـاطت صدره العــريض بذراعيها الصغيرتين:

ــ آه يا فرانك، إني سعيدة بعودتك.

وأنّ فرانك قليلاً، ثم انزلق في القش حتى أصبح أخفضَ

من ميغي ووضع رأسه على جسدها النحيل. وقبضت ميغي على شعره وهي تدندن. كان من الصعب أن يراها لأن الظلام كان كثيفاً، ولكن حنوّ أخته اللا مرئي حطّم قوقعته فأخذ يبكي وجسده ينتفض انتفاضات بطيئة أليمة، وبللت دموعه قميص نومها. ولم تبكِ ميغي. وكبر في روحها الطفلة شيء ما، فجأة، وأصبح هذا الشيء امرأة، امرأة تحس بفرح غامر حاد يجتاح كيانها لعلمها بأنها ضرورية. وجلست تهز الرأس الأسود برفق من الخلف إلى الأمام ومن الأمام إلى الخلف حتى نفذ ألم فرانك وتلاشى في اللا شيء.

الكتاب الثاني

رالـف

١٩٢١ ــ ١٩٢٨

الفصل الثالث

لم تُعِد إليه طريق «دروغيدا» أية ذكرى من ذكريات صباه، وأغلق الأب «رالف دو بريكاسار» عينيه نصف إغلاقة ليحميهما من وهج الشمس، بينما كانت سيارته الـ «دملر» تتواثب فوق الأخاديد التي تركتها دواليب العربات على الوحل الجاف عبر الأعشاب الفضية. لا شيء في هذه البلاد يذكر بإيرلندا الناعمة الخضراء المغلفة بالضباب. ودروغيدا؟ ليس في دروغيدا ساحة قتال ولا مقاعد للسلطة. أو... ربما هذه هي الحقيقة! ربما كان يخدع نفسه.

كانت روحه المرحة أكثر انضباطية هذه الأيام، ولكن دون أن تفقد شيئاً من حدّتها. وكانت هذه الروح تصوّر له «ميري

كارسون » على هيئة امبراطور ديكتاتوري يوزع نواياه السيئة الشخصية . ولم يكن مبالغاً في تشبيهه ، فهذه السيدة كانت تملك حتماً سلطة واسعة وكانت كالأسياد القدماء ، تتحكم بعدد كبير من المخلوقات .

ولاحت له آخر البوابات من خلال شجيرات البقس والأكاسيا ، وتوقفت السيارة وهي ترتجف ، فترجل الأب رالف منها وهو يضع على رأسه قبعة رمادية بالية ذات أطراف عريضة لتقيه من الشمس . وتوجه بخطى متثاقلة نحو المزلاج الحديدي وسحبه من دعامته الخشبية ثم دفع الباب وهو يتذمر . وكان هناك سبع وعشرون بوابة بين بيت كاهن الرعية في « غيلانبون » وبين أملاك دروغيدا ، وكل منها يعني أن عليه أن يتوقف ، وينزل من السيارة ، ثم يفتح البوابة ويصعد إلى السيارة ، فيجتاز البوابة ثم يتوقف وينزل ويعود إلى الوراء ليقفل البوابة ، ثم يصعد من جديد إلى السيارة ويتابع سيره نحو البوابة التالية . وغالباً كانت تراوده رغبة شديدة بأن يعفي نفسه من نصف هذه العملية وذلك بأن يترك البوابات مفتوحة وراءه ، ولكنه ، ورغم هالة الرهبة التي كانت تحيط بشخصه ككاهن ، لن يستطيع أن يرد عنه غضب الملاكين إذا

أهمل إغلاق بوابات الأسيجة. وكان يتمنى لو أن الخيول كانت أسرع وأقوى من السيارات، إذ يستطيع عندها أن يفتح البوابة ويقفلها دون أن يترجل عن جواده.

ـــ كل شيء له ثمنه. قال هذا وهو يربت على لوحة السيارة الجديدة. وبعد أن أغلق البوابة الأخيرة بعناية، دفع سيارته على الكيلو متر الأخير من الأرض العشبة التي لا شجرة فيها، في حوش دروغيدا المركزي. كان المسكن الاسترالي يفرض هيبته على الجميع حتى على الايرلنديين الذين اعتادوا رؤية القصور والقلاع. كانت دروغيدا أقدم وأكبر ملكية في المنطقة، ولقد بنى فيها آخر ملاكيها، العجوز الخرف مايكل كارسون، مسكناً لائقاً بها. كان المسكن مبنياً من حجارة بلون الزبدة الفاتحة، وقد قُطعت هذه الحجارة يدوياً ونُقلت من مقالعها عن بعد ثمانمئة كيلومتر. كان البيت يتألف من طابقين وقد شُيّد على النمط الجيورجي الصارم، وله نوافذ واسعة، صنع زجاجها من مربعات متعددة صغيرة، وتحيط بالطابق الأرضي شرفة عريضة محمولة على أعمدة حديدية. وأما مصاريع النوافذ الخشبية السوداء التي كانت تزين الواجهة، فقد كان لها

منفعتها، ففي حرّ الصيف المحرق كانت تُغلق فتحافظ على البرودة داخل المنزل.

وفي هذا اليوم الخريفي، كانت الكرمة النحيلة خضراء، وأما في الربيع فكانت زهرة الحلوة (الوستارية) التي زرعت يوم انتهى بناء البيت منذ خمسة عشر عاماً، تصبح كتلة مثقلة بالريش الليلكي اللون، وتنتشر على كل الجدار الخارجي وعلى سطح الشرفة. وكان المنزل محاطاً بعدة هكتارات من الأرض المعشوشبة التي تخضع لعناية فائقة. وهنا وهناك، دغلات صغيرة منتظمة من الأزهار التي تتوهج بالألوان حتى في هذا الوقت من السنة، كالمنثور والأضاليا والقطيفة. أما حزمة أشجار الصمغ الرائعة، بجذوعها الفضية وأوراقها الرفيعة المتدلية على ارتفاع عشرين متراً عن الأرض، فقد انتصبت لكي تقي البيت من قسوة الشمس، وضُفرت أغصانها بلون قرمزي لامع حيث تشابكت معها أغصان البوغنفيلية. وحتى خزانات المياه التي تشبه حيوانات خيالية هائلة، حتى الخزانات كانت مغطاة بطبقة كثيفة من الكرمة المحلية ومن الورود وأزهار الحلوة، وبهذا بدت وكأنها قد أقيمت هناك للزخرفة وليس لمنفعتها.

وبسبب ولع مايكل كارسون بمسكن دروغيدا، فقد انفق

بلا حساب لبناء هذه الخزانات، وكانت الشائعات تقول أن دروغيدا تستطيع أن تحتفظ بمروجها خضراء وبزهورها متفتحة حتى ولم لم تسقط نقطة واحدة من المطر خلال عشر سنوات كاملة.

كان المسكن وأشجار الصمغ هي أول ما يراه المرء عندما يقترب من الحوش الرئيسي، ولكنه سرعان ما يلاحظ وجود بيوت عدة أخرى وراء وعلى جانبي المسكن الرئيسي. وكانت هذه البيوت مبنية أيضاً بالحجر الأصفر ومن طابق واحد، ويصلها بالممر الرئيسي ممرات مسقوفة عرشت عليها النباتات المتسلقة. ويعقب أخاديد الطريق ممر مغطى بالحصى ينحني متسعاً ليشكل فسحة دائرية لتوقف العربات على جهة واحدة من المنزل الرئيسي، قبل أن يختفي عن النظر منحدراً إلى حيث تجري نشاطات دروغيدا الحقيقية: الحظائر، والاسطبلات، وأبنية جزّ الأغنام ومخازن الحبوب.

كان الأب رالف يفضل شخصياً أشجار الفلفل العملاقة التي كانت تظلل كل هذه الأبنية الخارجية ونشاطاتها، على أشجار الصمغ. فأشجار الفلفل كانت كثيفة وأوراقها خضراء شاحبة تعج بالحياة من أصوات النحل. وكان هذا النوع من النباتات الكسولة هو الوحيد الملائم لهذا الأقليم المنعزل في داخل البلاد.

عندما أوقف الأب رالف سيارته وبدأ يجتاز المرج ، كانت الخادمة تنتظره على الشرفة الأمامية ، بوجهها المغطى بالنمش ، وابتسامتها العريضة .

ــ صباح الخير يا ميني .

ــ آه يا أبت ، كم أنا سعيدة برؤيتك في هذا الصباح الجميل .

أجابت الخادمة بلهجتها الايرلندية الواضحة وإحدى يديها تفتح الباب على سعته بينما مدت اليد الأخرى لتتناول قبعة الكاهن المهلهلة والتي لا تشبه لا من قريب ولا بعيد قبعة كاهن .

وتوقف في الردهة المعتمة ذات الأرض المرصوفة بالرخام ، والمدرج ذي الأفريز النحاسي ، وانتظر حتى عادت ميني وأحنت له برأسها وعندئذ دخل إلى قاعة الاستقبال .

كانت ميري كارسون تجلس في مقعدها المريح أمام نافذة مفتوحة ترتفع حتى السقف ، ولم تكن تبدو آبهة بالهواء البارد الذي كان يدخل من النافذة . وكانت كتلة شعرها الأحمر لا تزال تتوهج كما كانت في أيام صباها . ورغم أن بشرة وجهها القاسية المنمشة كانت قد تغطت ببقع بنية إضافية لتقدمها في السن ، فلم تكن قد تجعدت إلا قليلاً ، وهذه التجاعيد الخفيفة كانت منتشرة على

الخدين في شبكة ناعمة من الخطوط التي تحيط بانتفاخات خفيفة تذكر بدثار مدرّز. وأما الدلائل الوحيدة على طبعها العنيد فقد كانت عبارة عن أخدودين عميقين يمتدان من كل جهة من أنفها الروماني وحتى زاويتي فمها، وعن النظرة المتحجرة في عينيها الزرقاوين الشاحبتين.

واجتاز الأب رالف السجادة «الأوبيسون» بصمت، وقبّل يد السيدة وكانت هذه الحركة تناسب جيداً رجلاً بطوله وقامته ورشاقته، وخاصة أن رداءه الأسود البسيط كان يضفي عليه هيئة مَلَكية. والتمع فجأة في عيني ميري كارسون الجامدتين بريق شديد وقالت بلهجة تشبه الدلال:

ــ هل ترغب بقليل من الشاي يا أبت؟

ــ بكل طيبة خاطر، إلا إذا أردت أن تسمعي القداس أولاً.

قال هذا وهو يرتمي على أحد المقاعد في مواجهتها، ويضع ساقاً على ساق. وارتفع رداؤه الأسود قليلاً ليكشف عن بنطال ركوب قصير وجزمة تصل إلى أعلى الركبتين. وكان يلبسها إرضاء للفلاحين من رعيته:

ــ لقد حملت معي القربان المقدس لمناولتك. ولكن إذا أردت أن

تسمعي القداس فبإمكاني أن أجهز نفسي في دقائق. ولا يزعجني أن أبقى بلا طعام وقتاً أطول .

ــ إنك كريم جداً معي أيها الأب .

قالت بنوع من التعالي وهي واثقة تماماً من أن الكاهن يقدم احترامه ، ليس لشخصها ، وإنما لنقودها :

ــ أرجوك أن تتناول الشاي ، فالمناولة تكفيني .

ولم يظهر على وجهه شيء من امتعاضه . لقد علمته رعيته حتماً كيف يتمالك أعصابه ، ولو ساعده الحظ مرة واحدة لكي يخرج من البلية التي رماه بها سوء طبعه ، فلن يقع مرة أخرى في الخطأ نفسه . ولو لعب أوراقه جيداً فهذه السيدة العجوز ستكون الاستجابة لصلواته .

ــ إني اعترف يا أبت ، إن هذه السنة كانت مرضية جداً ، والحقيقة إنك راع مرضٍ أكثر بكثير مما كان الأب كيلي العجوز ، أرجو له أن يكتوي بنار جهنم .

وكان صوتها قاسياً ، منتقماً عندما لفظت هذه العبارة . وومضت عيناه وهو يرفع نظره إلى وجهها :

ــ يا عزيزتي السيدة كارسون ، إن شعورك هذا ليس شعوراً مسيحياً .

ــ ولكنه الحقيقة . لقد كان عجوزاً سكيراً أبله ، وأنا واثقة أن الله لن يحرق روحه أكثر مما أحرقت الكحول جسده .

وانحنت نحوه متابعة :

ــ إني أعرفك جيداً الآن ، وأظن أنه يحق لي أن أطرح عليك بعض الأسئلة ، أليس كذلك ؟ على كل ، أنت حر بأن تفعل ما تريد على أراضي دروغيدا فتجعل منها ملعبك الخاص ، وتتعلم إدارة الأعمال ، وتحسّن طريقة ركوبك للخيل ، وتهرب من تقلبات الحياة في « غيللي » وهذا بناء على دعوة مني طبعاً ، ولكني أظن أن من حقي أن أسمع بعض الأجوبة فما رأيك ؟

لم يكن يحب أن تذكّره السيدة كارسون بأن عليه الشعور بعرفان الجميل ، ولكنه كان ينتظر اليوم الذي ستظن فيه أنه مُلْكها وعندها تبدأ بوضع شروطها .

ــ طبعاً يا سيدة كارسون . لن أستطيع أن أعبر لك عن مقدار شكري لأنك سمحت لي بإدارة دروغيدا ، ولكل الهدايا التي قدمتها لي ، الخيول والسيارة ...

ــ كم عمرك ؟

سألت دون أن تدعه يتابع .

ـــ ثمانية وعشرون عاماً .

ـــ أصغر مما كنت أظن . ومع ذلك فإنهم عادة لا يبعثون بكهنة مثلك إلى مناطق مثل غيللي ، ما الذي فعلته حتى جعلتهم يرسلونك إلى هذه الأرض المنفية في طرف العالم ؟

ـــ لقد شتمت الأسقف . قال بهدوء وهو يبتسم .

ـــ إنك قادر على عمل كهذا . ولكني لا أظن أن بمقدور كاهن مثلك ، يتمتع بكل هذه المواهب أن يعيش سعيداً في مكان مثل غيللانبون .

ـــ هذه هي مشيئة الله .

ـــ كل هذا هراء. أنت هنا بسبب أخطاء بشرية ... خطؤك وخطأ الأسقف ، البابا وحده لا يخطيء . أنت في غيللي بعيد كل البعد عن محيطك الطبيعي ، وكلنا نعلم هذا ، وهذا لا يعني إننا لسنا ممتنين لوجود شخص مثلك بيننا ، فهذا بالنسبة لنا تغيير جديد ينسينا نوعاً ما الكهنة الطفيليين الذين يرسلوهم عادة . وإما مكانك الطبيعي فهو في أروقة السلطة الكنسية ، وليس هنا بين الخيول والخرفان ، إنك ستبدو رائعاً بلباس الكردينالية الأحمر .

ـــ أخشى ألا يكون هناك مجال لهذا ، فإني لا أعتبر غيللانبون مركز اهتمام المبعوث البابوي ، وقد كان من الممكن أن أقع في وضع أسوأ ، ولكنك أنت هنا ، وكذلك دروغيدا .

وتلقت الإطراء المبالغ عمداً بالشعور نفسه الذي دفع الأب إلى قوله ، مستمتعة بوسامة الكاهن ومجاملته وتيقظه ، وحدة ذهنه . بإمكانه أن يصبح كاردينالاً رائعاً ، فهي لا تذكر أنها رأت طوال حياتها رجلاً بوسامته عرف كيف يستخدم هذه الوسامة . لا بد أنه مدرك لسحره . هذه القامة الطويلة ، وهذا الجسد المتناسق ، وخطوط وجهه الارستقراطية الدقيقة . والطريقة التي صيغت منها عناصر الجمال هذه ، تشير إلى أن الخالق قد أغدق على هذه التحفة الرائعة عناية فائقة لا يغدقها إلا على القليل من مخلوقاته .

كان يبلغ حد الكمال ، بدءاً من أطراف شعره المجعد الناعم ، إلى لون عينيه الأزرق الآخاذ وحتى قدميه ويديه الصغيرتين الرشيقتين . لا بد أنه مدرك تماماً لما يملكه ، ومع ذلك فقد كان محاطاً بنوع من اللامبالاة أو التحفظ ، مما جعلها تشعر أنه لم ولن يكون عبداً لمظهره ، فهو قد يستخدمه ليحصل على ما يريد إذا كان هذا ينفعه دون أي وخز للضمير ، ولكن دون أن يكون مغرماً

به، وكما لو كان يحمل بعض الاحتقار للذين يتأثرون بهذا المظهر. وكانت مستعدة لأن تدفع أي شيء كي تعرف ما الذي جرى في حياته السابقة فجعل منه ما هو عليه.

غريب كم هناك من كهنة بوسامة أدونيس وبجاذبية دون جوان! فهل اختار هؤلاء يا ترى حياة العزوبية ليهربوا من النتائج؟

ــ لماذا تتحمل الحياة في غيللانبون؟ لماذا لا تترك حياة الكهنوت بدلاً من تحملها؟ فبالمواهب التي تمتلكها يمكنك أن تكون غنياً وقوياً في أي ميدان. ولا تحاول أن تقنعني أن فكرة السلطة لا تغريك.

فرفع عينيه وقال:

ــ يا سيدتي، العزيزة، أنت كاثوليكية، وأنت تعلمين أن نذوري مقدسة ولا أستطيع إنكارها، وسوف أبقى كاهناً حتى مماتي.

فشخرت وهي تطلق ضحكتها:

ــ هيا، هيا! هل تعتقد حقاً أنك إذا تراجعت عن نذورك فإنها سوف تجري وراءك بالسياط والصواعق والكلاب المتوحشة والرصاص؟

ــ كلا بالطبع، كما أني لا أعتقد أنك غبية لدرجة تجعلك تظنين أن الخوف من العقاب هو الذي يبقيني في ثوب الكاهن.

ــ آه، لا تغضب أيها الأب دو بريكاسار. وما الذي يبقيك مكبلاً إذن؟ ما الذي يجبرك على تحمل الغبار والحر وذباب غيللي؟ وربما دام عقابك هذا مدى الحياة!

وأظلمت العينان الزرقاوان لحظة، ولكنه ابتسم بإشفاق:

ــ إنك مشجعة جداً، أليس كذلك؟ وانفرجت شفتاه، ونظر إلى السقف متنهداً:

ــ لقد نشأت منذ صغري وترعرعت على هذه الفكرة: إنني سأصبح كاهناً. ولكن هناك أكثر من ذلك. كيف أستطيع أن أفسره لامرأة؟ أنا يا سيدة كارسون.. وعاء، وأحياناً أشعر أني مليء بالله، ولو كنت أفضل مما أنا عليه لما شعرت أبداً بلحظات فراغ. وهذا الامتلاء، هذا الاتحاد بالله ليس قصراً على مكان معين. إنه يحدث سواء أكنت في غيللانبون أو في قصر الأسقف. ولكن من الصعب تعريفه لأنه سرّ عظيم حتى بالنسبة للكهنة. إنه استملاك إلهي لا يمكن لرجل آخر أن يعرفه. هذا كل ما في الأمر، ربما. ولكن أن أتركه؟! لا أستطيع.

ــ إنه إذن نوع من السلطة، أليس كذلك؟ لماذا يعطى للكهنة

فقط إذن؟ ما الذي يجعلك تعتقد أن مجرد مسح «رجل» خلال احتفال طويل مضن كاف لمنحه هذه السلطة!؟

وهزّ الكاهن رأسه:

ـ إن الأمر يستغرق سنوات طويلة من التفكير قبل التوصل إلى سيامة كاهن. إنه تطور بطيء يقود إلى حالة نفسية تفتح الوعاء ليستقبل الله. إنه شيء «يُكتسب». إنه يُكتسب كل يوم. وهذا هو الهدف من النذور، هل تفهمين؟ ألّا يقف بين الكاهن ودعوته أي أمر دنيوي... لا حب امرأة، ولا حب المال ولا النفور من إطاعة أوامر رجال آخرين. الفقر ليس شيئاً جديداً بالنسبة لي، فأنا لم أولد في عائلة ثرية، والعفة أقبلها دون أن أجد صعوبة في تحملها، أما الطاعة؟ إنها بالنسبة لي أصعب الثلاثة. ولكني أطيع، لأني إذا ما اعتبرت شخصي أكثر أهمية من وظيفتي التي هي أن أكون وعاء يستقبل الله، فأنا هالك إذن. إني أطيع، وإذا دعت الضرورة فأنا مستعد أن أتحمل غيللانبون كعقوبة مدى الحياة.

ـ إذن فأنت أحمق. أنا أيضاً أظن أن هناك أشياء أخرى أكثر أهمية من الحب والعشاق، أما أن يكون الإنسان وعاء لاستقبال

الله ، فذلك ليس بين هذه الأشياء المهمة . عجباً . لم أكن أظن أنك تؤمن بالله بمثل هذه الحرارة . كنت أظن أن الشك ربما كان يسكنك .

ــ إني أشك . ومن هو الإنسان المفكر الذي لا يشك ؟ ولهذا فإني أشعر أحياناً بالفراغ .

ونظر وراءها إلى شيء لا يمكنها رؤيته وتابع :

ــ أترين شيئاً ؟ أظن إني مستعد أن أتخلى عن كل طموحاتي ورغباتي إذا كان ذلك يجعل مني كاهناً كاملاً .

ــ إن الكمال في كل شيء مضجر بشكل لا يحتمل . أنا شخصياً أفضّل لمسة صغيرة من النقص .

فضحك ونظر إليها بإعجاب يخالطه شيء من الحسد . إنها امرأة رائعة حقاً .

كانت قد فقدت زوجها منذ ثلاثة وثلاثين عاماً ، وتبعه ابنها الوحيد ، وقد مات طفلاً . وبسبب وضعها الخاص في مجتمع غيللانبون فقد رفضت كل عروض الزواج التي قدمها لها ذكور طموحون من معارفها . وهي كأرملة مايكل كارسون كانت ملكة بلا منازع ولكنها لو رضيت بالزواج من أحد طالبيها لكان عليها

عندئذ أن تسلمه الزمام في كل شيء، ولم يكن من مفاهيم ميري كارسون للحياة أن تلعب دوراً ثانوياً. وهكذا فقد رفضت لذات الجسد مستعيضة عنها بصولجان السلطة، وكان من غير المعقول أن تتخذ لها عشيقاً لأن استقبال غيللانبون للشائعات والأوقاويل كان كاستقبال شريط كهربائي للتيار، ولم يكن من ميزاتها أن تبرهن عن ضعفها البشري.

ولكنها الآن قد أصبحت متقدمة في السن وأصبحت رسمياً ارفع من تجارب الجسد. وطالما أن الكاهن الشاب يقوم بواجباته نحوها بانتظام فبإمكانها أن تكافئه ببعض الهدايا، كالسيارة مثلاً، دون أن يبدو تصرفها سيّئاً أو غير لائق.

ولقد بقيت طوال حياتها دعامة راسخة للكنيسة، فتحملت كما يجب رعيتها وقائدها الروحي حتى عندما كان الأب كيلي يصل إلى القداس مترنحاً من السكر. ولم تكن هي الوحيدة التي تشعر بنفسها مشدودة بالمحبة تجاه خلف الأب كيلي، فقد كان الأب رالف دو بريكاسار شعبياً جداً وعن استحقاق، بين كل أعضاء قطيعه، فقراء أم أغنياء. وحين لم يكن بإمكان رعاياه البعيدين أن يأتوا إلى غيللي ليروه، فقد كان يذهب إليهم بنفسه،

وقبل أن تعطيه ميري كارسون سيارته كان يتنقل على الفرس. وكان صبره ودماثته قد أكسباه استلطاف بعضهم والمحبة الصادقة من البعض الآخرين. فمارتن كنغ وبوغيلا قد جددوا له أثاث بيته دون نظر للتكاليف، بينما قدم له دومينيك أو بروك من ديبان ـــ ديبان مدبرة للبيت وكان يدفع معاشها بنفسه.

وهكذا فقد كان بإمكان ميري كارسون أن تتمتع برفقة الأب رالف وهي جالس بأمان على عرشها محتمية وراء عمرها ووضعها الاجتماعي. وكان يحلو لها أن تختبر براعتها، متحدية رجلاً يملك ذكاء مثل ذكائها، وكانت تفرح بالكشف عن نواياه رغم أنها لم تكن واثقة أبداً من صحة ما تكشفه.

ـــ «لنعد إلى ما كنت تقوله بخصوص غيللي، عن أنها ليست تماماً مركز اهتمام المبعوث البابوي». قالت هذا وهي تسترخي في مقعدها العميق. «ما الذي تظنه كفيلاً بهزّ هذا السيد المحترم بشكل يدفعه إلى جعل غيللي محور العالم؟»

ـــ من الصعب الإجابة على هذا. صنيع جليل ربما؟ انقاذ آلاف الأرواح دفعة واحدة، أو قدرة فجائية على شفاء الأعرج والأعمى! ولكن عهد المعجزات قد ولّى.

ـــ إني أشك في ذلك . كل ما في الأمر هو أن الرب القدير قد غيّر من أساليبه ، فهو الآن يستخدم النقود .

ـــ إنك شديدة التهكم . ربما أني لهذا السبب استلطفك هكذا يا سيدة كارسون .

ـــ اسمي ميري ، أرجوك ناديني بـ « ميري » .

ودخلت ميني تدفع أمامها عربة الشاي بينما كان الأب دو بريكاسار يقول :

ـــ شكراً يا ميري .

وقدمت السيدة كارسون لضيفها الكعك وقطع الخبز المحمص ، ثم تنهدت وقالت :

ـــ يا أبت العزيز ، هذا الصباح أريد منك أن تصلي لأجلي بشكل خاص .

ـــ إني أشك بمقدرتي على الصلاة لأجلك أكثر مما أفعل عادة ، ولكني سأحاول .

ـــ آه ، إنك ساحر . أو ... ربما لم تكن ملاحظتك بريئة كما تبدو ؟ إنني عادة لا أكترث بما هو واضح ، ولكني لست واثقة من أن وضوحك لا يخفي شيئاً آخر أعمق ؛ مثل الجزرة أمام الحمار .

ماهو رأيك بي بالضبط أيها الأب دو بريكاسار؟ إني لن أعرف الجواب أبداً. فلن يصل بك عدم اللياقة إلى درجة أن تخبرني عن رأيك بي، أليس كذلك؟ هذا رائع، رائع حقاً... ولكن عليك أن تصلي من أجلي. فأنا عجوز ولقد أثمت كثيراً.

ــ إن الشيخوخة تزحف نحونا جميعاً، وأنا أيضاً قد أثمت.

وأطلقت ضحكة صغيرة جافة، غضباً عنها:

ــ إني أدفع غالياً لكي أعرف ماذا أخطأت، نعم، نعم.

وصمتت لحظة ثم غيرت الموضوع:

ــ لقد فقدت رئيس وكلاء أعمالي.

ــ ثانية؟

ــ خمسة في العام الماضي. لقد أصبح من الصعب أن تجد شخصاً تثق به.

ــ حسناً، إن الشائعات تقول أنك لست بكل ذلك الكرم، كما أنك لست عادلة جداً مع عمالك.

ــ «إنك وقح جداً». وشهقت وهي تضحك. «من الذي اشترى لك سيارة جديدة تماماً حتى لا تضطر للتنقل على ظهر جواد؟».

ـــ آه ، ولكن انظري كم أصلّي بحرارة من أجلك !
ـــ لو كان مايكل يملك نصف ذكائك وخلقك ، لربما كنت قد تمكنت من حبه .

قالت هذا بجفاء وقد انقلبت سحنتها فأصبحت تنقط حقداً :

ـــ هل تظن أن لا أقرباء لي ولا أنسباء في العالم وإني سأضطر إلى ترك أموالي وأرضي للكنيسة الأم ؟ أهذا ما تظن ؟
ـــ ليس عندي أية فكرة . أجاب بهدوء وهو يصب مزيداً من الشاي .
ـــ في الحقيقة أن لي أخاً وله عائلة كبيرة ومزدهرة بالصبيان .
ـــ يالك من محظوظة . أجاب بجدية .

ـــ عندما تزوجت لم أكن أملك شيئاً من متاع الدنيا . وكنت أعلم أني لن أحصل على زوج جيد في إيرلندا حيث كان على المرأة أن تكون من عائلة نبيلة وعريقة حتى تقع على زوج غني . وهكذا عملت بصبر حتى وفرت أجرة سفري إلى بلاد يسهل فهيا تصيد الرجال الأغنياء ، وكل ما كنت أملك عندما وصلت إلى هنا كان جمالي وقامتي وذكاء أكبر مما تتوقع أن تجد لدى

امرأة، ولكن هذا كان كافياً للإيقاع بمايكل كارسون الذي كان غنياً مغفلاً والذي شغف بي حتى آخر أيام حياته.

ــ وأخوك؟ عاجلها بالسؤال وهو يظنها تراوغ.

ــ إن أخي يصغرني بأحد عشر عاماً، وهذا يعني أنه الآن في الرابعة والخمسين. نحن الوحيدان اللذان ما زالا على قيد الحياة. وأنا أكاد لا أعرفه فقد كان صغيراً جداً عندما تركت غالوي. وهو يقيم حالياً في نيوزيلاندة، وقد هاجر إليها ليجمع ثروة ولكنه لم يفلح. وعندما جاء أحد العمال أمس يخبرني أن وكيل الأراضي آرثر تيفيو قد حزم حقائبه وذهب، فكرت فجأة ببادرايك. فأنا قد أصبحت عجوزاً لا أمل بعودة شبابي، ولا عائلة حولي، كما خطر لي أن بادي خبير بالأرض ولكنه لا يملك المال الكافي لاقتنائها. فلم لا أكتب له وأطلب منه أن يأتي مع أولاده؟ وعندما أموت سيرث أرض دروغيدا وشركة «الميشار»، بما أنه هو أقرب أقربائي الأحياء؛ هذا إذا أسقطت من اعتباري بعض أولاد العم المجهولين في إيرلندا.

وابتسمت متابعة:

ــ لم التأجيل؟ من الأفضل أن يأتي الآن من أن يأتي بعد موتي،

وهكذا يعتاد على تربية الأغنام على أرض السهول السوداء، وأنا واثقة أن تربية الأغنام في نيوزيلاندة مغايرة تماماً. وهكذا يستطيع بعد موتي أن يحتل مكاني دون صعوبة.

وأحنت رأسها وهي تراقب الأب رالف عن كثب.

وأجاب هذا:

ــ عجيب أنك لم تفكري بذلك من قبل.

ــ لقد فكرت. ولكني كنت أظن حتى عهد قريب أن آخر شيء أرغب في رؤيته هو جماعة من الصقور تنتظر بقلق أن ألفظ آخر أنفاسي. ومؤخراً بدأ يوم رحيلي يبدو لَي قريباً وأخذت أشعر... آه، لست أدري. قد يكون شيئاً لطيفاً أن أجد نفسي محاطة بأشخاص من لحمي ودمي.

ــ ما الذي يحدث؟ هل تشعرين بأنك مريضة؟ سأل بسرعة وقد ارتسم في عينيه قلق حقيقي.

فرفعت كتفيها بلا مبالاة قائلة:

ــ إنني في صحة ممتازة، ولكن الإنسان متى بلغ الخامسة والستين فإنه يحس بنوع من الإنذار الداخلي، ففي هذه السن لا تعود الشيخوخة ظاهرة «ستحدث»، بل تكون قد حدثت فعلاً.

ـــ إني أفهم قصدك، وأنت على حق. وسوف يروق لك جداً سماع بعض الأصوات في المنزل.

ـــ آه. ولكنهم لن يقيموا هنا، بل في بيت رئيس الوكلاء، قرب الجدول، بعيداً عني. وأنا لا أحب الأطفال ولا أصواتهم.

ـــ ألا تعتقدين أن هناك بعض الخسة في معاملة أخيك بهذه الطريقة يا ميري؟ رغم الفارق بين عمريكما.

ـــ إنه سيرث. دعه يستحق هذا الميراث. قالت بجفاف.

○

قبل عيد ميلاد ميغي التاسع بستة أيام، وضعت فيونا كليري صبيّها السادس وهي تعتبر نفسها محظوظة، إذ كانت قد أجهضت مرتين قبله. وفي التاسعة كانت ميغي قد أصبحت كبيرة كفاية وأصبح بإمكانها مساعدة أمها مساعدة فعلية. أما «في» فكانت قد أصبحت في الأربعين وكان من الصعب عليها أنت تنجب أطفالاًبدون ألم يهدّ من عزيمتها تماماً. وسمّي الطفل «هارولد» وكان رقيق الصحة.

ولأول مرة في تاريخ العائلة أخذ الطبيب يأتي بشكل منتظم

إلى البيت. وبما أن المصائب لا تأتي إلا دفعة واحدة فقد تهافتت البلاوي على عائلة كليري. فنتيجة الحرب لم تكن انفجاراً اقتصادياً بل انهياراً زراعياً، وأصبح من الصعب جداً الحصول على عمل.

وذات يوم وكانوا قد انتهوا من تناول العشاء إذا بالساعي العجوز آنغوس ماك ويرتر يصل ليسلمهم برقية. وفتحها بادي ويداه ترتعشان، فالبرقيات لا تنقل إلا أخبار السوء. وتجمع الصبيان حوله كلهم ماعدا فرانك الذي كان قد أخذ فنجان الشاي وغادر المائدة. وقد لاحقته «في» بنظراتها ثم التفتت نحو بادي الذي كان يتمتم وسألته:

ـــ ما الخبر؟

كان بادي ينظر إلى الورقة وكأنه يرى الموت بعينه:

ـــ ارشيبالد لا يريدنا.

وضرب بوب طاولة بقبضته بعنف، كان ينتظر بفارغ الصبر اليوم الذي سيذهب فيه مع والده ليتعلم جزّ الأغنام، وكان من المفروض أن يبدأ العمل في خراف ارشيبالد.

ـــ لماذا ضربنا هذه الضربة القذرة يا أبي؟ كان من المفروض أن نباشر العمل غداً .

ـــ إنه لم يقل لماذا يا بوب ، ولكني أظن أن متعهداً أجرب آخر قد سبقنا إليه .

ـــ آه يا بادي، قالت « في » وهي تتنهد .

وأخذ هال الصغير يصرخ في سلته بقرب الفرن وقبل أن تتحرك « في » من مكانها ، كانت ميغي قد وقفت ، وكان فرانك قد عاد إلى الوقوف على الباب من الداخل والفنجان بيده وهو ينظر إلى والده بانتباه .

ـــ « حسناً . أظن أن علي أن أذهب لمقابلة ارشيبالد » قال بادي أخيراً ، «لقد فات الأوان للبحث عن مكان آخر للجزّ لهذا الموسم ، ولكني أعتقد أن أرشيبالد مدين لي بتفسير لتصرفه هذا ، وكل ما آمله الآن هو أن أستطيع العمل في حلب المواشي حتى يبدأ موسم الجزّ عند « ويللوبي » في تموز القادم . » .

وسحبت ميغي قطعة مربعة بيضاء من قماش المناشف من كومة عالية من القطع المشابهة كانت موضوعة قرب الفرن لتدفئتها ، ثم مدتها بعناية على طاولة المطبخ ، ورفعت الطفل الباكي

من سلته، والتمع الشعر الأحمر الذي كان لا يزال خفيفاً على رأس الطفل الصغير بينما كانت ميغي تغير له فوطه بخفة ومهارة لا تقل عن مهارة « في ».

ــ « الأم الصغيرة »، قال فرانك محاولاً إثارة غضبها.

ــ « لست بالأم الصغيرة، أنا أساعد أمي فقط » أجابته بسخط.

ــ « إني أعلم هذا »، قال برقة، « أنت فتاة طيبة يا ميغي الصغيرة ».

وأخذ يشد على شريط التافتا الأبيض الذي كان يمسك شعرها حتى أسقطه عن رأسها.

وارتفعت العينان الرماديتان إلى وجهه بولع، وفوق رأس الطفل المتأرجح، كانت ميغي تبدو بعمر أخيها الكبير، وربما أكبر. وشعر بألم في صدره وهو يرى المسؤولية التي تتحملها أخته في السن التي يجب ألّا تعتني فيها إلا بطفلتها الوحيدة انييس الملقاة مهملة في غرفتها. ولو لم يكن من أجلها ومن أجل أمه لكان قد رحل منذ زمن طويل. ونظر بغضب إلى والده، مبعث هذه الحياة الجديدة (الطفل) التي خلقت كل هذا التشويش في البيت. إنه يستحق أن يفقد عمله.

ومن الغريب أن ميغي وأخوته الآخرين لم يكونوا قد استحوذوا على تفكيره عند مجيئهم إلى الحياة، كما فعل هذا الطفل الجديد. ففي هذه المرة، وعندما بدأ بطن «في» يكبر، كان قد أصبح هو نفسه رجلاً بإمكانه أن يتزوج وينجب أولاداً. وقد كان الجميع ما عدا ميغي، محرجين من هذا الوضع وخاصة أمه. وكانت نظرات الأولاد المختلسة تجعلها تنطوي على نفسها كأرنب مذعور ولم يكن بإمكانها أن تقابل نظرات فرانك ولا أن تخفي الخجل في عينيها. وكان فرانك يردد لنفسه للمرة الألف، وهو يتذكر الصراخ والأنين الرهيبين اللذين كانا يتصاعدان من غرفة أمه ليلة ولادة هال، إنه لا يجب على امرأة أن تمر بهذه التجربة. وبما أنه كان يعتبر راشداً، فلم يطلب منه أحد حينها أن يغادر البيت كبقية إخوته. حقاً إن والده نال جزاءه العادل بفقدانه لعمله. لو كان أقلّ أنانية مما هو عليه لما ترك زوجته وحدها وهي في حالتها تلك.

كان رأس أمه يلمع كالذهب تحت ضوء المصباح الكهربائي الجديد، وبدا له وجهها جميلاً بشكل لا يوصف وهي تنظر إلى بادي في الطرف الآخر من المائدة. كيف أمكن لامرأة بمثل هذا الجمال وهذه الأصالة، أن تتزوج من جزّاز متجول

خرج من أوحال غالوي؟ لقد دمرت نفسها كما أضاعت سدى كل الخزف وأغطية الطاولات المطرزة والسجادة الفارسية في صالة الاستقبال التي لم تطأها قدم، لأن هذه الأشياء لم تكن تتماشى وذوق زوجات أقران بادي، وكانت «في» تجعلهن يشعرن بأن أصواتهن العالية مبتذلة جداً، وتثير دهشتهن عندما تضع أمامهن أكثر من شوكة على المائدة.

أحياناً كانت تدخل يوم الأحد إلى غرفة الاستقبال، وحدها، وتجلس أمام البيانو الصغير قرب النافذة، وتعزف رغم أنها كانت قد فقدت مرونة أصابعها ولم يعد بإمكانها أن تعزف إلا أبسط المقطوعات، إذ أنها لم تكن تملك الوقت الكافي للتمرن. وكان يجلس تحت النافذة بين أزهار الأقحوان والزنبق، ويصغي إليها مغمضاً عينيه. وفي تلك اللحظات كان، وكأنما في حلم، يتخيل أمه وهي ترتدي ثوباً طويلاً من الدانتيلا الزهرية اللون وتجلس إلى البيانو في غرفة عاجية فسيحة في وسط الشموع والزينة. وعندها كان يتمنى أن يبكي، ولكنه لم يعد يبكي. لم يبك منذ ذلك اليوم الذي أرجعته فيه الشرطة إلى المنزل.

أعادت ميغي الطفل إلى سلته ثم ذهبت تقف بقرب أمها.

وهي أيضاً حياة أخرى تضيع سدى. الوجه الحساس الأبي نفسه. كان فيها شيء من فيونا، شيء في يديها وفي جسدها الفتيّ. سوف تشبه أمها كثيراً، عندما تصبح امرأة. ومن سيتزوجها؟ جزّاز إيرلندي رعاعي آخر، أو ثور جلف من أحد مزارع واهيني؟ كانت تستحق أكثر من هذا ولكنها لم تخلق لأكثر من ذلك. لم يكن هنالك من سبيل للخروج من هذا الوضع، هذا ما كان يقوله للجميع، وكل سنة تمر كانت تؤكد صحة هذا القول.

وفجأة شعرت ميغي و«في» بنظرته المثبتة عليهما فاستدارتا سوية مبتسمتين له بهذا الحنان الخاص الذي تحتفظ به النساء للكائن الذي أحببن أكثر من أي انسان آخر في حياتهن. ووضع فرانك الفنجان على الطاولة وخرج لإطعام الكلاب متمنياً لو كان بإمكانه أن يبكي أو أن يقتل أحداً، أو أن يفعل أي شيء يخفف من هذا العذاب.

○

بعد أن تلقى بادي برقية ارشيبالد بثلاثة أيام، وصلت

رسالة ميري كارسون. وكان قد فتحها في مركز البريد بواهيني عندما كان يأخذ بريده، وعاد إلى البيت وهو يقفز كالأطفال.

ــ سوف نذهب إلى استراليا.

صاح وهو يلوح بورقات الرسالة الثمينة أمام وجوه أفراد عائلته المشدوهين. وساد الصمت بينما توجهت إليه الأبصار؛ وكانت عينا «في» تعبران عن صدمة كبيرة وكذلك عينا ميغي، أما الصبيان فكانت عيونهم تشع بالبهجة، وخاصة فرانك الذي كانت عيناه تتألقان.

ــ «ولكن يا بادي، ما الذي دفعها إلى أن تفكر بك بعد كل هذه السنوات؟» سألت «في» بعد أن قرأت الرسالة. «إن نقودها ليست جديدة عليها، ولا وحدتها أيضاً. إني لا أتذكر أنها تبرعت يوماً ما بمساعدتنا».

ــ «يبدو أنها خائفة من الموت وحيدة» أجاب بادي ليطمئن «في» ويطمئن نفسه. «لقد رأيت ما كتبته. إنها تقول: لم أعد شابة، وأنت وأولادك ورثائي. أظن أن علينا أن نتقابل قبل أن أموت، ولقد حان الوقت لتتعلم كيف تدير ميراثك. إني أنوي أن أجعلك رئيس القيمين على أملاكي، وهذا سيمنحك خبرة

ممتازة ، وأما أولادك ، فمن بلغ منهم سناً تؤهله للعمل ، يمكنه أن يعمل كوكيل أيضاً . وهكذا فإن دروغيدا ستصبح مؤسسة عائلية تديرها العائلة دون أية مساعدة من الغرباء » .

وسألته « في » :

ــ هل ذكرت إذا كانت سترسل لنا نفقات السفر إلى استراليا ؟

فتصلب ظهر بادي وهو يجيب :

ــ لن يخطر ببالي مطلقاً أن أتنازل وأطلب منها هذا . يمكننا الذهاب إلى استراليا دون استجدائها ، ولقد وفرت ما فيه الكفاية لسفرنا .

ــ أظن أن من واجبها أن تدفع لنا نفقات سفرنا .

أصرت « في » بعناد مما أدهش الجميع إذ لم يكن من عادتها أن تبدي رأيها غالباً .

وأضافت :

ــ لماذا تتخلى عن حياتك هنا وتسافر لتشتغل من أجلها معتمداً على وعد كتب في رسالة ؟ إنها لم تحرك إصبعاً من أصابعها لتساعدنا فيما مضى ، وأنا لا أثق بها . كل ما أتذكره هو قولك إن القرش لا يخرج من يدها إلا صدئاً . على كل يا بادي ، لا

يمكنك القول أنك تعرفها جيداً، فهناك فرق شاسع في العمر بينكما، ولقد ذهبت إلى استراليا قبل أن تبلغ أنت سن الذهاب إلى المدرسة.

ــ وما دخل هذا بالذي نحن فيه؟ وعلى افتراض إنها بخيلة، فهذا أفضل، إذ أن معناه أننا سنرث أكثر. كلا يا «في»، سنذهب إلى استراليا، وسندفع نفقات سفرنا بنفسنا.

ولم تجب «في» ولم يظهر على تعابير وجهها ما ينبىء إن كانت قد جرحت أم لا بسبب رفض بادي القاطع لرأيها.

وصاح بوب وهو يشد على كتفي والده:

ــ هيه، هيه، نحن ذاهبون إلى استراليا.

أما جاك وهوغي وستو، فقد أخذوا في الرقص بينما كان فرانك يبتسم وعيناه لا تريان شيئاً مما يجري أمامه، فقد كان سارحاً في مكان بعيد بعيد. لكن «في» وميغي فقط كانتا محتارتين قلقتين، وكانتا تأملان ألّا يحصل شيء من هذا لأن حياتهما لن تكون في أستراليا أسهل منها هنا، إنها ستكون الحياة نفسها ولكن في ظروف غريبة.

وسأل ستوارت :

ـــ أين تقع غيللانبون ؟

وخَرج الأطلس القديم المغبر من مكانه، فرغم فقر آل كليري، كان عندهم عدة رفوف مليئة بالكتب، وراء مائدة الطعام في المطبخ. وانكبّ الصبية على الصفحات الصفراء حتى وجدوا « ويلز الجنوبية الجديدة »، ولأنهم كانوا قد اعتادوا على المسافات الصغيرة في نيوزيلاندة، فلم يخطر ببالهم أن يستشيروا مقياس الرسم في أسفل الخريطة على اليسار، وقرروا بثقة أن « ويلز الجنوبية الجديدة » كانت بمساحة « الجزيرة الشمالية » من نيوزيلاندة. أما غيللانبون فها هي في أعلى الخريطة في الزاوية اليسرى منها، وتبعد عن « سيدني » كما تبعد واهيني عن أوكلاند تقريباً. هذا ما بدا لهم رغم أن النقاط التي تشير إلى القرى والمدن كانت متباعدة أكثر من هذه التي تظهر على خارطة الجزيرة الشمالية.

وقال بادي :

ـــ هذا الأطلس قديم جداً. إن استراليا مثل أمريكا، فهي تتقدم بخطوات عملاقة وأنا متأكد أنه بها حالياً مدناً أكثر بكثير مما نرى على هذه الخريطة.

كانوا سيسافرون بالطبع على الدرجة الثالثة من السفينة ، وبما أن الرحلة لا تدوم إلا ثلاثة أيام ، فلم يكن الأمر يبدو لهم سيئاً جداً ، وهذه السفرة ليست كالابحار من انجلترا إلى نيوزيلاندة حيث كان المسافرون يقضون أسابيع وأسابيع في البحر . أما بالنسبة لأمتعتهم فلم يكن بإمكانهم أن يصطحبوا إلا الثياب والبياضات والخزفيات ، ثم أدوات المائدة والمطبخ ، وهذه الرفوف الثمينة من الكتب ، بينما كان عليهم أن يبيعوا أثاث البيت لتغطية نفقات نقل الحوائج التي كانت فيونا مصرة على أخذها معها كالبيانو والسجاد ومقاعد غرفة الاستقبال . وقد قال بادي لفيونا بحزم :

ــ لن نتركهم ، ولا أريد أن أسمع شيئاً من هذا القبيل .

ــ هل تظن أننا نستطيع أن نتحمل نفقات نقلهم ؟

ــ طبعاً . أما بالنسبة لبقية الأثاث ، فميري تقول أنها تجهز لنا منزل رئيس الوكلاء ، وأنه يحتوي على كل ما يمكننا أن نحتاجه . إني مسرور لأننا لن نقيم مع ميري في بيتها .

ــ وأنا كذلك .

وذهب بادي إلى « وانغاني » ليحجز مقصورة نوم لثمانية

أشخاص في الدرجة الثالثة على السفينة «واهيني». غريب أن تحمل السفينة اسم أقرب مدينة إليهم: «واهيني».

كانت السفينة ستبحر في آخر شهر آب، ولهذا فمنذ أول ذلك الشهر بدأ كل منهم يفهم بوضوح أنهم مقدمون على مغامرة كبرى. كان عليهم أن يتخلصوا من الكلاب وأن يبيعوا العربة والأحصنة، وأن يحملوا الأثاث على عربة العجوز آنغوس ماك ويرتر لنقلها إلى وانغاني حيث كان ستباع بالمزاد. وأما أغراض فيونا، فقد وضعوها في صناديق خشبية مع الخزف والبياضات والكتب وكذلك أواني المطبخ.

ووجد فرانك أمه واقفة قرب البيانو الجميل القديم وهي تمرر يديها برفق على سطحه المتموج الوردي، وتنظر بشرود إلى ذرات الغبار الذهبية التي علقت برؤوس أصابعها.

وسألها فرانك:

ــ هل حصلت عليه منذ زمن طويل يا أماه؟

ــ نعم. وعندما تزوجت لم يأخذوا مني ممتلكاتي الشخصية: البيانو، والسجادة العجمية، والكنبة «لويس الخامس عشر»

وكذلك المقاعد والكتب. لم يكن هذا بالشيء الكثير ولكنه كان من حقي.

وشخصت عيناها الرماديتان الكئيبتان إلى اللوحة الزيتية المعلقة خلف فرانك، على الحائط، وعلى الرغم من أن ألوانها قد بهتت بمرور الزمن، فقد كانت لا تزال تمثل بوضوح امرأة ذهبية الشعر، ترتدي ثوباً وردياً من الدانتيلا، وله مئة وسبعة كشاكش.

ـــ «من كانت هذه؟ «سألها فرانك بفضول وهو يستدير «منذ زمن طويل وأنا أتسائل».

ـــ لقد كانت سيدة كبيرة.

ـــ حسناً، أظن أنها قريبتك، فهي تشبهك بعض الشيء.

ـــ «هي! قريبتي!» وكفّت عن تأمل اللوحة ونظرت إلى ابنها بسخرية. «يا إلهي! هل يبدو عليّ أن من الممكن أن يكون لي قريبة مثلها؟».

ـــ نعم.

ـــ إنك تهذي، فاستفق.

ـــ إني أتمنى لو تخبريني يا أماه.

فتنهدت وهي تغلق البيانو وتمسح الغبار الذهبي عن أصابعها.

ـــ ليس هناك شيء أخبرك به، لا شيء إطلاقاً. هيا وساعدني على وضع الأغراض في منتصف الغرفة كي يستطيع والدك أن يضعها في الصناديق.

كانت الرحلة كابوساً. فقبل أن تخرج السفينة «واهيني» من مياه «ويللينغتون»، كانوا قد أصيبوا جميعاً بدوار البحر، وبقوا على هذه الحالة طوال الرحلة وعلى مسافة ألف ومئتي ميل، والبحر هائج يصارع الرياح الشتوية. وأخذ بادي الصبيان إلى سطح السفينة وأبقاهم هناك رغم لسعات البرد القارس ورذاذ البحر، وكان يهبط من وقت لآخر ليلقي نظرة على النساء والطفل بينما يبقى الصبيان البؤساء على السطح تحت مراقبة بعض الناس الطيبين الذين تطوعوا بذلك. ورغم أن فرانك كان بحاجة كبيرة لتنشق الهواء النقي إلا أنه بقي في الأسفل لحراسة أمه وأخته. وكانت المقصورة صغيرة جداً، تفوح منها رائحة الزيت المعدني الكريهة الخانقة لأنه كانت تحت سطح الماء. وقرب المقدمة، كانت نبضات محرك السفينة على أشدها. وعندما ابتعدوا بضعة ساعات عن «ويللينغتون» شعر فرانك وميغي أن أمهم ستموت حتماً، وهرع أحد المضيفين مذعوراً ينادي الطبيب من الدرجة الأولى، فهزّ رأسه بتشاؤم:

ــ من حسن الحظ أن الرحلة قصيرة. قال هذا وطلب من الممرض أن يحضر بعض الحليب للطفل.

وحاول فرانك وميغي بجهد جهيد أن يطعما الطفل وهما يمسكان نفسيهما من التقيؤ، ولكنه لم يبد أية رغبة في الرضاعة. أما «في» فقد توقفت عن محاولة التقيؤ وغرقت في شبه غيبوبة ولم يعد بإمكانهم إيقاظها. وساعد المضيف فرانك على حملها ووضعاها على السرير المثبت بجدار السفينة حيث كان الهواء أنقى بقليل، ووضع فرانك فوطة أمام فمه لإيقاف أمواج القيء التي كانت تتصاعد إلى شفاهه وجلس بقربها على السرير يرفع عن وجهها خصلات الشعر الصفراء المشبعة بالعرق، وبقي جالساً هكذا ساعة بعد ساعة رغم تعبه، وكلما نزل بادي ليطمئن عليهم كان يرى فرانك جالساً يمسد شعر أمه بينما تكورت ميغي في المضجع الأكثر انخفاضاً مع هال وقد وضعت فوطة على فمها.

وقبل أن يصلوا إلى «سيدني» بثلاث ساعات، هدأ البحر فجأة وأصبح سطحه ساكناً كالزيت. وأخذ الضباب يزحف خلسة من القطب الجنوبي ويغلف السفينة العجوز. وبدا لميغي، التي كانت تسترد وعيها، أن السفينة تزأر بألم بعد الضربات العنيفة

التي تلقتها من كل صوب. ووسط الضباب اللزج تابعت السفينة تقدمها ببطء وخلسة كحيوان يتربص بفريسته إلى أن تصاعدت تلك الضجة الطويلة الصماء الرتيبة، آتية من مكان ما في أعلى السفينة. صوت وحيد ضائع حزين لا يوصف. ومن ثم ومن كل جهة حولهم، امتلأ الجو بهذا النعيق المحزن بينما كانوا يشقـون طريقهم كالشبح في مياه المرفأ المغطى بالضباب. ولم تنسى ميغي أبداً صوت صفارات الإنذار من الضباب. كان هذا أول لقاء لها مع استراليا.

○

وحمل بادي «في» على ذراعيه وغادر السفينة يتبعه فرانك حاملاً الطفل. وأخذت ميغي حقيبة بينما كان الصبيان يتعثرون وظهورهم ترزخ تحت الأثقال.

كانوا قد وصلوا إلى «بيرمونت»، والاسم لا يعني شيئاً لهم، في صباح ضبابي من شهر آب عام ١٩٢١، وكان هناك صف طويل من سيارات الأجرة متوقفة تحت ستار الرصيـف المعدني، وفتحت ميغي عينيها على سعتهما فهي لم تر في حياتها مثل

هذا العدد من السيارات في مكان واحد ودفعة واحدة. واستطاع بادي أن يكدس الجميع في سيارة واحدة وقد تطوع سائقها أن يقودهم إلى فندق «قصر الشعب».

ــ هذا هو المكان الذي يناسبكم يا صاحبي. إنه فندق للعمال بإدارة «جيش الخلاص».

كانت الشوارع تغص بالسيارات التي كانت تبدو وكأنها تجري في كل الاتجاهات، ولم يكن هناك إلا القليل من الخيول. وكانوا ينظرون بنهم من خلال زجاج السيارة إلى الأبنية الآجرية المرتفعة، والطرقات الضيقة المتعرجة، والسرعة التي كان المارة يبدون فيها ثم يختفون في رقصة غريبة لا توجد إلا في المدن الكبيرة. كانت «ويللينغتون» قد أذهلتهم ولكن «سيدني» جعلتها تبدو كأنها قرية صغيرة بجانبها.

وبينما كانت «في» تستريح في إحدى الغرف العديدة من جحر الأرانب الذي أطلق عليه «جيش الخلاص» اسم «قصر الشعب»، ذهب بادي إلى محطة السكك الحديدية المركزية ليستعلم عن موعد قيام القطار الذي سينقلهم إلى غيللانبون. وكان الصبيان قد استردوا عافيتهم تماماً فأخذوا يتصايحون مطالبين

بالذهاب مع والدهم إلى المحطة، فقد قيل لهم أنها لم تكن بعيدة جداً، وأن الطريق المؤدية إليها كانت مرصوصة بالمخازن على الطرفين، وإن أحد هذه المخازن كان يبيع كل أنواع السكاكر. وأذعن بادي وهو يحسدهم على شبابهم وحيوتهم، إذ لم يكن هو نفسه واثقاً من قوة ساقيه بعد هذه الأيام الثلاثة التي قضاها في البحر. وبقي فرانك وميغي مع «في» والطفل، متمنين أن يرافقا الآخرين وفي الوقت نفسه قلقين على حالة أمهما. والواقع أنها بدأت تستعيد قوتها منذ أن غادرت السفينة، وكانت قد شربت قليلاً من الحساء وقضمت قطعة من الخبز المحمص أتى بها أحد ملائكة «جيش الخلاص».

وعندما رجع بادي قال لـ «في»:

ـــ إذا لم نسافر هذه الليلة يا «في»، فعلينا أن ننتظر أسبوعاً موعد القطار المقبل. هل تظنين أن بإمكانك تحمل السفر هذه الليلة؟

وجلست «في» وهي ترتجف:

ـــ أظن أن ذلك بإمكاني.

فقاطعها فرانك بجرأة:

ـــ أظن أن علينا أن نتريث فأنا لا أعتقد أن حالة أمي الصحية تمكنها من السفر .

ـــ يبدو أنك لا تفهم يا فرانك أنه إذا فاتنا قطار الليلة فإن علينا الانتظار اسبوعاً بكامله وأنا لا أملك في جيبي نفقات البقاء طيلة الأسبوع بكامله في سيدني . هذا البلد كبير جداً ، والمكان الذي نحن ذاهبون إليه ناء ولا يصله القطار كل يوم . هناك ثلاثة قطارات تذهب غداً إلى « دوبو » ونستطيع أن نستقل أحدها ، ولكن علينا الانتظار هناك لوسيلة مواصلات محلية ، ولكنه قد قيل لي أيضاً أن السفر في تلك الحالة سيكون أصعب وأطول مما لو أخذنا قطار الليلة السريع .

ـــ « سوف أتدبر أمري يا بادي »ردَّت « في » . « هناك فرانك وميغي بجانبي ، وسأكون بخير » .

وكانت عيناها تنظران إلى فرانك متوسلة إليه أن يسكت .

ـــ إذن سأرسل برقية إلى ميري الآن وأطلب منها أن تنتظرنا مساء الغد .

○

كانت المحطة المركزية أكبر بناء دخل إليه آل كليري في

حياتهم، وكانت عبارة عن اسطوانة زجاجية ضخمة تبدو كأنها تمتص وفي الوقت نفسه تُرجّع صدى أصوات وجلبة آلاف من البشر الواقفين بقرب حقائبهم المخلعة المربوطة بالأحزمة، والذين كانوا يحدقون بلوحة ضخمة تعلن عن مواعيد القطارات والتي كان بعض الرجال يحركونها يدوياً بواسطة عصيّ طويلة. وفي الظلام الذي بدأ ينسدل، اختلطوا بهذا الحشد وعيونهم معلقة على بوابات الرصيف الخامس الفولاذية. ومع أنها كانت مغلقة، فقد كانت تحمل لوحة عريضة كتب عليها باليد «غيللانبون». وعلى الرصيفين الأول والثاني انبعث نشاط هائل معلناً عن قيام قطاري «بريسبين» و «ملبورن» وقد احتشد الركاب عبر الحواجز. ثم جاء دورهم وانفتحت بوابات الرصيف الخامس وبدأ الجمهور يتحرك بلهفة نحو الرصيف.

وعثر لهم بادي على مقصورة من الدرجة الثانية فاجلس الصبيان من جهة النوافذ بينما جلست «في» وميغي والطفل قرب الباب المؤدي إلى الممر الذي يصل بين مختلف المقاصير. والتصقت وجوه عديدة على زجاج الباب آملة أن تجد مكاناً شاغراً ثم ابتعدت مرعوبة من رؤية كل هذا العدد من الأولاد. فالعائلة الكبيرة لها أحياناً محاسنها.

كان الليل بارداً مما استدعى أن يفكوا أغطية السفر الصوفية الكبيرة المقلمة بألوان مختلفة والتي كانت عادة ترافق حقائب السفر وتربط عليها من الخارج بأحزمة جلدية. ومع أن العربة لم تكن مدفأة، فقد كان هناك صناديق معدنية مليئة بالرماد الساخن تشيع الدفء من مكانها على أرض المقصورة. وعلى أية حال، لم يكن أحد يتوقع التدفئة، فهي لم تكن تستعمل مطلقاً في استراليا ونيوزيلاندة. وسألت ميغي عندما انطلق القطار وهو يقعقع ويتأرجح برفق على السكة:

ــ هل المكان بعيد يا أبي؟

ــ أبعد مما كان يبدو على الخارطة يا ميغي. حوالي الألف كيلو متر، وسنصل إلى هناك غداً عند المغرب.

وشهق الأولاد ولكنهم سرعان ما نسوا الأمر أمام أضواء المدينة الأسطورية، وتدافع الجميع إلى النوافذ ينظرون بينما كان القطار قد اجتاز الكيلومترات الأولى دون أن يتضاءل عدد البيوت بعد. وتزايدت السرعة وتباعدت الأضواء ثم اختفت أخيراً وحلّت مكانها حزم من الشرر المتطاير في الهواء العاصف.

عندما اصطحب بادي الصبيان خارجاً حتى تتمكن

« في » من إرضاع هال ، نظرت ميغي إليهم متشوقة ، فقد بدا لها في هذه الأيام أنها لم تعد تُعامَل مثل أخوتها الصبيان ، وذلك منذ أن بلبل هذا الطفل حياتها وقيّدها إلى البيت بالقوة نفسها التي قيد بها أمها . وليس معناه أن هذا كان يقلقها ، قالت لنفسها بصدق . فقد كانت تهيم بهذا الطفل وتراه منبع النور في حياتها وقد كان من اللطف بمكان أن تعاملها أمها وكأنها سيدة أخرى وليست مجرد طفلة .

وأما السبب الذي جعل فيونا قادرة على « إنبات » الأطفال ، فلم تكن ميغي تعرف عنه شيئاً ، ولكنها كانت تعرف أن النتيجة لطيفة جداً . وناولت الطفل لأمها . وتوقف القطار بعدها بلحظات وهو يقرقع ويصرصر ، وبدا كما لو أنه وقف ساعات يلهث بحثاً عن أنفاسه . وكانت ميغي تموت شوقاً لتفتح النافذة وتلقي نظرة إلى الخارج ، ولكن المقصورة كانت قد بدأت تبرد رغم علب الرماد الساخن الموزعة على الأرض .

ودخل بادي من الممر وهو يحمل لـ « في » فنجاناً من الشاي الساخن يتصاعد البخار منه ، فوضعت « في » الطفل على المقعد وقد شبع فنام ، وسألت بادي :

ـــ ما هذا المكان ؟

ـــ إنه يدعى « فالي هايث » . إنهم يضيفون قاطرة أخرى إلى القطار لكي يستطيع الصعود نحو « ليثغو » ، هذا ما أخبرتني به عاملة المشرب .

ـــ كم لديّ من الوقت حتى أشرب الشاي ؟

ـــ ربع ساعة . سيحضر لكما فرانك بعض الشطائر بينما سأهتم بإطعام الصبيان . إننا لن نتوقف ثانية للشرب حتى نصل إلى « بليني » في وقت متأخر من الليل .

وتقاسمت ميغي مع أمها الشاي المُحلّى جداً ، وهي تشعر فجأة بالانفعال الشديد ، وابتلعت الشطيرة التي أتى بها فرانك ثم اجلسها فرانك على المقعد الطويل تحت مكان هال الصغير وأحكم أطراف الغطاء حولها ، كما فعل الشيء نفسه لـ « في » التي تمددت بطولها على المقعد المقابل . ورقد ستوارت وهوغي على الأرض بين المقاعد ولكن بادي أخبر « في » أنه ذاهب مع بوب وفرانك وجاك لتجاذب الحديث مع أحد الجزازين في مقصورة أمامية ، وأنهم سيقضون الليل هناك . كان القطار أجمل من السفينة بكثير وهو يجري مقاطعاً بجلبته أنغام القاطرتين الرتيبة ، والريح تعصف بأسلاك البرق . ومن وقت لآخر كانت نفخات غاضبة تتصاعد من

العجلات الفولاذية وهي تنزلق على السكة وتحتك عليها باهتياج شديد. وأغفت ميغي.

وفي الصباح فتحوا أعينهم بخشية ورعب من المنظر الطبيعي الغريب الذي لم يحلموا بوجوده هو ونيوزيلاندة على الكوكب نفسه. كانت هناك هضاب متموجة، هذا أكيد، ولكن لم يكن هناك أي شيء يذكرهم بوطنهم. فكل شيء كان بنياً ورمادياً، وحتى الأشجار! وكان القمح الشتوي يلمع بلون أغبر فضي تحت الشمس الساطعة، كيلو مترات وكيلو مترات منه تتماوج وتنحني أمام الريح، مساحات تقاطعها هنا وهناك باقات من الأشجار النحيلة الملتوية ذات الأوراق المزرقة، أو أدغال من النباتات الشائكة، رمادية باهتة. وكانت عينا «في» الصابرتان تراقبان المنظر دون أن يطرأ أي تغيير على ملامح وجهها، أما عينا ميغي فقد كانتا مليئتين بالدموع. كان المنظر مرعباً، فسيحاً، لا نهاية له ولا أثر للخضرة فيه.

وتحول الليل الصقيعي إلى نهار حارق بينما كانت الشمس تصعد نحو سمتها، والقطار يلهث ويلهث متوقفاً بين حين وآخر في مدينة صغيرة تعج بالدراجات والعربات التي تجرها البهائم. ولكن

السيارات كانت تبدو نادرة في هذه الجهات. وأنزل بادي زجاج النوافذ بالرغم من السخام الذي كان يدور هابطاً ليتوضع على كل شيء. كان الحر شديداً جداً حتى أنهم كانوا يشهقون لكي يستطيعوا التنفس، وقد التصقت بجسمهم ملابسهم الثقيلة التي أتوا بها من نيوزيلاندة الباردة، فبدأوا يهرشون وقد بدا لهم من المستحيل وجود مكان آخر غير الجحيم بهذه الحرارة وفي فصل الشتاء.

وعند المغيب، بلغوا «غيللانبون». مجموعة صغيرة من المباني المتداعية يختلط فيها الخشب بالحديد الصدىء، على جانبي شارع عريض، مغبر ومتعب، وليس به من شجرة. كانت الشمس المصهورة قد صبت على كل شيء معجوناً ذهبي اللون وأضفت على المدينة نوعاً من الوقار الذي سرعان ما تلاشى بينما كانت عائلة كليري واقفة على الرصيف تنظر بملء عيونها. وتحولت المدينة إلى منطقة تشبه كل المناطق الواقعة على حدود الأرض الوعرة في الداخل، حيث لا تصل الأمطار إلا نادراً. ومن جهة ليست بالبعيدة جداً، في المغرب، كانت تلوح ثلاثة آلاف كيلو متر من الأرض الصحراوية التى لم تتلق أبداً قطرة واحدة من المطر.

كان هناك سيارة براقة فخمة سوداء، متوقفة في ساحة المحطة، وبخطى واسعة، غير مكترث لتراب الطريق أو لغمامة الغبار المتصاعد حوله، تقدم نحوهم كاهن.

كان ثوبه الأسود يجعله يبدو كأنه يخرج من الماضي، كرؤيا تطوف في حلم وليس كرجل يمشي كسائر البشر. وكان الغبار يتصاعد حوله في موجات صبغتها آخر أشعة الشمس المتوارية بالأحمر.

ـــ «مرحباً، أنا الأب دو بريكاسار» قال وهو يمد يده لبادي، «لا بد أنك أخو ميري، فأنت صورتها الناطقة»، ثم التفت نحو «في» وجذب يدها المنهكة إلى شفاهه وهو يبتسم بدهشة حقيقية، فلا أحد يستطيع أن يميز سيدة حقيقية بسرعة الأب رالف:

ـــ «كم أنت جميلة!» قالها وكما لو كان من الطبيعي جداً أن يلقي كاهن بمثل هذه الملاحظة، ومن ثم وقفت عيناه على الصبيان وقد احتشدوا سوية، واستقرتا لحظة بدهشة على فرانك الذي كان يحمل هال الصغير، وبعدها بدأتا تستعرضان الصبيان بالتدرج نحو الأصغر فالأصغر.

وخلفهم كانت ميغي واقفة وحدها تنظر إليه وقد فغرت فاها مأخوذة وكأنها ترى الله أمامها .

ودون أن يهتم لردائه الأسود الذي كان يكنس التراب وراءه ، تجاوز الحشد الصغير وجلس القرفصاء ممسكاً ميغي بيديه ، وكانت يداه قويتين ، ناعمتين ، لطيفتين .

وسألها مبتسماً :

ـــ حسناً ، حسناً ، ومن أنت ؟

ـــ ميغي .

ـــ « اسمها ميغان » قاطعه فرانك مقطباً حاجبيه ، وقد بدأ يكره هذا الرجل الوسيم ، وقامته الفارهة المدهشة .

ـــ « هذا هو اسمي المفضل ، ميغان » . ونهض وهو لا يزال ممسكاً يد ميغي بيده . « من الأفضل أن تمضوا الليلة في بيت كاهن الرعية » قال هذا وهو يقود ميغي نحو السيارة . « وغداً صباحاً سأوصلكم إلى دروغيدا ، فبعد هذه الطريق الطويلة بالقطار ، ستبدو دروغيدا بعيدة جداً لو أخذتكم إليها الآن » .

عدا عن الفندق « امبريال » ، والكنيسة الكاثوليكية ومدرستها ، والدير وبيت الكاهن ، التي كانت هي الأبنية الوحيدة

المشيدة بالآجر، فقد كانت كل المباني الأخرى في «غيللانبون»، وحتى المدارس العامة الكبيرة، مصنوعة من الأخشاب. والآن، وقد خيّم الظلام، فقد أصبح الجو بارداً بشكل لا يصدق، ولكن النار كانت تتوهج في مدفأة ردهة الاستقبال في منزل الكاهن، بينما تصاعدت إلى الأنوف رائحة الطعام الشهية، آتية من مكان ما غير بعيد. وكانت مدبرة البيت، وهي عجوز اسكوتلندية ذاوية، تروح وتجيء بنشاط عجيب يتعارض وعمرها، وهي تريهم غرفهم ولسانها لا يتوقف لحظة عن الثرثرة.

وبما أنهم كانوا معتادين على تحفظ كهنة واهيني المترفعين، فقد شعروا بالارتباك أمام بساطة رالف المريحة، ولكن بادي تخلى عن تحفظه، إذ أنه تذكر لطف الكهنة في مسقط رأسه «غالوي»، وتقربهم من البسطاء. أما الباقون فقد تناولوا طعامهم بصمت حذر وانسحبوا إلى غرفهم حالما استطاعوا، وتبعهم بادي آسفاً. كان الدين بالنسبة إليه حرارة وتعزية، أما بالنسبة لأفراد عائلته، فقد كان شيئاً انغرست جذوره في الخوف، والإكراه على اتباع نهج في حياتهم لا يستطيعون الخروج عنه، وإلا ذهبوا إلى النار الأبدية.

وبعد أن انسحب الجميع، استلقى الأب رالف في مقعده

المفضل وهو يحدق في النار ويدخن لفافة تبغ مبتسماً. كان يستعرض في مخيلته أفراد عائلة كليري كما رآهم لأول مرة في ساحة المحطة. فالرجل يشبه ميري، ولكن الشقاء أحنى ظهره، ومن الواضح أنه لا يملك شيئاً من طبيعة ميري الخبيثة، وزوجته الحسناء المرهقة كانت تبدو كأنها تهبط من عربة مذهبة تجرها خيول بيضاء، ثم كان هناك فرانك، فرانك الأسمر المتجهم، بعينيه السوداوين، عينيه السوداوين! وأما بقية الأبناء فهم يشبهون والدهم، ما عدا أصغرهم، ستوارت، الذي كان يشبه أمه إلى حد بعيد، وسيكون شاباً وسيماً عندما يكبر. ومن الصعب القول كيف سيصبح الطفل الأخير. وميغي.

أحلى وأحب فتاة صغيرة رآها في حياته، فلون شعرها يتحدى الوصف، ليس بالأحمر ولا بالذهبي وإنما خليط رائع من الاثنين. وعندما نظرت إليه، كانت عيناها الرماديتان الفضيتان متلألئتين كالجواهر وصافيتين كالنور.

وهزّ الكاهن بكتفيه ورمى عقب لفافته في النار ثم نهض واقفاً. يبدو أن خياله يتّسع كلما تقدم في العمر!.. متألقتان كالجواهر!.. فعلاً! لا شك أن نظره قد بدأ يشح. إنه الرمد الرملي.

وفي الصباح قاد ضيوفه إلى دروغيدا متسلياً بتعليقاتهم على المنظر الذي كان قد اعتاده. وكانت آخر الهضاب تنتصب على مئة كيلو متر إلى الشرق. كانت هذه منطقة سهول الأرض السوداء ــ أخذ يشرح لهم ــ وهي أرض منبسطة معشوشبة، ليس بها إلا بعض الأشجار، ومسطحة كلوح خشبي.

وكان اليوم حاراً جداً كاليوم الذي سبق، ولكن السيارة كانت مريحة أكثر بكثير من القطار، وكانوا قد بدأوا رحلتهم باكراً، دون طعام، ووضع الأب رالف ثياب القداس والقربان الأقدس مغلفين بعناية في حقيبة سوداء.

ــ «إن الخراف وسخة» قالت ميغي بحزن وهي تنظر إلى مئات المئات من الكتل الحمراء المغبرة التي غرزت أنفها في العشب.

ــ «آه، أظن أنه كان علي أن أطلب الذهاب إلى نيوزيلاندة» قال الكاهن. «لا بد أنها تشبه إيرلندا وإن خرافها جميلة بيضاء».

فأجاب بادي الذي كان معجباً جداً بالأب رالف:

ــ نعم، إنها تشبه إيرلندا من عدة وجوه، والعشب فيها جميل أخضر ولكنه متوحش أكثر، فقد بقي تقريباً على الطبيعة ولم يزرع زرعاً.

وفي تلك اللحظة، ترنح قطيع من «الامو»[1] على أقدامه، وأخذ يجري بسرعة الريح، والسيقان القبيحة لا تكاد تُلمح، وقد مدت الطيور أمامها أعناقها الطويلة. وشهق الأولاد وانفجروا بالضحك وقد سحرهم منظر هذه الطيور العملاقة التي تركض بدلاً من أن تطير.

ــ كم ستكون سعادتنا كبيرة لو لم يكن من الضروري الخروج من السيارة لفتح وإغلاق هذه البوابات الشنيعة.

قال الأب رالف بينما كانت آخر البوابات تُغلَق وراءهم. وصعد بوب إلى السيارة، فقد كان الكاهن قد أوكل إليه هذه المهمة.

وبعد كل الصدمات التي سددتها لهم استراليا بسرعة مذهلة، بدت لهم دروغيدا كنفحة من الوطن، بواجهتها الجيورجية الأنيقة وعرائش الوستاريا المتلوية، وآلاف الآلاف من الورود.

وسألت ميغي بصوت مختنق:

ــ هل سنقيم هنا؟

---

(١) الأمو: طائر استرالي يشبه النعامة ولكنه أصغر منها.

ـــ « ليس بالضبط » أجاب الكاهن بسرعة. « إن البيت الذي ستقيمون فيه يبعد حوالي الكيلو متر عن هذا، إنه هناك، في الأسفل قرب الجدول ».

كانت ميري كارسون تنتظرهم لتستقبلهم في الصالون الواسع ولم تقف للترحيب بأخيها، وإنما أرغمته على الاقتراب منها بينما بقيت جالسة في مقعدها المجنّح.

ـــ « حسناً يا بادي » قالت بنوع من اللطف وهي تحدق إلى المكان الذي كان يقف به الأب رالف حاملاً ميغي بين ذراعيه وقد عقدت ساعديها بشدة حول عنقه. ونهضت ميري كارسون ببطء شديد دون أن ترحب بـ « في » ولا بالأولاد:

ـــ « سوف نسمع القداس حالاً » قالت، « أنا متأكدة أن الأب دوبريكاسار متلهف للعودة ».

ـــ « كلا، أبداً يا عزيزتي ميري ». وضحك وعيناه الزرقاوان تلمعان. « سأقيم القداس ثم نتناول إفطاراً محترماً ساخناً على مائدتك، وبعدها سأري ميغي، كما وعدتها، أين ستقيم ».

ـــ « ميغي » قالت ميري كارسون.

ـــ نعم، هذه هي ميغي، وهذا يدفعني إلى تقديم الآخرين، أليس

كذلك؟ دعيني أبدأ من الرأس يا ميري، أرجوك. هذه هي فيونا.

وأحنت ميري كارسون برأسها بجفاف، ولم تنتبه بعد ذلك حين تابع الأب تقديم الصبيان، فقد كانت مستغرقة بمراقبة الكاهن وميغي.

الفصل الرابع

كان منزل القيّم يرتفع على أعمدة، ويشرف من ارتفاع حوالي العشرة أمتار على مجرى ماء ضيق، نبتت على جانبيه أشجار الصمغ معانقة الصفصاف الباكي. وكان المنزل يبدو عارياً إذا ما قورن بفخامة مسكن دروغيدا، ولكنه بملحقاته كان يشبه البيت الذي تركوه وراءهم في نيوزيلاندة، وقد كانت الغرف مليئة بالأثاث الفيكتوري الضخم المتين الذي غطى سطحه غبار أحمر دقيق.

ـ «إنكم محظوظون لوجود حمّام هنا.» قال الأب رالف وهو يقودهم على المدرج الخشبي إلى الشرفة الأمامية، وكانت

الدرجات عالية إذ أن الأعمدة التي أقيم عليها المنزل كانت ترتفع خمسة أمتار عن الأرض.

ــ «هذه الأعمدة ضرورية منعاً للأذى فيما إذا ارتفع مستوى الماء في الجدول بقوة». تابع الأب رالف. «إنكم فوقه بالضبط هنا، ولقد سمعت أنه يرتفع أحياناً سبعة عشر متراً في ليلة واحدة».

وبالفعل كان عندهم حمّام في البيت، وكان عبارة عن مغطس قديم من الزنك، وسخّانة متآكلة تنتصب في فجوة على طرف الشرفة الخلفية. ولقد اشمأزت النساء عند رؤية المرحاض ولم يكن إلا عبارة عن حفرة في الأرض على بعد مئتي متر في الفناء الخارجي للدار، وقد انتشرت منها رائحة كريهة. وبالمقارنة مع نيوزيلاندة، فقد كان هذا بدائياً جداً.

ــ إن الشخص الذي عاش هنا لم يكن نظيفاً جداً. قالت «في» وهي تمر بأصبعها على طبقة الغبار الرقيقة التي تغطي الخزانة.

وانفجر الأب رالف ضاحكاً:

ــ إنك ستخسرين المعركة إذا حاولت التخلص من هذا. هذا هو الأقليم الداخلي، وهناك أشياء لا يمكن التغلب عليها: الحر، والغبار، والذباب. وستذهب كل جهودك هباء.

ونظرت « في » إلى الكاهن :

ــ أنت طيب جداً معنا ، يا أبت .

ــ ولم لا ؟ إنكم الأنسباء الوحيدون لصديقتي العزيزة ميري كارسون .

فهزت برأسها دون أن يبدو عليها التأثر وقالت :

ــ لست معتادة على صداقة الكهنة ، فهم في نيوزيلاندة لا يخالطون أبناء رعيتهم .

ــ أنت لست كاثوليكية ، أليس كذلك ؟

ــ كلا ، ولكن بادي كاثوليكي . وبالطبع فلقد تربّى الأولاد تربية كاثوليكية ، كل واحد منهم ، إذا كان هذا يقلقك .

ــ لم يخطر هذا ببالي مطلقاً . ولكن هل يضايقك ذلك ؟

ــ الحقيقة إنه لا فرق عندي .

ــ ألم تعتنقي الكاثوليكية ؟

ــ أنا لست مرائية أيها الأب دو بريكاسار . لقد فقدت إيماني بمذهبي ، ولا رغبة لي في استبداله بآخر لا معنى له .

ــ إنني أفهم موقفك .

ونظر إلى ميغي التي كانت تقف على الشرفة الأمامية تتفحص الطريق المؤدية إلى دروغيدا .

ـــ إن ابنتك جميلة، وأنا شغف بشكل خاص بالشعر الأشقر الفينيسي. لو رأى الفنانون شعرها لتراكضوا إلى فراشيهم. إني لم أر من قبل هذا اللون بالضبط. هل هي ابنتك الوحيدة؟

ـــ نعم. إن هناك الكثير من الذكور في عائلة بادي وفي عائلتي، أما البنات فقلة.

ـــ «يا للصغيرة المسكينة» تمتم وهو لا يدري لماذا.

وبعد أن وصلت صناديقهم من سيدني، أخذ البيت يبدو مألوفاً أكثر، بكتبه وخزفياته، وزينته، وقد امتلأت ردهة الاستقبال بأثاث «في»، وبدأت الأمور تستقر. وكان بادي والصبيان، ما عدا ستو الذي كان صغيراً جداً، يقضون أغلب أوقاتهم خارج البيت مع العمال الذين احتفظت بهم ميري كارسون لكي يعلّموهم الفرق بين خراف الشمال الغربي من ويلز الجنوبية الجديدة، والخراف في نيوزيلاندة. واكتشفت «في» وستو وميغي، الفرق بين الاهتمام بمنزل في نيوزيلاندة والحياة في بيت القيّم في دروغيدا.

وكان هناك نوع من الاتفاق الضمني على عدم ازعاج ميري كارسون بنفسها، ولكن مدبرة المنزل والخادمات كنّ على استعداد تام لمساعدة النساء كما كان العمال يساعدون الرجال.

ولقد فهم الجميع أن دروغيدا كانت عالماً بحاله، مقطوعاً تماماً عن الحضارة، حتى أنه بعد مضي زمن قصير أصبحت غيللانبون نفسها مجرد اسم وذكرى بعيدة. وضمن حدود الحوش المركزي الكبير الذي كان يحيط بالمنزل، كانت هناك الاسطبلات، وحانوت الحدادة، والمرائب، وأبنية عديدة للتخزين تحتوي على كل شيء بدءاً من العلف وحتى الآلات الزراعية. كانت هناك أيضاً أوجار الكلاب، والحظائر، وعدد لا يحصى من مرابط الدواب، وسقيفة هائلة لجزّ الصوف تحتوي على ستة وعشرين موقفاً، ووراءها أيضاً متاهة من الزرائب. كان هناك زرائب الخنازير، وحظائر الدواجن والأبقار، والملبنة، ومآوٍ لستة وعشرين جزّاراً، وأكواخ صغيرة للعمال، ومنزلان صغيران آخران لمربيي القطعان، وبناء للمهاجرين الجدد، ومسلخ، ومحطبة.

وكان كل هذا منتشراً وسط دائرة كبيرة عارية من الأشجار، يبلغ قطرها خمسة كيلو مترات وتدعى الحوش المركزي. ولكن منزل القيّم وملحقاته كانت تقع على حدود الغابة المجاورة. ومع ذلك فقد كانت هناك أشجار عديدة حول السقائف وزرائب الحيوانات والحظائر، لتأمين الظل الضروري، وأغلبها من أشجار

الفلفل الضخمة الصلبة الكثيفة ، المترامية بلطف . وما وراء ذلك ، بين أعشاب الحوش المركزي ، كانت الخيول والأبقار الحلوب ترعى بكسل .

وفي قعر الوادي الصغير الذي يقع به منزل القيّم ، كانت هناك ساقية صغيرة موحلة ، تجري متكاسلة ، ولم يصدق أحد قصة الأب رالف عن مستوى الساقية الذي يرتفع سبعة عشر متراً في ليلة واحدة . كان الأمر يبدو مستحيلاً . وكان الماء يُضخ من الساقية يدوياً لاستعمالات الحمّام والمطبخ ، ولقد استغرق الأمر زمناً طويلاً حتى اعتادت النساء على الاستحمام وغسل الأوعية والملابس في الماء البني المخضوضر .

وكان هناك ستة خزانات من الحديد الصدىء ، تنتصب على أبراج خشبية لتلقّي ماء المطر من الأسطحة ، وكان هذا يؤمن لهم مياه الشرب ، ولكنهم تعلموا أن عليهم استعمال هذا الماء بتقتير شديد ، إذا لم يكن هناك أية ضمانة لتساقط المطر ثانية في موعده المحدد ، لملء الخزانات .

كانت الأغنام والماشية ترتوي من آبار ارتوازية ، ولم يكن من السهل الحصول عليها إذ أن المنسوب المائي كان على عمق أكثر من

ألف متر . وكان الماء يخرج من قسطل سمّي « رأس البئر » ، ويجري في أقنية ضيقة نبتت على جوانبها أعشاب سامة خضراء ، وكانت هذه الأقنية تغذي مراعي المزرعة ، ولم تكن مياهها المحمّلة بالكبريت والمعادن صالحة للاستهلاك البشري .

وفي البدء أذهلتهم المسافات ، فقد كانت مساحة أرض دروغيدا تبلغ مئة ألف هكتار ، وكان أكثر حدودها طولاً يمتد على مئة وثلاثين كيلو متراً ، والمنزل يبعد خمسة وستين كيلو متراً عن غيللانبون ، ويفصله عنها سبعة وعشرون سياجاً وبوابة . وكانت أقرب منطقة مأهولة إليها تقع على مئة وخمسين كيلو متراً . وفي الشرق ، كانت الأرض محدودة من جهتها الضيقة بنهر « الباروون » ، وهو الاسم المحلي الذي يطلق على الجزء الشمالي من نهر « دارلين » ، وما هو إلا مجرى مائي موحل وضخم يبلغ طوله ألف وستمئة كيلو متر ، يلتقي بنهر « موري » قبل أن يصب في المحيط الجنوبي على بعد ألفين وخمسمئة كيلو متر ، في جنوب استراليا . أما ساقية « غيللي » التي تجري في قعر الوادي قرب منزل القيّم ، فهي تصب في نهر « الباروون » على بعد ثلاثة كيلو مترات من الحوش المركزي .

ولقد أحب بادي والأولاد كل هذا، وغالباً ما كانوا يمضون النهار بكامله على ظهور الخيل وعلى بعد عدة كيلو مترات من المنزل، ثم يخيّمون في الليل تحت السماء الواسعة المليئة بالنجوم، وكان يبدو لهم أنهم جزء من الخالق.

وكانت الأرض السمراء المغبرة تضج بالحياة من كل نوع. كانت قطعان الكنغر تجري بالآلاف عبر الأشجار، قافزة فوق الأسيجة، وكان منظر هذا العدد الضخم من المخلوقات الحرة الرشيقة ممتعاً حقاً.

وأما طيور الأمو، فقد كانت تبني أعشاشها في وسط السهول المعشوشبة وتزرع الأراضي المجاورة بخطواتها العملاقة، ويذعرها أي شيء غريب فتجري أسرع من الخيول تاركة وراءها بيوضها ذات اللون الأخضر الغامق والتي تبلغ بحجمها حجم كرة القدم.

كان النمل الأبيض يبني أبراجه الحمراء وكأنها ناطحات سحاب مصغرة. والنمل الضخم ذو الفكين المتوحشين يصب كالسواقي في ثقوب عميقة محفورة في أكوام التراب.

أما عائلة الطيور فكانت غنية ومتنوعة بشكل يبدو معه أن فصيلة جديدة كانت تظهر كل يوم. ولم تكن الطيور تعيش وحيدة أو على شكل أزواج، وإنما كان هناك آلاف منها: كان هناك الببغاوات الصغيرة الخضراء ـــ الصفراء، وقد كانت «في» تسميها «المتيّمة» بينما كان سكان المنطقة يدعونها بـ «الطيور الطيبة»، وببغاوات حمراء وزرقاء، صغيرة هي الأخرى وتدعى بـ «روزيللا»، وأخرى أكبر حجماً، لونها رمادي فاتح، يلتمع صدرها ورأسها وما تحت جناحيها بلون زهري محمرّ. هذا عدا عن عصافير كبيرة ناصعة البياض تزين رأسها مراوح شامخة من الريش الأصفر. وكانت الحساسين الدقيقة الرائعة تدور وتدور برفقة عشرات الآلاف من عصافير الدوري والزرازير.

أما عصافير القاوند البنية القوية، فقد كانت تضحك بمرح وهي تغطس لاصطياد ثعبان ما وهو غذاؤها المفضل. وكل هذه الطيور كانت تتصرف كالانسان تقريباً وبدون أي خوف. وكانت مجموعاتها تحط فوق الأغصان وتنظر حولها بعيونها البراقة الذكية، وهي تصرخ، وتتكلم، وتضحك مقلدة أي شيء يصدر صوتاً.

أما العظّاءة المخيفة، والتي يبلغ طولها المتر وربع المتر، فقد

كانت تضرب الأرض وتقفز بخفة فوق الأغصان العالية حيث ترتاح كما لو كانت على الأرض. وهذه العظّاءة كانت تسمى «الايغوانا». كان هناك أنواع أخرى من العظايا أصغر من الأولى، ولكنها مخيفة مثلها، ويزيّن عنقها حراشف قرنية تذكّر بحيوانات ما قبل التاريخ، وأخرى ذات لسان أزرق لماع منتفخ، وأنواع لا حصر لها من الثعابين؛ ولقد تعلم آل كليري أنّ أكبرها، والتي تبدو مخيفة جداً، كانت أقلها خطراً، بينما كان أصغرها قاتلاً ولا يتجاوز طوله الثلاثين سنتمتراً مثل الصل، والثعبان النحاسي، وثعبان الأشجار، والثعبان ذو البطن الأحمر، والثعبان ــ النمر ذو اللسعة المميتة.

والحشرات! كان هناك الجراد، والجنادب، والجداجد، والنحل، والذباب من كل المقاسات وكل الأنواع، والزيزان، والبعوض الكبير والصغير، واليعاسيب، والعث العملاق، والفراش على أنواعه.

أما العناكب فقد كانت مروعة، فمنها حشرات ضخمة شعراء، ذات قوائم طويلة مرعبة، ومنها ما هو صغير جداً ومميت، يترصد عادة في المراحيض. والبعض منها كان ينسج شباكه الواسعة على شكل أشعة ممتدة بين الأشجار، والبعض الآخر

يتأرجح في وسط سرير معلق بين الأعشاب، ونوع آخر كان ينتقي له مسكناً في ثقوب يحفرها في الأرض، ولها غطاء يغلقه وراءه بعد أن ينزل في الثقب.

كان هناك الحيوانات المفترسة أيضاً. الخنازير البرية التي تخاف من كل شيء، مع أنها من فصيلة آكلات اللحوم، سوداء اللون مغطاة بالشعر، وتقارب بحجمها البقرة البالغة. والكلاب المتوحشة التي كانت تربض على الأرض فتختلط بالأعشاب، والغربان بالمئات، تنعق بكآبة وهي تقبع فوق هياكل الأشجار البيضاء الميتة. والصقور والنسور وهي تحلق بسكون على أجنحة الهواء.

وكان لا بد من حماية الخرفان والماشية من هذه الحيوانات، وخاصة عندما كانت تضع صغارها. وكانت الكناغر والأرانب تأكل الأعشاب الثمينة، بينما كانت الخنازير والكلاب المتوحشة تلتهم النعاج والعجول والحيوانات المريضة، والغربان تنقر عيونها. وكان على بادي والأولاد أن يتعلموا الرماية، فأخذوا يحملون البنادق عندما يخرجون على ظهور الخيل، وأحياناً كان عليهم أن يضعوا حد لألم حيوان ما، أو أن يرموا خنزيراً برياً أو كلباً متوحشاً.

« هكذا تكون الحياة ! » كان الأولاد يفكرون متهللين ، ولم يشتق واحد منهم إلى نيوزيلاندة. وعندما كان الذباب يتكوم عناقيد في زوايا أعينهم ، وعلى أنوفهم ، وفي أفواههم وآذانهم ، كانوا يلجؤون إلى الطريقة الاسترالية لطرده ، فيعلقون سدادات القوارير الفلينية بخيوط حول حافة قبعاتهم. ولمنع الحشرات الزاحفة من تسلق سيقانهم تحت بنطال الركوب المنتفخ ، كانوا يربطون قطعاً من جلد الكنغر تحت ركبهم. وبالمقارنة مع هذا ، كانت نيوزيلاندة حيوان أليف. هكذا تكون الحياة !.

أما النساء فقد كنّ مقيدات إلى البيت وجواره ، ولم تعجبهن هذه الحياة الجديدة كثيراً. لم يكن لديهن لا الوقت ولا العذر الكافي لركوب الخيل ، وفي الوقت نفسه لم يكنّ يقدّرن الإثارة التي يمكن أن يحملها لهن تنويع نشاطاتهن. كان من الصعوبة بمكان القيام بالأعمال التي تقوم بها النساء عادة : الطبخ ، والتنظيف ، والغسيل ، والكي ، والعناية بالأطفال. وكان عليهن محاربة الحر ، والغبار ، والذباب ، ودرجات السلم العالية ، والماء العكر ، وغياب الرجال الدائم تقريباً ، فلا من رجل يحمل الحطب ويقطعه ، أو يضخ الماء أو يذبح الطيور. وكان الحر خاصة صعب الاحتمال ، ولم

نكن إلا في أوائل الربيع، ومع هذا فقد كان ميزان الحرارة الموضوع في الظل، على الشرفة، يشير إلى سبع وثلاثين درجة مئوية، أما في المطبخ، مع الفرن، فقد كانت الحرارة تصل إلى سبع وأربعين درجة.

أما الطبقات المتعددة من الملابس التي كنّ يرتدينها فقد كانت ضيقة ومُصَمَّمة لنيوزيلاندة، حيث كان البيت رطباً دائماً في الداخل.

وذات يوم كانت ميري كارسون تتمشى متريضة فاتجهت إلى منزل زوجة أخيها لتراها قليلاً، وعندما وصلت رفعت حاجبيها وهي تنظر إلى ثوب «في» الخامي بقبته العالية، وذيله الذي يكنس الأرض، وكانت هي نفسها ترتدي ثوباً حريرياً حديث الطراز بلون القشدة ويصل إلى منتصف ساقيها، واسع القبة والأكمام، وبدون خصر.

ـــ «حقاً يا فيونا، لا أمل في شفائك من طرازك العتيق.» قالت وهي تنظر حولها إلى غرفة الاستقبال، بطلائها الجديد القشدي اللون، والسجادة العجمية، والأثاث الثمين الدقيق.

ـــ «ليس عندي الوقت لأن أكون شيئاً آخر» قالت فيونا بجفاف.

ــ سيكون لديك الوقت الكافي حالياً، إذ أن الرجال غائبون معظم الوقت وأنت لا تطبخين إلا وجبات قليلة. قصّري ثيابك قليلاً، وتخلصي من هذه التنانير الداخلية ومن المشد، وإلا فأنك ستختفين عند قدوم الصيف، إذ يمكن للحرارة أن ترتفع أكثر من عشر درجات مما هي عليه الآن.

وتوقفت عيناها على صورة الحسناء الشقراء، صاحبة الثوب ذي الكشاكش، وسألت وهي تشير إلى اللوحة:

ــ من هذه؟

ــ إنها جدتي.

ــ آه، حقاً؟ ومن أين هذا الأثاث، وهذه السجادة؟

ــ من جدتي.

ــ آه، حقاً؟ يبدو لي أنك قد انحدرت كثيراَ، أليس كذلك؟

لم تفقد «في» رباطة جأشها طوال حياتها، ولم تفعل الآن، ولكنها شدت شفاهها:

ــ لا أظن يا ميري، إن زوجي طيب جداً، يجب أن تعلمي هذا.

ــ ولكنه معدم. ماذا كانت كِنيتك قبل الزواج؟

ــ آرمسترونغ.

ـــ آه، حقاً؟ آرمسترونغ؟ من رودريك آرمسترونغ؟
ـــ إن رودريك هو اسم أخي الأكبر، وقد أخذه عن جدي.

ونهضت ميري كارسون وهي تهز بقبعتها لطرد الذباب الذي لم يكن يحترم أحداً.

ـــ حسناً، إنك تنحدرين من أصل أفضل بكثير من عائلة كليري، إني أقر بذلك بنفسي. هل أحببت بادي لدرجة أنك تركت كل شيء من أجله؟

فأجابت فيونا بترفع:

ـــ إن مسببات تصرفاتي هي من شأني أنا يا ميري، وليست من شأنك، وأنا لا أناقش موضوع زوجي حتى مع أخته.

وانحفرت الأخاديد على جانبي أنف ميري بعمق أكبر، وجحظت عيناها قليلاً:

ـــ إنك حساسة جداً...

ولم تعاود ميري كارسون زيارتها لفيونا، ولكن السيدة سميث، مدبرة بيتها، كانت تأتي غالباً وقد رددت لها نصائح ميري كارسون بخصوص الملابس.

ـــ انظري، هناك آلة خياطة في شقتي وأنا لا أستعملها أبداً، وسأطلب من بعض العمال نقلها إلى هنا، وإذا احتجت أنا لها فسآتي بنفسي.

واستقرت عيناها على الطفل «هال» وهو يتدحرج على الأرض بسعادة فقالت:

ـــ إني أحب سماع أصوات الأطفال ياسيدة كليري.

○

كان البريد يصلهم كل ستة أسابيع في عربة تجرها الخيول من غيللانبون، وكان هذا هو الاتصال الوحيد لهم مع العالم الخارجي. كانت دورغيدا تملك شاحنة «فورد» وقد صنعت خصيصاً وركب عليها خزان للمياه، كما كان هناك سيارة «فورد» أخرى من طراز «ت»، وسيارة رولز رويس، ولكن يبدو أنه لم يكن هناك من يستعملها للذهاب إلى غيللي، ما عدا ميري كارسون، ونادراً. فالخمسة والستون كيلو متراً التي كانت تفصل دروغيدا من غيللي كانت تبدو بعيدة بعد الأرض عن القمر.

كان «بلوي ويليامز» قد أبرم عقداً مع مؤسسة البريد

لتوزيع البريد في المقاطعة، وكان ذلك يستغرق ستة أسابيع لتغطية المنطقة كلها. أما عربته الضخمة المسطحة المجهـزة بدوالـيب عملاقة يبلغ قطرها حوالي الثلاثة أمتار، فقد كان يجرها أثنا عشر من الأحصنة الرائعة، وكانت محملة بكل ما يطلبه سكان المزارع التي يمر بها. فإلى جانب «البريد الملكي»، كان ينقل البقالة، والوقود في براميل يسع الواحد منها مئتي ليتر، والكيروسين في أوعية مكعبة سعة كل منها عشرون ليتراً، والعلف، وأكيـاس الـذرة الصفراء، وأكياساً خاميّة تحتوي على السكر والطحين، وصناديق خشبية من الشاي، وأكياس من البطاطا، وآلات زراعية، ولعباً طلبت بالبريد، وثياباً من محلات «انتوني هوردن» في سيدني، وكل شيء آخر كان يجب نقله عن غيللي أو من الخارج.

وكان يسير بسرعة ثلاثين كيلو متراً في اليـوم، ويـلاقى بالترحاب في أي مكان يتوقف به، وكلٌّ يسأله عن آخر الأخبار وعن الطقس في المناطق البعيدة، ويناوله ورقة مهلهلة «خُربشت» عليها قائمة بالأشياء التي عليه أن يعود بها من غيللي، وطُويت بعناية حول ورقة نقدية لدفع التكاليف؛ أو يعطيه الرسائل المكتوبة بجهد والتي كان يرميها في كيس من الخيش كتب عليه «البريد الملكي».

وفي الغرب من غيللي ، كان هناك محطتـان فقـط على الطريق ، دروغيدا ، وهي الأقرب ، و « بوغيلا » البعيدة جداً . ومن بعد بوغيلا ، تمتد منطقة لا يصلها البريد إلا مرة واحدة كل ستة أشهر . وكانت عربة بلوي ترسم قوساً هائلاً يتعـرج عبر كل المحطات من الجنوب الغربي نحو الغرب والشمال الغربي ، ثم تعود إلى غيللي قبل أن تتوجه نحو الشرق في رحلة أقصر لأن مدينة « بورّو » كانت تتحمل مسؤولية البريد على بعد مئة كيلو متر .

كان يصطحب معه أحياناً بعض الأشخاص ، فيجلسهم بقربه على مقعده الجلدي المكشوف ، زوّاراً أو عمالاً يأملون العثور على عمل . وأحياناً كان يعود مع بأشخاص آخرين ، زوّاراً أو مربي مواشي لم يعجبهم العمل في المزارع ، أو خادمات أو عمـالاً عاديين ، ونادراً جداً ، مربية أطفال . وأما الملاكون فقد كان لديهم سياراتهم الخاصة يتنقلون بها ، ولكن هؤلاء الذين يعملون عندهم كانوا مرتبطين بـ « بلوي » لتنقلاتهم كما لنقل رسائلهم وحاجاتهم .

وبعد أن استلمت « في » قطع القماش التي كانت قد طلبتها ، جلست أمام آلة الخياطة التي أعطتها لها السيدة سميث ، وبدأت تخيط فساتين فضفاضة من القماش القطني الرقيق لنفسها

ولميغي ، وكذلك بنطالات رقيقة ووزرات للرجال ، كما صنعت بعض الصدارات للصغير هال ، وستائر جديدة للنوافذ . ومما لا شك فيه أن « في » وميغي شعرتا ببرودة أكثر وبراحة كبيرة عندما تخلصتا من ثيابهما الضيقة ومن كل تلك الطبقات من الألبسة الداخلية .

كانت الحياة موحشة بالنسبة لميغي ، فلم يبق في البيت من الصبيان إلا ستوارت ، وكان جاك وهوغي يرافقان والدهما ويتعلمان مهنة القيّم ، ولم يكن بإمكان ستو أن يحل محل جاك وهوغي بقربها ، فقد كان يعيش في عالم من نسج خياله . كان الصبي الصغير هادئاً جداً ، وكان يفضل الجلوس ساعات يتأمل سلوك طوابير النمل بدلاً من تسلق الأشجار ، بينما كانت ميغي تعبد تسلق الأشجار ، وكانت أشجار الصمغ الاسترالية برأيها رائعة ، مختلفة الأنواع ، متعددة الصعوبات . ولا يعني هذا أنها كانت تملك الكثير من أوقات الفراغ لتسلق الأشجار أو لمراقبة النمل ، فقد كانت ميغي وستوارت يعملان بجهد ، فيقطعان الحطب وينقلانه إلى البيت ، ويحفران الحفر للقمامة ، ويهتمان بحديقة الخضار ، والدواجن والخنازير ، وقد تعلما أيضاً كيف يقتلان الثعابين والعناكب مع أنهما لم يكفا يوماً عن الشعور بالرعب منها .

كانت الأمطار قد تساقطت بشكل رديء طوال هذه السنوات الأخيرة، وكان مستوى الماء في الجدول منخفضاً جداً، ولكن الخزانات كانت مليئة حتى منتصفها تقريباً، والعشب لا يزال أخضر ولكنه لا يقبل المقارنة مع العشب في أوج خصبه.

ـــ يبدو أن الحالة ستسوء. قالت ميري كارسون متجهمة.

وكان عليهم أن يتعرفوا على الفيضانات قبل أن يواجهوا الجفاف القاسي. ففي منتصف كانون الثاني، أغار على البلاد التيار الجنوبي من الرياح الموسمية القادمة من الشمال الشرقي، وطبقاً لطبيعتها النزوية كانت هذه الرياح العاصفة تهب في كل الاتجاهات، فكانت الأمطار الفيضانية الصيفية تصل أحياناً إلى أقصى الطرف الشمالي من القارة، وأحياناً، كانت تتوجه نحو الجنوب وتعاقب سكان سيدني التعساء بصيف ماطر.

وفي كانون الثاني من تلك السنة، تجمعت غيوم سوداء في السماء، تمزّقها الريح أشلاء، وبدأ المطر بالهطول، ولم يكن خفيفاً هذه المرة بل طوفاناً متواصلاً مزمجراً لا نهاية له.

وكان هناك من أنذرهم، فقد ظهر بلوي ويليامز فجأة، وعربته الثقيلة تنوء بأحمالها، وقد ربط وراءها اثنتي عشرة فرساً

احتياطية، فقد كان يتنقل بسرعة وكان يريد أن ينهي جولته قبل أن تمنعه الأمطار من تزويد المزارع بحاجاتها.

ـــ إن الأمطار الموسمية في طريقها.

قال وهو يلف سيجارة ويشير بسوطه إلى أكياس البقالة، وكانت أكثر مما في عادته أن ينقل.

ـــ لقد ارتفع مستوى الماء في الـ «براكو» والـ «ديامنتينا» والـ «كوبر»، وكما أن الـ «أوفرفلو» قد فاض. وأراضي الداخل في «كوينزلاند» تسبح تحت ستين سنتمتراً من الماء، والبؤساء المساكين المقيمون هناك يحاولون أن يجدوا مكاناً مرتفعاً ليضعوا الخراف فوقه.

وفجأة بدأ الذعر يعم، وحاولوا السيطرة على أنفسهم. وكان بادي والصبيان يعملون كالمجانين، فنقلوا الخراف من المراعي المنخفضة وأبعدوها بقدر الإمكان عن مجرى الجدول وعن البارون. وانضم إليهم الأب رالف، وامتطى جواده وخرج مع فرانك وفريق من أفضل الكلاب لإخلاء المراعي القريبة من البارون بينما خرج بادي مع اثنين من العمال واتجه كل منهم إلى ناحية برفقة أحد الفتيان.

كان الأب رالف نفسه خبيراً بالمواشي، وكان يركب الجواد الكستنائي الأصيل الذي أهدته إليه ميري كارسون، مرتدياً بنطال ركوب أنيقاً جداً وجزمة لامعة تصل إلى الركبة، أما قميصه فقد كان ناصع البياض وقد رفع أكمامه عن ساعديه القويين وترك قبته مفتوحة تكشف عن صدره الأسمر الناعم. وكان فرانك يشعر وهو يمشي إلى جانبه ببنطال قديم لا لون له، مشدود إلى كاحليه بقطع من جلد الكنغر، وقميص داخلي من الفانيلا الرمادية، وكأنه ابن العم المعدم إلى جانب قريبه الثري. وهذا هو الواقع فعلاً، فكر فرانك وهو يلوي شفتيه ويتبع القامة المنتصبة على الفرس الأنيقة، عبر دغل من الصنوبر والبقس من الجهة الأخرى من الجدول. وكان هو نفسه يمتطي حصاناً أبقع، صلباً، شكساً، وعنيداً يكره أبناء جنسه كرهاً عنيفاً. وكانت الكلاب مهتاجة تعوي وتثب في كل الاتجاهات متعاركة متشابكة فيما بينها إلى أن فرّقها الأب رالف بلسعة محكمة من سوطه، فلا شيء كان يبدو مستحيلاً أمام هذا الرجل الأنيق، وكان يعرف كيف يصفر ليحثّ الكلاب على العمل ويحسن استعمال السوط أكثر من فرانك الذي كان لا يزال يتعلم هذا الفن الاسترالي الغريب.

كان الوحش الأزرق الذي يقود قطيع الكلاب يخضع

خضوع العبد للأب رالف ويتبعه بدون تردد مفهماً فرانك أنه ليس إلا تابعاً. ولم يكن هذا شديد المبالاة، فهو الوحيد بين أولاد بادي الذي لم تسحره الحياة في دروغيدا.

لم يكن يرغب بشيء أكثر من رغبته في مغادرة نيوزيلاندة ولكن هدفه لم يكن المجيء إلى هنا. كان يكره الدوريات التي لا تنتهي في المراعي، والنوم على الأرض الصلبة في أغلب الليالي، والكلاب المتوحشة التي لا يمكن معاملتها ككلاب المنزل والتي كانت ترمى بالنار إذا فشلت في تأدية عملها.

ولكن امتطاء الخيل تحت الغيوم المتجمعة كان نوعاً من المغامرة، إذ أن الأشجار المنحنية المصدعة نفسها كانت تبدو وكأنها ترقص بنوع من الفرح الخفي. وكان الأب رالف يعمل كرجل استبد به هاجس وهو يرسل الكلاب إلى القطعان الآمنة فتنطلق الكتل الصوفية الحمقاء قافزة وهي تثغو برعب إلى أن تجمعها الكلاب المهاجمة من بين الأعشاب، وتقودها إلى حيث يرغب الأب. وكانت الكلاب وحدها تؤهل حفنة من الرجال للعمل على أرض بضخامة دروغيدا، وبما أن هذه الكلاب قد ربيت

لحراسة القطعان والماشية فقد كانت تبرهن عن ذكاء خارق ولا تحتاج إلا القليل من التوجيه .

وعندما هبط الليل كان الأب رالف والكلاب قد جمعوا كل القطعان في مرعى واحد بمساعدة فرانك الذي كان يحاول جهده أن يقوم بعمله دون نتيجة كبيرة . وكان هذا العمل يحتاج إلى أيام في الأوقات العادية . وترجل الأب عن جواده تحت مجموعة من الأشجار بمحاذاة سياج المرعى الثاني وهو يتكلم عن أمله في أن يتمكن من إجلاء القطيع قبل بدء المطر . كانت الكلاب ترقد فوق العشب وقد تدلت ألسنتها بينما كان قائدها المتوحش الأزرق يهز بذيله ويتمسح بقدمي الأب رالف متودداً . وأخرج فرانك من خرجه قطعاً من لحم الكنغر ، مقرفة ، ورماها للكلاب التي لقفتها وهي تتعارك عليها بحسد .

ــ « يا للوحوش اللعينة » قال فرانك . « إنها لا تتصرف كالكلاب وإنما كالذئاب » .

ــ « أظن أنها أقرب ما أراده الله للكلاب أن تكون » قال الأب رالف برقة . « إنها متيقظة ، ذكية ، عدوانية وغير أليفة تقريباً . وأنا أفضلها على الكلاب المنزلية المدللة » وابتسم . « القطط

أيضاً. ألم تلاحظ القطط تتجول بين الأبنية؟ إنها متوحشة وقاسية كالنمور، ولا تدع إنساناً يقترب منها، لكنها تصطاد بروعة ولا يستطيع إنسان أن يتبجح بكونه سيدها ومعيلها».

وسحب من الخرج قطعة من لحم الضان البارد وحزمة من الخبز وبعض الزبدة، وقطع لنفسه شريحة من اللحم وأعطى الباقي لفرانك، ووضع الخبز والزبد على جذع شجرة بينهما، ثم غرز أسنانه البيضاء في اللحم بابتهاج واضح. وأخيراً روى الاثنان عطشهما من قربة قماشية وأخذا يدخنان.

وأشار الأب رالف بسيجارته إلى شجرة ويلغا وحيدة منتصبة على مقربة:

ـــ سننام هناك، إنه المكان المثالي.

قال هذا وهو يفك غطاءه ويتناول سرج جواده.

وتبعه فرانك إلى الشجرة التي تعتبر من أجمل أشجار أستراليا. كانت أوراقها كثيفة شاحبة الاخضرار وعلى شكل دوائر تقريباً. وكانت أغصانها الرشيقة تتداعى إلى الأرض، وبإمكان الخراف أن تصل إليها بسهولة، ولذا فقد كانت جميع أشجار

الويلغا مقروضة في أسفلها على شكل منتظم جداً وكأن يد البستاني قد قصتها، وهي عند سقوط المطر تؤمّن وقاية أكثر من بقية الأشجار، فالأشجار الاسترالية عادة لم تكن كثيفة الأوراق كأشجار المناطق الأكثر رطوبة.

ــ أنت لست سعيداً يا فرانك، أليس كذلك؟

قال الأب رالف وهو يستلقي متنهداً، ويلف سيجارة أخرى.

ومن مكانه على بضع خطوات استدار فرانك لينظر إليه بارتياب:

ــ وماذا يعني هذا، أن يكون المرء سعيداً؟

ــ إن والدك وأخوتك سعداء في هذه اللحظة، أما أنت فلا. ولا أمك ولا أختك ألا تحب استراليا؟

ــ ليس هذا الجزء منها. إني أريد الذهاب إلى سيدني، فربما حالفني الحظ وكونت من نفسي شيئاً.

ــ سيدني، إيه؟ إنها وكر للظلم. قال الأب رالف مبتسماً.

ــ لا يهمني هذا! فأنا مقيد هنا كما كنت في نيوزيلاندة، ولا أستطيع الإفلات منه.

ـــ منه ؟

ولكن فرانك لم يكن يقصد أن يفضح نفسه فلم يضف شيئاً بل استلقى ينظر إلى الأوراق فوقه .

ـــ كم عمرك يا فرانك ؟

ـــ واحد وعشرون .

ـــ آه ، حقاً ! هل ابتعدت يوماً ما عن أهلك ؟

ـــ كلا .

ـــ هل رقصت يوماً ؟ أليس عندك صديقة ؟

ـــ كلا . ورفض فرانك أن ينادي الأب بلقبه .

ـــ إذن لن يكون بإمكانه الإمساك بك طويلاً .

ـــ إنه لن يفلتني حتى أموت .

وتثائب الأب رالف وهو يستلقي لينام بعد أن تمنى لفرانك نوماً هانئاً .

وفي الصباح كانت الغيوم قد انخفضت جداً ولكن المطر لم يسقط طوال ذلك النهار ، واستطاعوا إخلاء المرعى الثاني . وكانت هناك هضبة قليلة الارتفاع تجتاز دروغيدا من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي ، ولقد سيقت القطعان إلى المرعى الموجود هناك

حيث كان بإمكانها الالتجاء إلى المرتفعات في حالة ارتفاع مياه الجدول ونهر الباروون. وبدأ المطر في الهطول عند هبوط الليل، بينما كان فرانك والكاهن يحثان جواديهما على الجري نحو معبر الجدول تحت بيت القيّم.

ــ «لا معنى لمراعاة الخيل الآن» قال الأب رالف لفرانك. «أغمزها بكل قوة قدميك يا ولدي وإلا فستغرق في الوحل».

وخلال ثوان كانا قد تبللا، وكذلك الأرض القاسية تحتهما، وأصبح التراب الناعم العديم النفاذية بحراً من الوحل غمر عراقيب الجياد التي بدأت تتخبط وتنزلق. واستطاعوا التقدم بسرعة في الأمكنة التي احتفظت بأعشابها، أما قرب الجدول حيث كانت الأعشاب قد سحقت تحت وقع الأقدام المتواصل، فقد كانت الأرض عارية تماماً واضطر إلى الترجل. وما أن تخلصت الجياد من حمولتها حتى اعتدلت مشيتها ولكنه كان من المستحيل على فرانك المحافظة على توازنه، فقد كانت الأرض أسوأ من حلقة تزلج. وزحفا على أيديهما وركبهما إلى أعلى المنحدر قرب الجدول ثم انزلقا كالقذائف. وكان مجرى الجدول الحجري المغطى عادة بأقل من ثلاثين سنتمتراً من الماء المتكاسل يختفي تحت متر وعشرين

سنتمتراً من الزبد المتلاطم، وسمع فرانك الكاهن يضحك. واستطاعت الأحصنة أن تتسلق بصعوبة الضفة الأخرى من الجدول بلا ضرر وقد حثها على ذلك الصياح وضربات القبعات المبللة. ولكن فرانك والأب رالف عجزا عن مجاراتهم، وكانا ينزلقان ثانية كلما حاولا التسلق. وكان الأب رالف يفكر بتسلق شجرة صفصاف قريبة عندما وصل بادي وقد جذبت انتباهه الخيول التي وصلت بدون فرسانها، وكان قد اصطحب معه حبلاً، فجذبهما إلى الضفة.

ــ وابتسم الأب رالف وهو يهز رأسه ويرفض دعوة بادي إلى المنزل:

ــ إنها تنتظرني في المنزل الكبير.

وسمعته ميري كارسون ينادي قبل أن يسمعه أحد من الخدم، لأنه كان قد دار حول البيت حتى وصل إلى واجهته الأمامية ظناً منه أن من الأسهل عليه بلوغ غرفته من تلك الجهة.

ــ لن تدخل البيت بهذا المنظر.

قالت له من مكانها على الشرفة.

ــ إذن كوني لطيفة واحضري لي بعض المناشف من حقيبتي.

وبدون أي إحراج أخذت تراقبه وهو ينتزع عنه قميصه والجزمة والبنطال، وقد استندت على نافذة غرفة الاستقبال المنفرجة بينما كان يمسح الوحل العالق به.

ـ إنك أجمل رجل رأيته في حياتي، يا رالف دو بريكاسار. ما الذي يجعل أغلب الكهنة بهذه الوسامة؟ هل لأنهم إيرلنديون؟ فالايرلنديون غالباً شعب وسيم. أم لأن الرجل الوسيم يجد في الكهنوت ملجأ يختفي وراءه من عقوبة مظهره؟ لا شك أن قلوب الفتيات في غيللي تنزف من أجلك.

ـ «لقد تعلمت منذ زمن طويل ألّا أهتم بالفتيات المريضات بالحب» قال ضاحكاً، «وكل كاهن لم يبلغ الخمسين يجد نفسه هدفاً لولعهن. ولكن ليس هناك إلا الفتيات البروتستينيات اللواتي يحاولن إغرائي بشكل مفضوح».

ـ إنك لا تجيب على أسئلتي بوضوح.

ثم انتصبت ومررت براحة يدها على صدره وأبقتها هناك.

ـ إنك تبدو كالأغريق القدماء يا رالف. إنك تأخذ حمامات شمس أليس كذلك؟ هل كل جسمك أسمر كصدرك؟

وابتسم وهو ينحني إلى الأمام ثم ضحك بينما كانت يداه

تفكان أزرار السروال القطني، وعندما سقط هذا على الأرض، دفعه بقدمه وانتصب في مكانه كتمثال أغريقي بينما كانت العجوز تدور حوله لتتأمله على مهل.

كان اليومان الأخيران قد أرهقاه جداً كما أنه فطن فجأة إلى أنها ربما كانت حساسة أكثر مما كان يتصور. ولكنه كان يعرفها جيداً وشعر أنه في أمان حين سألها:

ـــ هل تريدين أن أذهب معك إلى الفراش يا ميري؟

فنظرت إليه وهي تشخر ضاحكة:

ـــ لن يخطر ببالي أبداً أن أفرض عليك همّاً كهذا الهم. هل أنت بحاجة إلى امرأة يا رالف؟

ـــ كلا. قال وهو يرجع رأسه إلى الوراء بازدراء.

ـــ إلى رجل إذن؟

ـــ إنهم أسوأ من النساء. كلا. لست بحاجة لهم.

ـــ وماذا عن نفسك؟

ـــ آخر من أفكر به.

ـــ رائع.

وفتحت مصراع الباب ودخلت إلى ردهة الاستقبال وهي تردد بسخرية :

ــ رالف ، الكاردينال دو بريكاسار !

ولكنها ، بعيداً عن أنظار الكاهن النفاذة ، تركت نفسها تهوي في مقعدها وقد شدت على قبضتيها في حركة قصدت بها أن تطرد تقلبات القدر .

ونزل الأب رالف درجات الشرفة عارياً إلى أن بلغ الأرض المعشوشبة ، وهناك رفع ذراعيه فوق رأسه وأغمض عينيه وترك المطر يتساقط على جسمه العاري في موجات دافئة ، نفاذة ، منعشة . كان الظلام دامساً ، ومع ذلك فلم يوقظ جسده شيء .

○

وفاض الجدول عن مجراه وارتفعت المياه فغمرت أعمدة منزل بادي ثم أخذت تتجه ناحية المنزل الكبير نفسه .

وعندما ذهب بادي ليقابل ميري ويخبرها بما يحدث ، قلقاً ، أجابته :

ــ سوف تهبط المياه غداً .

وكالعادة كانت على حق، فقد تراجعت المياه خلال الأسبوع وعادت أخيراً إلى مجاريها الطبيعية، وأشرقت الشمس وارتفعت درجة الحرارة إلى خمس وأربعين درجة مئوية في الظل، وبدا كما لو أن العشب قد نبتت له أجنحة تدفعه نحو السماء عالياً، عالياً، نظيفاً وبراقاً كالذهب يعمي الأبصار. والتمعت الأشجار وقد غسلت من الغبار، وعادت جحافل الببغاوات من حيث كانت قد ذهبت عند هطول الأمطار، وحطت على الأشجار كقوس قزح تملأ الجو بثرثرتها التي زادت أضعافاً.

ورجع الأب رالف لإغاثة رعيته المهملة، وهو مطمئن لعلمه بأن رؤساه لن يؤنبوه على غيابه. فتحتَ قميصه الأبيض، قريباً من قلبه، كان هناك شيك بألف ليرة استرلينية. سيطير الأسقف من الفرح.

وأعيدت القطعان من المراعي، واضطرت عائلة كليري أن تأخذ عادة جديدة شائعة في داخل البلاد وهي عادة القيلولة. كانوا ينهضون في الخامسة صباحاً وينجزون أعمالهم قبل الظهر، ثم ينهارون وهم ينتفضون والعرق يتصبب منهم، حتى تبلغ الساعة الخامسة بعد الظهر. وكانت هذه القاعدة تُطبَق على النساء في

البيت وعلى الرجال في المراعي. وأما الأعمال التي لا يمكن القيام بها صباحاً فقد كانت تنجز بعد الخامسة مساء. وكانوا يتناولون العشاء بعد الغياب على طاولة وضعت تحت الشرفة خارجاً. كما أنهم أخرجوا كل الأسرّة لأن الحرارة لم تكن تنخفض خلال الليل، وكان يبدو أن الزئبق لم يهبط في ميزان الحرارة عن سبع وثلاثين درجة مئوية منذ أسابيع، لا ليلاً، ولا نهاراً.

كان لحم البقر قد أصبح ذكرى بعيدة، وكانوا يأكلون لحم الخرفان ويختارون لذلك أصغرها حتى لا يتعفن اللحم إذا بقي مدة طويلة. واشتاقوا لتناول شيء آخر غير شرحات لحم الغنم المشوية، أو يخنة الغنم، أو فطيرة بلحم الغنم، أو لحم الغنم بالكاري، أو فخذ الغنم أو الغنم المسلوق.

وفي أول شهر شباط، تغيرت الحياة فجأة بالنسبة لميغي وستوارت، فقد أرسلوهم كطالبين داخليين إلى الدير في غيللانبون، إذ لم يكن هناك مدرسة في الجوار. وقال بادي أن بإمكان هال أن يتعلم بالمراسلة مع مدرسة «بلاكفريارز» في سيدني عندما يكبر قليلاً، ولكن بما أن ميغي وستوارت كانا معتادين على المعلمين فقد تبرعت ميري كارسون بكرم أن تدفع

نفقات دراستهما وإقامتهما في دير الصليب الأقدس. وفضلا عن ذلك فلم يكن عند «في» الوقت الكافي للإشراف على الدروس بالمراسلة إذ كان هال يستحوذ على أغلب أوقاتها، وكان مفهوماً منذ البداية أن جاك وهوغي لن يتابعا دراستهما فقد كانت دروغيدا بحاجة لهما، وهما قد اختارا الأرض.

ووجد ميغي وستوارت الحياة في دير الصليب المقدس غريبة وهادئة بعد الحياة التي عاشاها في دروغيدا، وخاصة بعد الدراسة في القلب الأقدس في واهيني. وكان الأب رالف قد لمّح إلى الراهبات أن الولدين كانا تحت حمايته، وإن عمتهما هي أغنى امرأة في «ويلز الجنوبية الجديدة». وهكذا فقد تحول حياء ميغي من رذيلة إلى فضيلة، أما انعزالية ستوارت وشروده بعيداً ساعات طويلة فقد أكسباه صفة «القداسة».

كان المكان هادئاً جداً بالفعل وليس به إلا قلة من الطلاب الداخليين، فقد كان أثرياء المنطقة يفضلون إرسال أولادهم إلى المدارس الداخلية بسيدني. وكانت رائحة النظافة والأزهار تفوح في أرجاء الدير وممراته العالية الظليلة مغمورة بالهدوء وبقدسية ملموسة. وكانت الأصوات خافتة، والحياة تجري وراء خمار أسود

شفاف. ولم يكن أحد يضربهما بالقضيب أو يصرخ في وجهيهما ثم كان هناك الأب رالف. كان يأتي غالباً لرؤيتهما ويدعوهما إلى منزله بشكل منتظم، ولهذا فقد قرر طلاء الغرفة التي تنام فيها ميغي بلون تفاحي أخضر رقيق، واشترى ستائر جديدة للنوافذ وغطاء جديداً للسرير. أما ستوارت فقد كان ينام بغرفة كانت فيما مضى مطلية باللون القشدي ثم طليت بالبني. وببساطة، لم يخطر ببال الأب رالف أن يتساءل عمّا إذا كان ستوارت سعيداً، فقد كان وجوده ثانوياً ولم يكن الأب رالف يدعوه إلا أدباً منه وحتى لا يجرح شعوره. ولم يكن الأب رالف يفهم سر هذه العاطفة التي يحملها لميغي، وكذلك لم يُضِع وقتاً في البحث عن السبب. كان شعوره قد بدأ بالشفقة عندما رآها في ذلك اليوم في ساحة المحطة المغبرة وهي تقف في الوراء، معزولة عن بقية العائلة، لكونها انثى بدون شك. وبالعكس فهو لم يكن يتساءل أبداً عن سبب انعزالية فرانك ولم يشعر بالشفقة نحوه، فقد كان عند فرانك شيء يقتل كل عاطفة رقيقة: قلب أسود، وروح ينقصها النور الداخلي. أما ميغي؟ كانت ميغي تحرك أحشاءه بشكل لا يطاق، ولم يكن يعلم لماذا. كان هناك لون شعرها الذي يعجبه، ولون وشكل عينيها، مثل عيني أمها الجميلتين، بل أحلى وأكثر تعبيراً. وطبعها، طبعها

الذي كان يسحره والذي كان يعتبره مثالياً عند المرأة: مسالمة وإنما قوية جداً. ولم تكن ميغي متمردة، وهي بالعكس سترضخ كل حياتها ولن تتجاوز حدود قدرها كامرأة.

ولكن هذه الأسباب كلها لم تكن كافية لتفسير تعلقه بها. ربما لو نظر في أعماق نفسه، لوجد أن ما يشعر به ناحيتها، هو نتيجة لخليط عجيب بين الزمان والمكان والإنسان. لم يكن أحد يعطي ميغي أية أهمية، وهذا يعني أن في حياتها مكان فارغ يستطيع هو أن يحتله وهو متأكد من حبها؛ وكانت طفلة، وهذا يعني أنها لا تشكل خطراً على طريقته في الحياة أو على سمعته ككاهن؛ وكانت جميلة، وكان يستمتع بالجمال، وشيء آخر كان من الصعب أن يعترف به، فقد كانت تملأ في حياته فراغاً عجز ربه عن ملئه، لأنها كانت، خلافاً لله، تملك حرارة وكياناً بشرياً.

وبما أنه لم يكن يريد إحراج عائلتها بتقديم الهدايا لها، فقد كان يعتاض عنها بالبقاء برفقتها أطول وقت ممكن، ويكرس وقته وفكره لتزيين غرفتها في بيته، ولم يكن يبغي من هذا رؤيتها سعيدة بقدر ما كان يبحث عن إطار يليق بهذه الجوهرة وهو يرفض كل شيء مزيّف لميغي.

وفي مطلع شهر أيار، بدأ الجزازون يصلون إلى دروغيدا، وكانت ميري كارسون على علم بكل ما يجري على أرض دروغيدا، من توزيع القطعان إلى أصغر ضربة سوط. وقبل قدوم الجزازين ببضعة أيام، استدعت بادي إلى المنزل الكبير ودون أن تتحرك من مقعدها المجنح أخبرته بما هو مطلوب منه بأدق التفاصيل، وإذ كان معتاداً على الجز في نيوزيلاندة، فكان قد ذهل لحجم سقيفة الجز الهائل بمواقفها الستة والعشرين. والآن وبعد مقابلة أخته، كانت الأرقام والحقائق تدور في رأسه. فسوف يُجزّ في دروغيدا ليس فقط قطعان دروغيدا وإنما قطعان بوغيلا، وديبان ــ ديبان، وبيل ــ بيل. وهذا يعني عملاً مضنياً لكل من يعيش في دروغيدا، رجلاً كان أم امرأة. فالجز الجماعي كان شائعاً ومن الطبيعي أن يساهم مربو الماشية الذين يستفيدون من تسهيلات دروغيدا بنصيبهم من التعب، ولكن القسم الكبير من الأعباء الإضافية سيقع على كتف من يعيشون في دروغيدا.

كان الجزازون سيأتون معهم بطباخيهم ويشترون غذاءهم من مخزن المحطة، هذا صحيح، ولكنه كان من الضروري تأمين هذه الكميات الهائلة من الطعام، وكان يجب إعداد وتنظيف

الأكواخ الخشبية المتداعية والمطبخ والحمّام البدائي الملحقين بها، وتزويدها بالفرش والأغطية. ولم تكن بقية المحطات كريمة مثل دروغيدا مع جزازيها، ولكن دروغيدا كانت تفتخر بحسن ضيافتها وبالسمعة التي حصلت عليها كـ «مكان رائع»، ولأن هذا كان النشاط الوحيد الذي تشارك به ميري كارسون، ولم تكن تنظر إلى النفقات.

ولم تكن دروغيدا فقط واحدة من أكبر مراكز الجز في «ويلز الجنوبية الجديدة» وإنما كانت تتطلب وجود أفضل الرجال الذين من الممكن العثور عليهم من نوع «جاكي هوو» وقد كان هناك ثلاثمئة ألف خروف تنتظر الجز قبل أن يلقي الجزازون بصرر ملابسهم على شاحنة المتعهد القديمة ويبتعدون بانتظار موسم آخر.

لم يكن فرانك قد عاد إلى المنزل منذ أسبوعين. كان قد ذهب إلى المراعي الغربية البعيدة ليسوق القطعان للجز، برفقة مربي الماشية العجوز «بيربارل بيت» وقطيع من الكلاب، وحصانين وعربة خفيفة تجرها فرس هرمة عنيدة وتحمل حوائجهم البسيطة. وكانوا ينتقون الخرفان الصالحة للجز بمعدل تقدمهم ثم يعزلونها عن

البقية. وكان هذا العمل بطيئاً ومملاً إذا قورن بالتجميع السريع الذي قاموا به قبل الفيضان. وكان لكل مرعى حظائره الخاصة حيث يجري الانتقاء والدمغ، وحيث تُحتجز الحيوانات حتى يأتي دورها. وكانت حظائر سقائف الجز لا تتسع إلا لعشرة آلاف رأس، وهكذا فلن تكون الحياة سهلة مادام الجزازون هنا، بل سيكون هناك رواح ومجيء بلا نهاية لاستبدال الغنم المجزوز بالذي سيُجز.

وعندما دخل فرانك إلى المطبخ، كانت أمه واقفة قرب المغسلة تقوم بالعمل الذي لا ينتهي أبداً: تقشير البطاطا.

ـــ لقد عدت يا أماه. قال والفرح في صوته.

وعندما استدارت رأى بطنها. واحمّر وجهها خجلاً، فوضعت يديها على فوطتها المنتفخة وكأنما باستطاعتها إخفاء ما لم تستطع ملابسها إخفاءه، وكان فرانك يرتجف:

ـــ الخنزير القذر العجوز!

ـــ فرانك، إني لا أسمح لك بترديد كلام كهذا. أنت رجل الآن، وتستطيع أن تفهم. ليس هناك أي اختلاف في الطريقة التي أتيت بها أنت إلى العالم، وهذا يستحق الاحترام نفسه. وليس

هناك أية قذارة. وأنت عندما تشتم أباك فإنما تشتمني أنا أيضاً.
ـــ ليس له الحق في ذلك، كان عليه أن يتركك وشأنك.

كان الكلام يخرج من شفتيه كالصفير، ومد يده ومسح فقاعات من اللعاب تجمعت في زاوية فمه المرتعش.
ـــ «إن هذا ليس بالقذر»، رددت بإرهاق وهي تنظر إليه بعينيها الصافيتين المتعبتين وكأنها قد قررت أن تضع الحياء وراءها إلى الأبد. «هذا ليس قذراً، ولا العمل الذي خلقه».

وهذه المرة أحمّر وجهه. لم يكن باستطاعته أن يتحمل نظراتها وقتاً أطول، ولهذا فقد أدار ظهره وذهب إلى الغرفة التي يتقاسمها مع بوب، وجاك، وهوغي. ونظرت إليه جدرانها العارية، وأسرّتها الضيقة، بسخرية، كان هناك سريره المجدب الكئيب بدون كائن يدفئه بوجوده، وبدون هدف يقدسه، وكان هناك وجه أمه، وجه أمه الجميل المتعب، محاطاً بهالة من الشعر الذهبي، ومشعاً لأنها تحس في بطنها بنتيجة ما فعلته هي وذلك الخنزير الأشقر في حرارة الصيف الملهبة. لم يكن يستطيع أن يهرب من ذلك، لم يكن يستطيع أن يبعد صورة أمه ولا الأفكار التي كانت تدور في رأسه، ولا الجوع الطبيعي الذي يحس به كل الشباب في

سنه. كان يتوصل في أغلب الأوقات إلى طرده إلى اللاشعور، ولكن عندما كانت أمه تتباهى أمام عينيه بهذا الدليل على شهوتها وترمي بوجهه نشاطها السري الذي قامت به مع ذلك الحيوان العجوز .. فكيف يستطيع أن يتخيله؟ كيف يستطيع أن يتقبله؟ كيف يستطيع أن يتحمله؟ كان يريد أن يفكر بأمه وكأنها قديسة تماماً، نقية بلا وصمة «كالعذراء الطاهرة»، ككائن أكبر من هذه الأشياء رغم أن كل أخواتها في جميع أنحاء العالم يرتكبن الإثم نفسه. وحين يراها تحطم الصورة التي صنعها لها، يكاد يجن، ولكي يبقى سليم العقل كان يجبر نفسه على أن يتصورها مستلقية إلى جانب هذا العجوز القبيح، بعفة كاملة، لتنام فقط، وليس لكي تستدير نحوه أو يستدير نحوها في الليل، أو يلمسها. آه يا إلهي! ووصلت إلى أذنيه ضجة معدنية، فنظر إلى الأسفل ليكتشف أنه كان قد لوى قائمة السرير النحاسية.

ــ «من المؤسف أنك لست أبي». قال مخاطباً السرير.

ــ فرانك.

ونظر إليها وعيناه السوداوان تلمعان مبللتين كالفحم تحت المطر.

ــ سوف أقتله ذات يوم. قال.

ـــ إن فعلت هذا فسوف تقتلني أنا أيضاً . قالت « في » وهي تجلس على حافة سريره .

ـــ كلا بل سأحررك . أجابها بعنف وقد أعاد إليه الأمل حيويته .

ـــ فرانك ، ليس بمقدوري أن أتحرر أبداً ، ولا أرغب في التحرر . كم أتمنى أن أعرف من أين يأتيك هذا العمى ، ولكنني لا أعلم ، فهو ليس مني ولا من والدك . إني أعلم أنك لست سعيداً ولكن هل تنتقم مني ومن والدك لهذا السبب ؟ لماذا تصر على تصعيب الأمور كلها ؟ لماذا ؟

ونظرت إلى يديها ، ثم نظرت إليه ثانية :

ـــ لا أريد أن أقول هذا ولكني أظن أن من الواجب قوله : لقد حان الوقت لتجد لنفسك فتاة يا فرانك وتتزوج وتؤسس عائلة لنفسك . إن المكان واسع في دروغيدا . أنا لم أقلق أبداً على أخوتك بهذا الخصوص ، فطبيعتهم مغايرة تماماً لطبيعتك ، ولكنك بحاجة إلى زوجة يا فرانك ، فلو كان عندك زوجة لما بقي لك الوقت الكافي لتفكر بي .

فأدار ظهره لها ولم يقبل أن ينظر إليها . وجلست هناك حوالي خمس دقائق آملة أن يقول شيئاً . ثم تنهدت وهي تنهض وغادرت الغرفة .

الفصل الخامس

بعد أن رحل الجزازون واستقرت المقاطعة في سباتها الشتوي، أتى عيد غيللانبون السنوي بكل ما يحويه من استعراضات وسباق خيل ونزهات في الهواء الطلق. وكان هذا أهم الاحداث الاجتماعية في تقويم غيللانبون السنوي، وفيه تدوم الاحتفالات يومين بكاملهما. ولم تكن صحة «في» تسمح لها بالذهاب إلى الاحتفال، وهكذا فقد قاد بادي ميري كارسون إلى المدينة، بسيارتها الرولز رويس دون أن تكون زوجته إلى جانبه لتساعده على الاحتفاظ بلسان ميري كارسون في «حالة الصمت». وكان قد لاحظ أن وجود زوجته، لأسباب غامضة، يهدىء أخته ويخفف من عجرفتها.

كان الجميع ذاهبين للاحتفال، وتحت التهديد بالذبح إذا لم يتصرفوا بلباقة، ذهب الفتيان مع بيربال بيت، وجيم، وتوم، والسيدة سميث، وخادمات المنزل في الشاحنة، ولكن فرانك كان قد غادر البيت باكراً وحده في سيارة الفورد «ت». وكان كل الراشدين يزمعون البقاء لليوم التالي لحضور السباق، ولأسباب لا يعلمها غيرها، رفضت ميري كارسون ضيافة الأب رالف في بيت الكاهن، ولكنها حثت بادي على قبول الدعوة هو وفرانك. ولم يكن أحد يعلم أين سينام مربيا المواشي الاثنان وتوم وعمال الحديقة، ولكن السيدة سميث، وميني، وكات كن سيقضين الليل في المدينة، عند بعض الأصدقاء.

كانت الساعة قد بلغت العاشرة صباحاً عندما أنزل بادي أخته في أفضل الغرف من فندق الـ «امبريال» ثم شق طريقه نازلاً إلى المشرب حيث وجد فرانك واقفاً وبيده كأس من البيرة.

ـــ «إني سأقدم لك الكأس التالية يا عزيزي» قال بادي بلطف مخاطباً ابنه. «عليّ أن أصطحب عمتك إلى حفلة الغناء في الهواء الطلق قبل موعد السباق وأنا بحاجة إلى ما يرفع لي معنوياتي، إذ أن عليّ أن أتحمل كل هذه التجربة بدون أن تكون أمك إلى جانبي».

من الصعب جداً أن يتغلب الإنسان على عاداته وخوفه ، ولا يصدق المرء هذه الصعوبة حتى تأتي اللحظة التي يحاول فيها فعلاً أن يتخلص من قبضة هذه العادات وهذا الخوف . وقد وجد فرانك نفسه عاجزاً عن أن يفعل ما كان يتشوق لفعله منذ قرون ، لم يتمكن من أن يقذف كأس البيرة الذي كان يحمله بوجه والده . لا ، ليس أمام كل هذا الحشد الموجود في الحانة ، وهكذا فقد ابتلع دفعة واحدة ما كان في كأسه وابتسم لوالده ابتسامة ملتوية وقال :

ـ آسف يا أبي ، لقد وعدت بعض الشبان بمقابلتهم في مكان الاستعراض .

ـ حسناً ، اذهب إذن ، ولكن انتظر قليلاً ، خذ هذه وانفقها على نفسك ، تمتع بوقتك وإذا سكرت لا تدع أمك تعلم بذلك .

ونظر فرانك إلى الورقة النقدية بقيمة خمس ليرات استرلينية التي كان أبوه قد وضعها في يده ، وهو يتشوق لتمزيقها إرباً ويرميها في وجه بادي . ولكن العادة أوقفته مرة ثانية ، فطواها ووضعها في جيبه وشكر أباه ثم غادر الحانة بأسرع ما يمكنه .

وكان بادي يرتدي أجمل ملابسه ، كان طقمه أزرق اللون وله سترة بأزرار ، وقد حمل ساعة ذهبية علقت بسلسلة ذهبية ، أما

وفي مطلع شهر أيار ، بدأ الجزازون يصلون إلى دروغيدا ، وكانت ميري كارسون على علم بكل ما يجري على أرض دروغيدا ، من توزيع القطعان إلى أصغر ضربة سوط . وقبل قدوم الجزازين ببضعة أيام ، استدعت بادي إلى المنزل الكبير ودون أن تتحرك من مقعدها المجنح أخبرته بما هو مطلوب منه بأدق التفاصيل ، وإذ كان معتاداً على الجز في نيوزيلاندة ، فكان قد ذهل لحجم سقيفة الجز الهائل بمواقفها الستة والعشرين . والآن وبعد مقابلة أخته ، كانت الأرقام والحقائق تدور في رأسه . فسوف يُجزّ في دروغيدا ليس فقط قطعان دروغيدا وإنما قطعان بوغيلا ، وديبان ـــ ديبان ، وبيل ـــ بيل . وهذا يعني عملاً مضنياً لكل من يعيش في دروغيدا ، رجلاً كان أم امرأة . فالجز الجماعي كان شائعاً ومن الطبيعي أن يساهم مربو الماشية الذين يستفيدون من تسهيلات دروغيدا بنصيبهم من تعب ، ولكن القسم الكبير من الأعباء الإضافية سيقع على كتف من يعيشون في دروغيدا .

كان الجزازون سيأتون معهم بطباخيهم ويشترون غذاءهم من مخزن المحطة ، هذا صحيح ، ولكنه كان من الضروري تأمين هذه الكميات الهائلة من الطعام ، وكان يجب إعداد وتنظيف

شرحت آني للأب عندما سألها عن سبب حبها للصغيرة، فهي لم تكن عادة تحب البنات الصغيرات، وكانت تشكو دائماً من وجود البيت بقرب المدرسة.

ـــ «هيا، هيا يا آني! إن الشعر شيء لا حياة فيه، ولا يمكنك أن تحبي أحداً بسبب لون شعره فقط». قال ذلك ليثيرها.

ـــ حسناً.

ثم انطلقت في سلسلة من التفسيرات الحماسية بلهجتها الاسكتلندية، حتى أن الأب تمنى لو لم يلح عليها بالسؤال، فأحياناً كان من الأفضل ألّا يحاول فهم ما تقوله آني بتعابيرها الغريبة التي تتدحرج كالحصى من بين شفتيها، وألّا يعير اهتماماً إلى حديثها. وإذا كان يشعر بالشفقة تجاه الصبية فهو لن يكن يرغب في أن يخبره أحد أن ذلك كان بسبب ما يكنه لها المستقبل وليس بسبب ماضيها.

ووصل فرانك وكان لا يزال يرتجف مضطرباً من مقابلته مع أبيه في الحانة، ومد يده لأخته قائلاً:

ـــ هيا بنا يا ميغي، سوف آخذك إلى الاحتفال.

ـــ «ولم لا آخذكما أنتما الأثنين؟» قال الأب رالف وهو يمد يده، هو الآخر.

ومشت ميغي بين أحب رجلين إلى قلبها وقد تعلقت بشدة بيديهما وهي تشعر أنها في السماء السابعة.

كان مكان المعرض يقع على ضفة نهر الباروون، بقرب ميدان السباق. ورغم أن الفيضانات كانت قد تلاشت منذ ستة أشهر فلم يكن الوحل قد جف تماماً، وكانت أقدام القادمين المبكرين قد حولته إلى مستنقع. ووراء مرابط أجمل نماذج القطعان والماشية والخنازير والماعز التي جاءت للمباراة، كانت الخيام قد نصبت مليئة بالأشغال اليدوية والمأكولات من كل صنف. ومرّ الثلاثة بين رفوف المعرض التي كانت تقدم للناظرين خليطاً من الحلوى، والشالات المشغولة بالصنارة، وملابس الأطفال الصوفية، والأغطية المطرزة، والقطط، والكلاب، وطيور الكنار. ومن الجهة الأخرى، كان ميدان السباق حيث كان الفرسان والفارسات يعرضون جيادهم القصيرة الذيول أمام الحكام الذين كانوا، هم أنفسهم، يشبهون الجياد، أو هكذا بدوا لميغي التي كانت تضحك خفية. وكانت الفارسات في ثياب الركوب الرائعة، يجلسن جانبياً على الجياد الرشيقة وقد اعتمرن قبعات عالية يحيط بها خمار من الموسلين الناعم يتطاير مع هبات الهواء الخفيفة.

كيف يمكن لامرأة جالسة بهذه الطريقة المتقلقلة وعلى رأسها قبعة من هذا النوع، أن تدع فرسها تتجاوز الرهو وتبقى هي هادئة؟ هذا ما لم تستطع ميغي فهمه إلى أن رأت مخلوقة رائعة تقود فرسها في سلسلة من القفزات الصعبة وتتوقف دون أن تهتز شعرة من رأسها. ثم ما لبثت السيدة أن همزت مطيتها بنفاذ صبر، فانطلقت هذه خبباً عبر الأرض الموحلة، ثم توقفت أمام ميغي وفرانك والأب رالف معترضة طريقهم، وجذبت السيدة قدمها المغطاة بجزمة سوداء لامعة وحررتها من السرج، فرأت ميغي أنها كانت تجلس فعلاً على جانب سرجها، ومدت السيدة يدها المغطاة بالقفاز بعجرفة وقالت:

ـــ يا أبت، كن لطيفاً وساعدني على الترجل.

ومد يديه وأحاط بهما خصرها بينما وضعت يديها على كتفيه وقفزت بخفة إلى الأرض، وما أن لمس كعباها الأرض حتى تركها الكاهن وقبض على عنان الفرس بيده وتابع سيره والسيدة بجانبه تتبع خطواته الواسعة بدون صعوبة.

ـــ هل ستربحين في سباق الصيد يا آنسة كارمايكل؟

سألها الأب بكثير من اللامبالاة.

فزمت الشابة الجميلة شفتيها، مستاءة من لهجة الكاهن المترفعة اللامبالية:

ــ إني آمل ذلك، ولكني لست متأكدة. إن الآنسة هويتون والآنسة انطوني كنغ تشتركان في المباراة، ومع ذلك فإني سأربح مباراة الترويض، وإذا لم أربح في الصيد فلن أشكو أو أتضايق.

كانت تلفظ حروفها بطريقة جميلة جداً، وعباراتها تدل على أنها تلقت تربية جيدة جداً، حتى أنه لم يبق في كلامها أي أثر لحرارة أو للهجة تلون صوتها. وبينما كان الأب رالف يحادثها تغيرت لهجته هو، فبدت مصقولة أكثر وقد اختفت منها لكنته الايرلندية الخفيفة، وكأنها قد أعادته إلى زمن كان به هو أيضاً يتكلم مثلها. وقطبت ميغي حاجبيها متعجبة وقد تأثرت من حديثهما الخفيف المتسم بالحذر. ولم يكن بإمكانها أن تفهم طبيعة التغير الذي حدث عند الكاهن، وكل ما تعلمه هو أنه تغير فجأة وليس كما تشتهي. وأفلتت يد فرانك إذ لم يعد بإمكانهم أن يتقدموا صفاً واحداً.

وأثناء ذلك الوقت، كانوا قد وصلوا إلى بريكة ماء تقطع طريقهم، وكان فرانك بعيداً وراءهم. ورقصت عينا الأب وهو ينظر

إلى الماء الذي كان كالمستنقع، والتفت إلى الصغيرة وكان لا يزال يقبض على يدها بشدة، وانحنى فوقها بحنان واضح لم تغفل السيدة عن ملاحظته فلقد كان غائباً تماماً من حديثه معها وقال:

ــ إني لا أرتدي معطفاً فضفاضاً يا عزيزتي ميغي وإلا لحملتك مثل البطل «والتر رالي» وأنا متأكد أنك ستعذريني يا عزيزتي الآنسة كارمايكل ــ قال وهو يعطيها عنان الفرس ــ ولكني لا أستطيع أن أترك طفلتي المفضلة تلوث حذاءها بالوحل، أليس كذلك؟

ورفع ميغي بخفة ووضعها على ردفه تاركاً الآنسة كارمايكل تجمع بيد واحدة أسفل تنورتها الثقيل، وتمسك زمام الحصان باليد الأخرى، وتجتاز بقعة الماء الموحلة دون مساعدة أحد. وتصاعدت من ورائها ضحكة فرانك المجلجلة ولم يساعدها هذا كثيراً على تحسين مزاجها، وفي الجهة الأخرى من البريكة تركتهم فجأة ومشت.

ــ «أظن أنه لو كان بإمكانها ذبحك لفعلت» قال فرانك بينما كان الأب رالف ينزل ميغي. وكانت تلك المقابلة قد سحرته وكذلك جفاء الأب رالف المتعمد.

وكانت الشابة قد بدت لفرانك جميلة جداً ومتغطرسة جداً بشكل يجعل من المستحيل أن يعاملها رجل بهذا الشكل، حتى لو كان هذا الرجل كاهناً، ومع ذلك فقد قرر الأب أن يحطم ثقتها بنفسها وبهذه الأنوثة العنيدة التي كانت تستخدمها كسلاح، وكما لو أن الأب كان يكرهها ويكره ما تمثله ــ فكر فرانك ــ وهي تمثل عالم النساء، هذا السر الرائع الذي لم تسنح له الفرصة أبداً لسبره. وكانت كلمات أمه لا تزال ترن في أذنيه، وتمنى لو أن الآنسة كارمايكل تلاحظ وجوده، وهو أكبر أولاد وريث ميري كارسون، ولكنها لم تتنازل قط ولم تلاحظ وجوده، فقد كان كل انتباهها مركزاً على الكاهن، هذا الكاهن الذي ليس هو بالرجل، ولا بالامرأة بالرغم من قامته وسمرته ووسامته.

ــ «لا تقلق، إنها ستعود مطالبة بالمزيد» قال الأب رالف بسخرية». إنها ثرية، ولهذا فكن واثقاً أنها نهار الأحد القادم ستضع متباهية عشر ليرات استرلينية في صينية الكنيسة، لمجرد لفت الأنظار».

وضحك أمام التعبير الذي ظهر على وجه فرانك:

ــ إني لست أكبر منك بكثير يا بني، ولكني على الرغم من

مهنتي خبير بالناس والحياة. ولا تحكم علي بقسوة من أجل هذا، فالتجارب علمتني أشياء كثيرة.

كانوا قد غادروا حلبة السباق ودخلوا منطقة الألعاب والتسلية، وكان كل شيء يبدو كالسحر بالنسبة لميغي ولفرانك أيضاً. كان الأب رالف قد أعطى خمس شلنات بكاملها لميغي، بينما كان فرانك لا يزال يملك الخمس الليرات التي كان والده قد أعطاه إياها. كم من الرائع أن يمتلك المرء قيمة بطاقة الدخول إلى كل هذه المغريات!

كان المكان يعج بالبشر، والأطفال يتراكضون في كل الاتجاهات وينظرون بعيون واسعة إلى اليافطات المثيرة المعلقة أمام الخيام القماشية: «أضخم امرأة في العالم»، «الأميرة حوري، ساحرة الثعابين، تعالوا وانظروا إليها تهدىء غضب الكوبرا»، «الهندي الكاوتشوكي، غوليات، أقوى رجل في العالم»، «تيتيس، حورية البحر». وأمام كل هذه العجائب، كانوا يدفعون قروشهم وينظرون بنهم، دون أن يفطنوا إلى حراشف تيتيس الصدئة، ودون أن يلاحظوا أنه لم يبق ناب واحد في فم الأفعى العجوز.

وفي الجهة الأخرى، انتصبت خيمة عظيمة الاتساع،

وأمامها منصة خشبية انتشرت خلفها، وعلى طولها، أشكال بشرية مرسومة، تهدد الحشد. وكان هناك رجل يمسك بمكبر للصوت في يده ويصيح منادياً الجمهور:

ــ ها هي جماعة «جيمي شيرمان» المشهورة أيها السادة. ثمانية من أكبر أبطال العالم في الملاكمة، هناك مكافأة لمن يريد منكم أن يجرب حظه معهم.

وكانت النساء والفتيات يبتعدن عن المكان بالسرعة نفسها التي كان الرجال والشباب يقتربون بها من كل الجهات، ويتحلقون متلاصقين تحت المنصة.

وبوقار المحاربين الرومان القدماء، تقدم ثمانية رجال على المنصة ثم توقفوا وأيديهم على أردافهم، وسيقانهم متباعدة وقد نفخوا صدورهم أمام هتافات الإعجاب من الجمهور. وظنت ميغي أنهم يرتدون ملابس داخلية لأنهم كانوا يرتدون ملابس سوداء لاصقة تغطي أجسامهم بكاملها، وفوقها سترة قصيرة رمادية وبنطال قصير باللون نفسه، وعلى صدورهم كتبت هذه الكلمات بخط عريض «فريق جيمي شيرمان». ولم يكن بينهم اثنان متشابهان، فمنهم من كان طويلاً، ومنهم قصيراً، ومنهم بين بين،

ولكنهم كانوا جميعاً يتمتعون بالوسامة. وكانوا يثرثرون ويتضاحكون كما لو أن ما يحدث كان شيئاً طبيعياً يجري يومياً معهم، وكانوا ينفخون عضلاتهم ويحاولون ألّا يبدوا مستمتعين جداً بهذا العرض.

ــ «هيا يا شباب. من منكم يريد أن يلبس قفازات الملاكمة؟»

صاح المنادي. «من يريد أن يجرب حظه؟ البسوا القفازات واربحوا خمس ليرات!» وضرب على الطبل.

ــ «أنا» صاح فرنك. «أنا».

وانتزع نفسه من يدي الأب رالف الذي كان يحاول الإمساك به، بينما كان المتفرجون المحيطون بهم يضحكون من قصر قامة فرانك ويدفعونه بابتهاج نحو الحلبة.

وحافظ المنادي على مظهره الجدي عندما مد أحد أفراد الفريق يده بوّد إلى فرانك وساعده على صعود الدرج لينضم إلى الملاكمين الثمانية على المنصة.

ــ لا تضحكوا أيها السادة، إنه ليس طويلاً ولكنه أول من تقدم متطوعاً! ففي القتال لا أهمية لحجم الكلب إنما الذي يهم هو ما يملكه في داخله! ها هو شاب قصير القامة يملك الشجاعة ليجرب حظه... ماذا تنتظرون؟ أين الشبان طوال القامة، إيه؟

هيا البسوا القفازات وستربحون خمس ليرات إذا صمدتم حتى النهاية أمام أحد أبطال جيمي شيرمان .

وشيئاً فشيئاً امتدت صفـوف المتطـوعين وكبرت ، وكان الشبان يديرون قبعاتهم بين أيديهم بحياء وهم يرمقون الملاكمين المحترفين الواقفين بقربهم . نخبة من الملاكمين . وكان الأب رالف يتحرق ليرى ما الذي سيحدث ولكنه قرر غصباً عنه أن الوقت قد حان لإبعاد ميغي عن هذه المناظر ، وهكذا حملها بين ذراعيه واستدار ليغادر المكان ، ولكن ميغي أخذت بالصراخ وكلما ابتعد بها كلما تعالى صياحها ، وبدأ الناس ينظرون إليهما وإذ كان الأب معروفاً جداً فقد كان موقفه حرجاً جداً ومسيئاً لسمعته .

ــ اصغي إلي يا ميغي ، ليس بإمكاني أن آخذك إلى هناك لأن والدك سيسلخني حياً لو فعلت .

ــ « أريد أن أبقى بقرب فرانك ، أريد أن أبقى بقرب فرانك » صاحت مولولة بأعلى صوتها وهي ترفسه بقدميها وتحاول أن تعضه .

ــ آه ، اللعنة . قال الأب رالف وهو يرى أنه لا بد من الرضوخ للأمر الواقع ، ومد يده إلى جيبه يبحث عن قطعة نقدية

ليشتري بطاقة دخول إلى الخيمة وهو ينظر بطرف عينه بحثاً عن أحد أخوتها، ولكنه لم ير أحداً منهم في الجوار واستخلص من هذا أنهم كانوا بلا شك يجربون حظهم بألعاب أخرى أو يملؤون بطونهم بالحلوى والمرطبات.

ــ «ليس بإمكانك إدخالها أيها الأب» قال الرجل الجالس وراء الصندوق باستنكار.

ورفع الأب عينيه إلى السماء:

ــ لو تستطيع أن تخبرني كيف نخرجها من هنا دون أن توقفنا شرطة غيللي بكاملها متهمة إيانا بالنيل من الأطفال، فسأذهب وأنا مسرور! ولكن أخاها قد تطوع للملاكمة وهي لن تتركه وحده هكذا دون شن هجوم يجعل أبطالكم يبدون هواة بقربها.

وهز الشاب بكتفيه وقال:

ــ حسناً يا أبت، لا أستطيع مناقشتك، أليس كذلك؟ ادخل، ولكن حاول أن تبقيها هادئة بـ.. بحق السماء... كلا، كلا يا أبت، احتفظ بنقودك، لن يُسَر جيمي إذا عرف أنك دفعت ثمن البطاقة.

كانت الخيمة تبدو مليئة بالرجال والصبية وقد تجمعوا حول

الحلبة المركزية، وعثر الأب رالف على مكان وراء الحشد بقرب الحائط القماشي وهو متمسك بميغي بشدة. وكان الجو عابقاً بدخان التبغ وبرائحة نشارة الخشب المنشورة على الأرض كي تشرب الماء من الوحل. وكان فرانك قد وضع القفازين في يديه فهو أول المتبارين لهذا اليوم.

ومع أن ذلك لم يكن مألوفاً، إلا أنه كان يحدث أن يتغلب شخص عادي على أحد الملاكمين المحترفين. وبالطبع لم يكن هؤلاء أفضل ملاكمي العالم، ولكن البعض منهم كانوا من أفضل الملاكمين في استراليا. وبسبب قامة فرانك فقد وضعوا أمامه ملاكماً من الوزن الخفيف «وزن الذبابة» ولقد تغلب عليه فرانك بثالث ضربة وجهها له ثم طلب أن يلاكم واحداً آخر. وعندما وصل إلى الملاكم الثالث، كانت الأخبار قد تسربت إلى الخارج ولم تعد الخيمة تتسع لمتفرج واحد إضافي. ولم يكن فرانك قد تلقى ضربة قفاز واحدة تقريباً، وأما الضربات القليلة التي مسته، فلم تفعل إلا إشعال غيظه المكبوت. كانت عيناه تلمعان ببريق الجنون، والزبد يصعد إلى شفتيه في غضبه المتصاعد وهو يرى وجه بادي في وجوه كل من خصومه، وكانت صرخات الجمهور

وتشجيعاته تصل إلى دماغه كصوت واحد يردد : اضرب ، اضرب ، اضرب! آه كم تحرّق كي تسنح له الفرصة ويقاتل، هذه الفرصة التي هربت منه منذ أتى إلى دروغيدا! لأن القتال كان الطريقة الوحيدة التي تنفس عن سخطه وألمه . وبينما كان يسدد ضربة أخيرة لخصمه الذي سقط ، ظن أن الصوت الرتيب في أذنيه قد غيّر كلمات أغنيته وأخذ يردد : اقتله ، اقتله ، اقتله . ومن ثم وضعوه أمام بطل حقيقي ، من الوزن الخفيف أيضاً ، وكان قد تلقى أوامر تقضي بألا يقترب كثيراً من فرانك وأن يحاول معرفة إن كان بإمكانه أن يلاكم كما يضرب . وكانت عينا جيمي شرمان تلمعان بشدة ، فقد كان وراء الأبطال ، وهذا الاحتفال الصغير القروي قد سمح له باكتشاف العديدين . وفعل الوزن الخفيف كما قيل له ، وقد تضايق رغم قدرته على تسديد الضربات الطويلة ، بينما كان فرانك يستبسل وراء هذا الخيال المتواثب أمامه والذي يفلت منه بلا انقطاع ، وقد تملكته الرغبة في قتله حتى أنه لم يعد يرى أمامه شيئاً آخر . وكان يتلقى درساً من كل تلاحم ومن كل ضربة لأنه كان واحداً من هذه المخلوقات العجيبة التي يمكنها أن تفكر حتى وهي تحت سلطان غضب شيطاني . ولقد صمد حتى النهاية رغم الضربات المحكمة التي كان يسددها له خصمه الخبير ، وكانت

إحدى عينيه قد انتفخت وجرح حاجبه وشفته. ولكنه ربح عشرين ليرة استرلينية بالإضافة إلى احترام الحضور كلهم.

وتخلصت ميغي من ذارعي الأب رالف في لحظة عدم انتباه وجرت كالقذيفة خارج الخيمة قبل أن يستطيع الإمساك بها. وعندما عثر عليها في الخارج كانت قد تقيأت وتحاول أن تنظف حذاءها الملطخ بمنديل صغير. وبدون كلمة مد لها منديله وهو يربت على رأسها البراق الذي هزته الزفرات. وكان الجو في الداخل قد هيج حنجرته هو أيضاً وتمنى لو كان وقار ثوبه يسمح له بإراحة معدته في مكان عام.

ـــ هل ترغبين بانتظار فرانك أو تفضلين الذهاب الآن؟

ـــ «سوف انتظره» تمتمت وهي تستند إليه شاكرة له هدوءه وتفهمه.

ـــ «لست أدري لماذا تستحوذين على قلبي الذي لا وجود له، بهذه الطريقة!» تمتم الأب بين أسنانه وكان يظن أنها تعبة جداً وتعيسة جداً ولن تسمعه، ولكنه كان يشعر بالحاجة للتعبير عن أفكاره بصوت مرتفع كما يفعل عادة كل من يعيش وحيداً. «أنت لا تذكرينني بأمي، وليس لي أخوات، وكم أود أن أعرف

طبيعة هذا السحر الذي يقطنك أنت وعائلتك البائسة ... هل كانت الحياة قاسية عليك يا صغيرتي ميغي ؟ » .

وخرج فرانك من الخيمة وفوق عينه ضمادة، بينما كان يمسح شفته المشقوقة، ولأول مرة منذ عرفه الأب رالف كان فرانك يبدو سعيداً، سعيداً بهذه السعادة التي تظهر على وجوه أغلب الرجال بعد ليلة هنيئة قضوها بقرب امرأة. فكر الأب رالف.

ـ ماذا تفعل ميغي هنا ؟

سأل فرانك بخشونة ولم تكن آثار الحماس الذي شعر به في الحلبة قد زالت بعد عن وجهه.

ـ « لم يكن بإمكاني أن أبقيها بعيدة عن هذا المكان إلا إذا كبلت يديها وقدميها، ووضعت كامة على فمها أيضاً » أجاب الأب رالف بلهجة جافة، فهو لم يكن يحب أن يبرر أعماله، كما لم يكن يرغب في اجتذاب الأنظار الفضولية. « لقد كانت خائفة عليك يا فرانك، وأرادت أن تكون قريبة منك حتى ترى بنفسها أنك بخير. لا تغضب عليها فهي مضطربة بما فيه الكفاية » .

فالتفت فرانك إلى ميغي محذراً :

ـــ إياك أن تذكري أمام والدك أنك كنت على أقرب من كيلو متر من هنا. أتفهمين؟

ـــ « هل يزعجكما أن نختصر جولتنا الترفيهية هذه؟ » سأل الأب. « أظن أننا بحاجة إلى فنجان شاي وقليل من الراحة في البيت » وقرص أنف ميغي. « أما أنت، يا سيدتي الصغيرة، فأنت بلا شك بحاجة ماسة إلى بعض التنظيف ».

أمضى بادي نهاراً عصيباً برفقة أخته وهو رهن إشارتها ومطيع لأقل رغباتها بطريقة لم يفعلها أبداً مع « في »، وكان عليه مساعدتها على عبور الأوحال حتى لا تلوث حذاءها الدانتيلي المستورد من أوروبا، وهي توزع ابتساماتها على من تقابلهم بينما هو يدمدم بضجر، ثم وقف إلى جانبها وهي تقدم الأسوارة الزمردية إلى الفائزة في السباق الرئيسي. ولم يكن بادي يفهم لماذا تنفق هذه الأموال على حلية نسائية بدلاً من تقديم كأس مطلية بالذهب للفائز وحزمة من الأوراق النقدية الجميلة، ولم يكن ليخطر بباله أن السباق مسألة هواية، وأن الرجال المشتركين به ليسوا بحاجة إلى المال وإنهم كانوا يفضلون أن تعطى الجائزة لزوجاتهم على شكل حلية. أما « هوري هوبتون » الذي فاز حصانه الأصهب بالسوار

الزمردي ، فكان قد حصل سابقاً على أسورة من العقيق ، وأخرى ماسية ، وثالثة من الزفير في سباقات السنوات الأخرى ، وقد كان متزوجاً وله خمس بنات ، ولم يكن قادراً على التوقف عن الفوز قبل أن يحصل على اسورتين أخريين . وكانت قبة القميص المنشاة تحتك برقبة بادي فتهيج الجلد بينما كان يحس بالاختناق في بذته الكحلية ، من شدة الحرارة . وكانت معدته التي اعتادت على لحم الخروف تعترض بشدة على المحار والشمبانيا التي تناولها على الغذاء ، وهو يشعر بنفسه مغفلاً ، ويظن أنه يبدو للجميع مغفلاً ، بطقمه الرخيص الذي لم يأت من حانوت خياط شهير ، وكما لو أن رائحة الريف كانت تفوح منه على أمتار . وكان يحس أنه ليس في مكانه الطبيعي بين مربيي المواشي المتكبرين هؤلاء ، بثيابهم التويدية ، والنسوة المتغطرسات المهيبات ، والشابات الثرثارات اللواتي تكشف ابتساماتهن عن أسنان كأسنان الخيل ، وباختصار كان يشعر بالاحراج وسط ما تطلق عليه الجريدة الملحية لقب « زبدة طبقة الملاكين » ، لأنهم كانوا يبذلون قصارى جهدهم لكي يتناسوا الأيام الأخيرة من القرن المنصرم ، عندما وصلوا إلى هذه البلاد ووضعوا أيديهم على أجزاء كبيرة منها فاستملكوها وجعلوا الحكومة الفيديرالية وقوانين استراليا الخاصة تقر ضمنياً بهذه الملكية ،

فشكلوا طبقة كبيرة تحسدها القارة بأسرها، وأسسوا لهم أحزاباً، وأرسلوا أولادهم إلى أفضل المدارس في سيدني، وعندما كان «امير ويلز» يزور البلاد كان يعاملونه كما لو أنه فرد منهم. أما هو، بادي كليري البسيط، فقد كان عاملاً عادياً، ولم يكن يربطه أي شيء على الاطلاق بهؤلاء المستعمرين الارستقراطيين الذين كانوا يذكّرونه بشكل مزعج بعائلة زوجته.

ولهذا فقد شعر بالغيظ عندما وصل إلى دار الكاهن ودخل غرفة الاستقبال ليجد فرانك وميغي والأب رالف جالسين باسترخاء حول النار ويبدون كما لو أنهم أمضوا يوماً ممتعاً رائعاً.

وكان قد افتقد بشدة رقة وحنو «في» وما زال يشعر نحو أخته بالنفور نفسه الذي كان يشعر به في أيام طفولته في إيرلندا. ثم فطن إلى الضمادة فوق حاجب فرانك وإلى وجهه الملطخ، ووجد به العذر الكافي لينفس عن ضيقه ويصب جام غضبه على فرانك:

— هل يمكنك أن تفسر لي كيف ستواجه أمك بهذه الهيئة؟ إنك لم تمض نصف النهار بعيداً عن عيني وها أنت بدون شك قد تشابكت مع شخص ما تجرأ ونظرَ إليك.

وقفز الأب رالف على قدميه وقد أخذته الدهشة، محاولاً إيجاد كلمات يطمئن بها بادي. ولكن فرانك كان أسرع منه:

ــ «لقد كسبت نقوداً بهذا» قال برقة وهو يشير إلى الضمادة. «عشرون ليرة بدقائق معدودة، إنها أفضل من المعاشات التي تدفعها عمتي ميري لي ولك سوية في شهر بكامله! لقد تغلبت على ثلاثة من أفضل الملاكمين وصمدت حتى النهاية مع أحد أبطال الوزن الخفيف في خيمة جيمي شيرمان بعد ظهر اليوم، ولقد كسبت عشرين ليرة. ربما لم يكن هذا متماشياً مع تفكيرك عما يجب علي أن أعمل، ولكني كسبت اليوم احترام كل شخص حاضر هناك».

ــ أنت تتباهى بالفوز على بعض الملاكمين العجز السكارى في احتفال قروي! لقد حان الوقت لكي تكبر يا فرانك! إني أعلم أنه ليس بالإمكان لجسمك أن ينمو أكثر من هذا، ولكن عليك أن تحاول جدياً تنمية عقلك رفقاً بأمك.

وشحب وجه فرانك فأصبح بلون العظام التي بيضتها الشمس. كانت هذه أكبر إهانة يمكن لإنسان أن يوجهها له، وهذا الإنسان كان أباه. لم يكن باستطاعته أن يضربه. وبدأ

يتنفس بصعوبة من الجهد الذي كان يبذله للسيطرة على يديه المرتعشتين :

ــ كلا يا أبي ، إنهم ليسوا بالملاكمين العجز . أنت تعرف جيمي شيرمان كما أعرفه ، وهو بنفسه قد قال أنه سيكون لي مستقبل عظيم كملاكم، ويريد أن يضمني إلى فريقه ويدربني ، وسوف يدفع لي أجراً . ربما لن تطول قامتي أكثر من هذا ، ولكن طولي يكفي لقتل أي إنسان يعترض طريقي حتى ولو كان هذا الإنسان أنت ، أنت أيها العجوز النتن .

ولم يخفَ معنى هذه الكلمات على بادي ، وغدا وجهه بشحوب وجه فرانك :

ــ كيف تتجرأ على مناداتي هكذا .

ــ لأنك لست شيئاً آخر ، أنت مقرف ، أنت أسوأ من كبش ينزو . ألم يكن باستطاعتك أن تتركها وشأنها ؟ ألم يكن بإمكانك أن تكف يديك عنها ؟

ــ لا ، لا ، لا .

صرخت ميغي بينما كانت يدا الأب رالف تشدان على كتفيها كالمخالب وهو يحاول إمساكها بجهد ، وجرت دموعها على

خديها وهي تتلوى كالمسعورة محاولة التخلص من قبضة الأب بدون جدوى :

ــ لا يا بابا ، لا يا فرانك ، أرجوكما ، أرجوكما ، أرجوكما .

صاحت بأعلى صوتها . ولم يسمعها غير الكاهن ، فقد كان الابن والأب يقفان وجهاً لوجه وقد ارتسمت على وجهيهما معالم النفور والخوف المتبادلين وهما يفصحان عنها في النهاية . وكان السد الذي أقامه بينهما حب « في » قد تصدع وظهرت العداوة والمنافسة القاسية على حبها واضحتين جليتين لكل منهما .

ــ « إنني زوجها ، والله بنفسه قد بارك زواجنا مرسلاً لنا أولاداً » ، قال بادي بصوت هادىء وهو يجاهد السيطرة على نفسه .

ــ إنك لست بأفضل من كلب عجوز نتن يجري وراء كلبة .

ــ « وأنت لست بأفضل من الكلب العجوز الذي أنجبك ، وليكن من يكون ، وشكراً لله ألف مرة أنني لست أباك » صرخ بادي ثم توقف فجأة وهو يقول « آه ، أيها المسيح العظيم » وهدأ غضبه في الحال كما تهدأ الريح العاصفة ، وترنح ثم سقط متكوراً على نفسه وقد وضع يديه على فمه كما لو أنه كان يريد اقتلاع

لسانه الذي باح بما لا يُباح به . «آه إني لم أقصد ذلك، إني لم أقصده، إني لم أقصده!» .

وفي اللحظة التي لفظ بها تلك الكلمات، أفلت الأب رالف ميغي وقبض على فرانك فأمسك ذراعه اليمنى وفتلها خلفه بينما أحاطت يده اليمنى عنق فرانك بشدة. كان قوياً وقد شلّت قبضته فرانك فلم يعد يقوى على الحراك، وحاول مقاومته للإفلات، وفجأة سقطت مقاومته وتراخى وهز رأسه معلناً خضوعه. وكانت ميغي قد ارتمت على الأرض وركعت هناك تنتحب، وعيناها تنتقلان من أخيها إلى والدها بتوسل يائس عاجز، لم تكن تفهم ما يحدث بين الاثنين ولكنها فهمت أنها لن تستطيع الاحتفاظ بهما كليهما.

ـ «إنك قد عنيت كل كلمة قلتها» قال فرانك بصوت أجش.

«لقد كنت أعلم هذا منذ الأزل» وحاول أن يدير رأسه لينظر إلى الأب رالف «دعني اذهب يا أبت، إني لن أمسه وليساعدني الله».

ـ «ليساعدك الله؟ لعنه الله على روحيكما أنتما الاثنين. لو حصل لهذه الطفلة أي مكروه فسأقتلكما بيدي هاتين» زجر الأب

وهو يتوقد غضباً . « هل تدركان إني قد أبقيتها هنا وتركتها تستمع إليكما خوفاً من أن تقتلا بعضكما في غيابي لو أخذتها خارجاً ؟ كان علي أن أترككما تذبحان بعضكما أيها الشقيان الأنانيان الأبلهان » .

ــ « حسناً ، حسناً إني راحل » قال فرانك بصوت غريب أجوف . « إني ذاهب لأنضم إلى فريق جيمي شيرمان ولن ترون وجهي ثانية » .

ــ « عليك أن تعود إلى المنزل » تمتم بادي . « ماذا سأقول لأمك ؟ أنت تعني لها أكثر مما نعني لها جميعاً ، وهي لن تصفح عني أبداً » .

ــ أخبرها إني انضممت إلى فريق شيرمان لأني أريد أن أكون شيئاً . هذه هي الحقيقة .

ــ إن ما قلته لكـ ... ليس صحيحاً يا فرانك .

والتمعت عينا فرانك السوداوان الغريبتان ببريق الازدراء ، العينان اللتان أثارتا عجب الأب جداً عندما رآهما للمرة الأولى . ما دخل عيني « في » الرماديتين وعيني بادي الزرقاوين بهاتين العينين السوداوين ؟ وكان الأب يعرف قوانين ماندل على رؤوس أصابعه

وكان واثقاً أن لون عيني «في» الرمادي لم يكن ليؤدي إلى هذه النتيجة.

وتناول فرانك قبعته وسترته:

ـــ «آه، إن ما قلتَه صحيح! وكان علي أن أفهمه منذ زمن طويل، إن خيال أمي لا يزال يلوح في ذاكرتي وهي تعزف على البيانو في غرفة لم تكن أنت تمتلكها، وهذا الإحساس إنك لم تكن هناك دائماً وإنما أتيت من بعدي، وإنها كانت لي قبل أن تكون لك»، وضحك بصمت. «وطوال هذه السنين وأنا ألومك أنت على سقوطها بينما كانت الغلطة غلطتي، غلطتي أنا».

ـــ «لم تكن غلطة أحد يا فرانك، لا أحد!» صاح الأب وهو يحاول أن يجذبه إلى الوراء. «إن ما حصل هو جزء من مشيئة الله العظيمة التي لا يمكن سبر أغوارها، خذ الأمـور بهذا الشكل».

وتخلص فرانك من قبضة الكاهن الذي كان ممسكاً به، ومشى إلى الباب بخطواته الخفيفة الراقصة المرعبة. إنه قد خُلِق لكي يصبح ملاكماً، فكر الأب رالف، وقد أتته هذه الفكرة من هذا الجزء البعيد من رأسه، الذي يراقب ويستنتج. رأس كاردينال.

ـــ «مشيئة الله العظيمة التي لا تسبر أغوارها» قال الشاب بسخرية من مكانه قرب الباب. «أنت لست أفضل من ببغاء عندما تتصرف ككاهن، أيها الأب دوبريكاسار! وأنا أرجو الله أن يساعدك، لأنك الوحيد هنا بيننا الذي لا يعرف من هو بالضبط».

كان بادي يجلس على مقعد، ووجهه بلون الرماد، وعيناه المذعورتان مثبتتان على ميغي التي كانت تبكي وهي تتأرجح من الأمام إلى الخلف، راكعة بقرب النار. ونهض ليذهب إليها ولكن الكاهن دفعه بعنف بعيداً:

ـــ دعها وشأنها، لقد فعلت ما فيه الكفاية. هناك بعض الوسكي في الخزانة، خذ شيئاً منه. أنا ذاهب لأضع الصغيرة في الفراش ولكني سأعود لأتحدث معك، لا تذهب إذن. هل سمعتني يا رجل؟

ـــ سأبقى هنا يا أبت، خذها إلى الفراش.

○

وفي الطابق العلوي، في الغرفة الجميلة بلونها الأخضر

التفاحي فك الأب أزرار فستان الصغيرة وقميصها، وأجلسها على حافة السرير حتى يتمكن من نزع حذائها وجوربها. كان قميص نومها يستلقي فوق الوسادة حيث وضعته آني قبل أن تبارح المنزل، فأنزله فوق رأسها وسحبه أسفلاً باحتشام قبل أن يخلع عنها سروالها. وطوال الوقت كان يثرثر بلا انقطاع ويحاول أن يضحكها فيحكي لها قصصاً سخيفة عن أزرار ترفض أن تُفَك، وحذاء عنيد لا يمكن حلّ شريطه، وشرائط لا تريد أن تخرج من الشعر. وكانت عيناها تنظران بكآبة إلى ما وراء كتفي الكاهن وهما مليئتان بحكايات لا تحكى عن مآسي الطفولة وعن أحزان وآلام أكبر من سنها بكثير.

ــ والآن استلقي في السرير يا ابنتي الحبيبة، وحاولي أن تنامي. سأعود بعد قليل لأتفقدك، فلا تقلقي. هل تسمعينني؟ عندها سنتحدث عما جرى.

وسأله بادي عندما عاد إلى غرفة الاستقبال:

ــ كيف حالها؟ هل هي بخير؟

ومد الأب رالف يده إلى زجاجة الوسكي على الخزانة وصب لنفسه كأساً:

ــ الحقيقة إني لست أدري . يا إله السماوات يا بادي ، كم بوّدي أن أعرف أية لعنة إيرلندية هي الأكبر ، ألعنة الشرب أم لعنة الطبع ؟ ما الذي دفعك إلى قول ما قلته . لا ، لا تتعب نفسك بالجواب ! إنه الطبع . إن ما قلته صحيح طبعاً ، لقد علمت أنه ليس ابنك منذ اللحظة الأولى التي رأيته بها .

ــ أنت لا تفوتك أشياء كثيرة ، أليس كذلك ؟

ــ أظن ذلك . ولكنني لست بحاجة لقوة أقوى من قوة الملاحظة حتى أعرف أن أبناء رعيتي مضطربون أو أنهم يتألمون ، وعندما أعرف ذلك فمن واجبي أن أحاول المساعدة .

ــ إنهم يحبونك جداً في غيللي ، يا أبت .

ــ « الفضل يعود إلى مظهري ووجهي » قال الأب بمرارة وهو عاجز عن أن يجعل عبارته لا مبالية كما كان يرغب .

ــ أهذا ما تظنه ؟ لست أوافقك الرأي يا أبت ، إذا كنا نحبك فذلك لأنك راع طيب .

ــ « حسناً . يبدو لي إني منغمس تماماً في مشاكلك ، على أية حال » قال الأب رالف بارتباك « من الأفضل أن تريح قلبك يا رجل » .

وحدق بادي إلى النار التي كان قد أضرمها فيما كان الأب

يضع ميغي في الفراش، وقد فعل بادي ذلك لكي يشغل نفسه بأي شيء عن عذاب ضميره. وكانت الكأس الفارغة في يده ترتجف وتهتز، ونهض الأب رالف ليتناول زجاجة الويسكي ويملأ له كأسه. وبعد أن تناول جرعة طويلة، تنهد بادي وهو يمسح الدموع المنسية على وجهه:

ــ «إني لا أدري من هو والد فرانك، فلقد حصل هذا قبل أن أتعرف على «في». والواقع أن أهلها هم من أكبر العائلات في نيوزيلاندة، اجتماعياً، ووالدها كان من أكبر ملاكي الأغنام ومزارعي القمح بالقرب من «اشبرتون» في «الجزيرة الجنوبية»، فنقوده لم تكن تحصى و «في» كانت ابنته الوحيدة. وكما فهمت كان الأب قد رسم لابنته مخططاً لحياتها: رحلة إلى انجلترا حيث تقدم «في» إلى البلاط الملكي ومن بعدها تجد الزوج المناسب. ولم تكن «في» قد قامت إطلاقاً بأي عمل من الأعمال المنزلية في حياتها، فقد كانوا يملكون الخدم والحشم والخيول والعربات، وكانوا يعيشون أسياداً».

«وكنت أعمل عندهم في الملبنة، وكنت أحياناً ألمح «في» من بعيد تمشي برفقة طفل لا يتجاوز عمره السنة والنصف. وذات

يوم أتى السيد العجوز «**جميس ارمسترونغ**» ليراني وقال لي أن ابنته قد لطخت اسم العائلة وشرفها، وأنها قد أنجبت ولداً ولم تكن متزوجة. وكانوا قد أبقوا الأمر سراً بالطبع، وحاولوا إبعادها، ولكن جدتها أقامت الأرض وأقعدتها فاضطروا إلى إبقائها في البيت على الرغم من الحرج الذي كانوا يشعرون به من وجودها. والآن، وعندما اوشكت الجدة على الموت، لم يعد هناك أي شيء يمنعهم من التخلص من «في» ومن الطفل، وبما أني كنت عازباً، قال جيمس، فلو تزوجت ابنته وتعهدت بأن ابتعد بها عن «الجزيرة الجنوبية» فهو على استعداد لدفع نفقات سفري وخمسمئة ليرة استرلينية إضافية».

«حسناً يا أبت، كان هذا المبلغ ثروة بالنسبة لي، كما أني كنت قد سئمت حياة العزوبية، ولكني كنت دائماً خجولاً ولم أكن محظوظاً أبداً مع الفتيات، فبدت لي الفكرة جيدة، والحقيقة أن وجود الطفل لم يضايقني. وسمعت الجدة بما يجري، فأرسلت في طلبي رغم مرضها الشديد. ولا شك أنها كانت امرأة متعنتة جداً في عهد قوتها، ولكنها كانت سيدة حقة، فحدثتني قليلاً عن «في» دون أن تخبرني من كان والد الطفل، ولم أرغب في السؤال. وعلى كل حال، فقد جعلتني أعدها وعداً قاطعاً بأن

أعامل « في » معاملة حسنة ، وكانت تعلم أنهم سيبعدون « في » عن البيت في اللحظة التي ستموت هي بها ، ولهذا فقد أوحت إلى جيمس بفكرة إيجاد زوج للفتاة ، ولقد شعرت بالأسى من أجل هذه العجوز التي كانت تحب « في » حباً جماً » .

« هل تصدقني يا أبت إذا قلت لك أن أول يوم رأيت به « في » عن قرب كان يوم زواجي منها ؟ » .

ــ « آه ، بإمكاني تصديق هذا » تمتم الأب . ونظر إلى السائل في كأسه ثم أفرغه دفعة واحدة ، ومد يده نحو الزجاجة ليملأ كأسيهما . « وهكذا فقد تزوجت من سيدة يفوق مستواها مستواك بالكثير الكثير يا بادي » .

ــ نعم ، كنت أموت رعباً منها في البدء ، وقد كانت رائعة الجمال في تلك الأيام يا أبت ، و ... بعيدة جداً ، إذا كنت تفهم قصدي . وكما لو أنها لم تكن موجودة وأن ما يحصل لها كان يحصل لشخص آخر .

ــ « إنها لا تزال جميلة يا بادي » قال الأب رالف برقة . « وأستطيع أن أرى في ميغي ما كانت عليه « في » قبل أن تتقدم في السن » .

ــ « لم تكن الحياة سهلة بالنسبة لها يا أبت ، ولكني لا أعلم ما

كان بإمكاني أن أفعل أكثر مما كنت أفعل. وعلى الأقل فلقد كانت في أمان معي، ولم تكن تخشى سوء المعاملة. واستغرق الأمر معي سنتين حتى استطعت أن أجمع الشجاعة الكافية واتصرف معها كـ... حسناً، كزوج حقيقي، وكان علي أن أعلمها الطبخ، وتنظيف البيت، والغسيل، والكي، فهي لم تكن تعرف شيئاً. وطوال كل هذه السنوات يا أبت، لم أسمعها مرة واحدة تشكو من شيء، أو تضحك، أو تبكي، ولم تظهر اي إحساس إلّا في الجزء الخاص جداً من حياتنا معاً، وحتى في ذلك الوقت فهي لا تنطق بكلمة، وكم أتمنى أن أسمعها تقول شيئاً ولكني أخشاها في الوقت نفسه، لأن عندي إحساساً غريباً أنها إذا تكلمت فأن أول ما ستلفظه سيكون «اسمه». آه، إني لا أعني أنها لا تحبنا أنا والأولاد، ولكني أحبها لدرجة كبيرة ويبدو لي أن كل شعور بالحب قد انطفأ في داخلها، ما عدا حبها لفرانك. وكنت أعلم أنها تحب فرانك أكثر منا جميعاً، ولا بد أنها أحبت أباه، ولكني لا أعلم أي شيء عن هذا الرجل ولا عن السبب الذي منعها من الزواج به».

ونظر الأب رالف إلى يديه ومسح عينيه:

ـــ آه يا بادي ، أي جحيم هي هذه الحياة ! إني أحمد الله على أنه لم يعطني الشجاعة لأواجه أكثر من طرف منها .

ووقف بادي وهو يترنح قليلاً :

ـــ حسناً ، لقد فعلتها يا أبت هذه المرة ، أليس كذلك ؟ لقد أجبرت فرانك على الرحيل ولن تغفر لي « في » ذلك أبداً .

ـــ ليس بإمكانك أن تخبرها يا بادي . كلا ، لا يجب أن تخبرها أبداً . قل لها فقط أن فرانك قد هرب مع الملاكمين ، واترك الأمور هكذا . أنها تعلم عدم استقرار فرانك وهي ستصدقك .

ـــ لا يمكنني أن أفعل هذا يا أبت . قال بادي مشدوهاً .

ـــ « إنك مضطر لفعله يا بادي ، ألا يكفيها كل ما عَرِفَته من شقاء وألم ؟ فلا تضف إلى بؤسها بؤساً » .

وتابع في داخله : « من يدري ؟ ربما ستتعلم أن تعطيك الحب الذي كانت تحتفظ به لفرانك ، لك ولهذا الشيء الصغير الذي يرقد في الأعلى » .

ـــ هل تعتقد أن علي أن أفعل ذلك حقاً يا أبت ؟

ـــ نعم ، إن ما جرى الليلة سيبقى سراً بيننا .

ـــ وماذا عن ميغي ؟ لقد سمعت كل شيء .

ــ لا تقلق من جهة ميغي فسوف أهتم بأمرها. لا أعتقد أنها قد فهمت أكثر من أنكما تشاجرتما، أنت وفرانك. وسأفهمها أنها إذا أخبرت أمها عن الشجار، الآن بعد أن رحل فرانك، فإنها بذلك ستزيد من حزن أمها فقط. ومن جهة أخرى فعندي إحساس أن ميغي لا تخبر أمها بأشياء كثيرة.

ووقف متابعاً:

ــ اذهب للنوم يا بادي، عليك أن تبدو طبيعياً غداً، وتراقص ميري في الحفلة.

لم تكن ميغي نائمة، كانت مستلقية وعيناها مفتوحتان تحدقان في ضوء المصباح الضئيل بقرب سريرها. وجلس الكاهن بقربها ولاحظ أن شعرها لا يزال مضفوراً. وبعناية شديدة، نزع الشريطتين وأخذ يفك الضفائر برقة حتى تهاوى الشعر وانسدل كالذهب المصهور على الوسادة:

ــ لقد رحل فرانك يا ميغي.

ــ إني أعلم ذلك يا أبت.

ــ هل تعلمين لماذا يا حبيبتي؟

ــ لقد تشاجر مع والدي.

ـــ وماذا ستفعلين الآن ؟

ـــ سوف أرحل مع فرانك ، إنه بحاجة لي .

ـــ لن يمكنك ذلك يا ميغي .

ـــ بلى ، إني أستطيع . كنت سأبحث عنه الليلة وسأجده ، ولكن ساقيّ لا تقويان على حملي ، وأنا لا أحب الظلام ؛ ولكنني سأبحث عنه غداً صباحاً .

ـــ « كلا يا ميغي ، يجب عليك ألّا تفعلي ذلك ، انظري ، إن لفرانك الحق في أن يعيش حياته كما يشاء ، ولقد حان الوقت لكي يرحل . إني أعلم أنك لا تريدين أن يذهب ولكنه يرغب بالرحيل منذ زمن بعيد ، لا يجب أن تكوني أنانية ، وعليك أن تدعيه يعيش حياته » . الرتابة في ترديد العبارة نفسها ، فكر الأب ، تابع على الوتيرة نفسها ، ردد لها الفكرة نفسها . « عندما نكبر فمن الطبيعي ومن حقنا أن نرغب في العيش بعيداً عن المنزل الذي نشأنا به . وفرانك قد أصبح رجلاً ، وعليه أن يؤسس بيتاً لنفسه ويتزوج وينجب أولاداً . هل تفهـمين يا ميغي ؟ إن رغبة فرانك فقط بالرحيل هي التي خلقت الشجار بينه وبين والدك ، وليس لأنهما لا يحبان بعضهما . وهذا يحدث دائماً ، لأن هذه هي الطريقة التي يغادر بها الشبان بيوتهم . هذا

هو القدر الذي يجدونه. إن الشجار كان فقط عذراً انتحله فرانك ليفعل ما يرغب في فعله من زمن بعيد، عذراً لكي يرحل. هل تفهمين ذلك يا ميغي؟»

ونقلت الفتاة عينيها إلى وجه الأب حيث استقرتا، وكانتا تعبتين مليئتين بالأسى، وقد شاختا:

ــ إني أعرف، إني أعرف ذلك. إن فرانك كان يريد الرحيل منذ كنت طفلة صغيرة، ولم يرحل. فلقد أعاده والدي إلى البيت وأجبره على البقاء معنا.

ــ ولكن والدك لن يعيده إلى البيت هذه المرة، لأنه لا يستطيع إجباره على البقاء الآن. لقد رحل فرانك هذه المرة إلى الأبد وهو لن يرجع.

ــ ألن أراه ثانية أبداً؟

ــ «لست أدري»، أجاب بصدق، «بوّدي أن أقول لك أنك سترينه، ولكننا جميعاً عاجزون عن قراءة المستقبل يا ميغي، حتى نحن الكهنة». وتنهد بعمق. «يجب ألّا تخبري أمك عن المشاجرة يا ميغي، هل تسمعينني؟ سيزعجها هذا جداً، وهي ليست بصحة جيدة».

ـــ لأنها تنتظر طفلاً آخر ؟

ـــ وكيف عرفت ذلك ؟

ـــ إن والدتي تحب « إنبات » الأطفال ، ولقد « أنبتت » منها الكثير ، وهي « تنبت » أطفالاً لطفاء جداً يا أبت ، حتى عندما لا تكون بصحة جيدة . وأنا أيضاً سوف « أنبت » طفلاً مثل هال ، وعندها لن أفتقد فراقك كثيراً ، أليس كذلك ؟

ـــ « الحمل بلا دنس » قال ، « حظاً سعيداً يا ميغي ، ولكن ماذا إذا لم تستطيعي أن « تنبتي » واحداً ؟

ـــ « إن هناك هال » قالت وقد بدأ النعاس يثقل أجفانها ، وتكورت على الوسادة . « هل سترحل أنت أيضاً يا أبت؟ هل سترحل ؟ » .

ـــ ذات يوم يا ميغي ، ولكن ليس بالقريب العاجل ، على ما أظن . لا تقلقي إذن . إني أشعر أنني سأبقى معلقاً بغيللي لزمن طويل ، طويل » أجاب الأب وقد غشيت المرارة عينيه .

الفصل السادس

كان على ميغي أن تعود إلى البيت، ولم يكن هناك مجال لتفادي ذلك إذ لم يكن باستطاعة «في» أن تدبر أمورها من دونها. وعندما وجد ستوارت نفسه وحيداً في الدير في غيللي، اضرب عن الطعام فاضطروا لإعادته إلى دروغيدا.

كان ذلك في آب، وكان الطقس شديد البرودة وقد مرت سنة تماماً على مجيئهم إلى استراليا ولكن الشتاء كان أشد برداً من الشتاء الماضي. لم يكن هناك أي مطر وكان الهواء صقيعياً يلسع الرئتين. وكانت قمة الـ «غريت ديفايدر» على بعد مئة ميل إلى الشرق مغطاة بثلوج شديدة الكثافة لم يُرَ مثلها لسنوات مضت ولكن الأمطار لم تكن قد سقطت إلى الغرب من «بارّن جانكشن»

منذ أمطار العام الماضي الموسمية الجارفة. وكان الناس في غيللي يتحدثون عن احتمال جفاف آخر: لقد تأخر عن موعده، لا بد أنه في الطريق، ربما كان هذا هو الجفاف الذي نتوقعه.

عندما رأت ميغي أمها، شعرت بأن عبئاً رهيباً قد استقر على كيانها بأجمعه، ربما كان ما شعرت به وداعاً لطفولتها، أو إحساساً داخلياً بمصير المرأة، ولم يكن قد طرأ على «في» أي تغير خارجي إلا بطنها المنتفخ، أما داخلياً فكانت «في» قد خمدت مثل ساعة قديمة تعد الساعات ببطء أشد فأشد إلى أن تتوقف تماماً. كانت الحيوية التي لم تفارق «في» أبداً من قبل قد تلاشت تماماً، فكانت ترفع قدميها وتنزلهما ببطء شديد وكأنها ليست واثق من كيفية تحريكهما أو كأن هناك نوعاً من الارتباك الروحي في مشيتها، ولم تشعر بأي فرح بالطفل الجديد، حتى ولا بالسرور المتحفظ الذي أظهرته عند ولادة هال.

كان الطفل الصغير الأحمر الشعر يحبو في أرجاء البيت ويعبث بكل ما يراه أمامه ولكن «في» لم تقم بأية محاولة لِتُعلِّمه النظام، حتى أنها لم تكن تراقب نشاطاته. كانت تدور بتثاقل في حلقة تبدأ من الفرن، مروراً بطاولة المطبخ وتتوقف عند المجلى وكأن

لا وجود هناك لشيء آخر. وهكذا فلم يكن لميغي الخيار، وكان عليها أن تملأ الفراغ في حياة الطفل وتصبح أماً له، ولم تعتبر ذلك تضحية فقد كانت تحبه بشده وتجد فيه هدفاً راضياً مستسلماً لكل ذلك الحب الذي كانت قد بدأت تشعر أنها تريد أن تغدقه على مخلوق ما. كان يبكي من أجلها، وقد نطق باسمها قبل الأسماء الآخرين، وكان يمد لها ذراعيه لكي تحمله، وكان ذلك يرضيها ويملأها فرحاً. وبالرغم من كدّها، بالرغم من الحياكة، والرتق، والخياطة، والغسل، والكي، والعناية بالدجاج وكل الأعمال الأخرى التي كان عليها القيام بها، فقد كانت ميغي تجد متعة كبيرة في حياتها.

ولم يأت أحد على ذكر فرانك أبداً، ولكن «في» كانت ترفع رأسها منصتة كلما سمعت جرس عربة ساعي البريد الذي كان يأتي مرة كل ستة أسابيع، وتدب الحياة في وجهها للحظة. وعندما كانت السيدة سميث تحمل إليها ما أتى به الساعي وترى أنه ليس هناك رسالة من فرانك، كان الاهتمام الذي أضاء وجهها لحظة سرعان ما ينطفىء ويخبو.

ووضعت «في» صبيين توأمين آخرين أحمري الشعر ولطيفين

جداً، أُطلق عليهما اسما «جامس وباتريك»، وكان يبدو عليهما طبع والدهما المرح الوديع. ومنذ ولادتهما أصبحا ملكية للجميع لأن اهتمام «في» بهما لم يكن يتعدى إرضاعهما. وسرعان ما اختُصر اسميهما وأصبح الجميع ينادوهما بـ«جيمس وباتسي»، كما استأثرا تماماً بولع النسوة في المنزل الكبير الذي كان به خادمتان عانسان ومدبرة بيت أرملة بدون أولاد، وكن جميعاً يتلهفن إلى الأمومة. واستطاعت «في» أن تنسى وجود الطفلين بسرعة، فقد كان لهما ثلاث أمهات متلهفات، ومع مرور الأيام أصبح من الطبيعي جداً أن يقضيا معظم أوقاتهما في البيت الكبير.

أما ميغي فلم يكن عندها الوقت الكافي لتأخذهما تحت جناحيها كما كانت تفعل مع هال الذي كان ينزع إلى الاستئثار بحبها واهتمامها، ولم يكن يرضى بمداعبات السيدة سميث وميني وكات السمجة، فقد كانت ميغي المحور الذي يدور حوله عالمه وحبه، ولم يكن يريد غير ميغي ولا يقبل بسواها.

○

استبدل بلوي ويليامز أحصنته الجميلة وعربته الضخمة بشاحنة، وأخذ البريد يصل كل أربعة أسابيع بدلاً من ستة، ومع

هذا فلم تصل كلمة واحدة من فرانك. وبدأت ذكراه تمّحي تدريجياً، كما يحصل لكل الذكريات، وحتى ذكريات من أحببنا أعنف الحب، وكأن هناك عملية التئام لا شعورية تجري في أعماقنا فتشفي جروحنا رغم تصميمنا على عدم النسيان. وأصبح فرانك بالنسبة لميغي صورة أليمة شاحبة، وخيالاً بهتت ملامحه وتحولت إلى رؤيا وهمية وصورة قديس لا علاقة لها بفرانك الحقيقي أكثر من علاقة صورة للمسيح بما كان عليه المسيح حقيقة. أما «في» فقد وجدت لها بديلاً عن هذا الحب المفقود في عمق أعماق الصمت الذي جمدت فيه روحها. وجرى الاستبدال في داخلها بطريقة خفية جداً فلم يلحظه أحد، إذ أن «في» بقيت منطوية على نفسها بهدوء وتحفظ، وكان ذلك الاستبدال شيئاً داخلياً بحتاً فلم تتح الفرصة لأحد كي يراه ما عدا الشخص الذي أخذ مكان فرانك في قلبها، والذي لم تبد عليه أية علامة خارجية تشير إلى أنه قد أحس بما يجري، فكانت علاقتهما شعوراً متكتماً مستوراً يخفف من وحدة كل منهما.

وربما لم يكن بالإمكان تجنب ما حدث، فقد كان ستوارت الوحيد الذي يشبه أمه بين جميع أولادها، وفي الرابعة عشر من

عمره كان لا يزال سراً كبيراً لوالده وأخوته كما كان فرانك بالضبط، ولكنه خلافاً لفرانك لم يكن يخلق حوله الكره والسخط. كان ينفذ ما يؤمر به دون تذمر ويعمل بالجد نفسه الذي يعمل به الآخرون، ولم يكن يكدر حياة العائلة بأي شكل من الأشكال. ومع أن شعره كان أحمر فقد كان أغمق لوناً من الباقين، بلون الأكاجو البني المائل للحمرة. وأما عيناه فقد كانتا صافيتين كالماء العذب في الظل، وكأنما قد اجتازتا الزمن إلى الوراء، إلى بدء الكون، ورأتا كل شيء كما كان حقاً. وكان الوحيد بين أخوته الذي يتوقع من يراه أن يصبح شاباً وسيماً حين يكبر على الرغم من أن ميغي كانت تقول بينها وبين نفسها أن هال سيفوقه وسامة عندما يكبر بدوره.

ولم يكن أحد قط يدري بما يدور في خلد ستوارت، فقد كان مثل «في»، يتكلم قليلاً ولا يدلي برأي أبداً، وكان يملك قدرة غريبة على الهدوء، داخلياً كان أم جسدياً. وكان يبدو لميغي وهي الأقرب إلى سنه، أن بإمكانه الهرب وبلوغ أمكنة لا يمكن لإنسان أن يلحق به فيها. أما الأب رالف فكان يرى الأمر بمنظار آخر:

ــ «هذا الشاب ليس بشراً» صاح الأب بدهشة يوم أعاد ستوارت

إلى دروغيدا بعد إضراب هذا عن الطعام عندما سحبوا ميغي من الدير وأبقوه وحده. «هل تظنون أنه قد طالب بالعودة إلى البيت، أو قال أنه يفتقد ميغي؟ كل ما فعله هو أنه توقف عن الطعام وانتظر بصبر أن تفهم أدمغتنا الغليظة موقفه، ولم يفتح فاه مرة واحدة بشكوى. وعندما اقتربت منه أسأله إذا كان يرغب في العودة إلى البيت، اكتفى بأن يبتسم ويحني رأسه موافقاً».

وبمرور الأيام، تقرر، دون أن تلفظ كلمة واحدة بذلك الخصوص، إلّا يعمل ستو في المراعي مع أبيه وأخوته، رغم أنه كان بعمر يسمح له بمثل هذا العمل، فكلف بحراسة البيت، وتقطيع الأحطاب، والعناية بحديقة الخضار، وحلب الأبقار، وبالمختصر بكل الأعمال التي لم يكن باستطاعة النسوة تنفيذها بسبب وجود الأطفال الثلاثة. وكان من الأفضل وجود رجل في البيت حتى لو كان شاباً يافعاً، لأن وجوده كان يبرهن على أن أباه وأخوته الآخرين لم يكونوا بعيدين جداً عن المنزل. وبالفعل، كان هناك غالباً زواراً متطفلون يجولون في الجوار، وأحياناً كان يسمع وقع خطى ثقيلة على الدرجات الخشبية المؤدية إلى الشرفة الخلفية، وصوت غريب يسأل:

ــ مرحبا يا سيدتي ، أليس عندك شيء من الطعام لرجل متعب ؟

وكان داخل البلاد يعج بهذا النوع من المخلوقات ، متسكعون ينتقلون من مكان إلى آخر وعلى ظهرهم صرة ملابسهم ، رجال تخلى عنهم الحظ أو ممن لا يطيقون العمل المنتظم فيفضلون قطع آلاف الكيلومترات على أقدامهم بحثاً عما لا يعلم إلا الله وحده . وكان أغلبهم رجالاً طيبين يظهرون فجأة ويلتهمون وجبة هائلة ثم يدسون في كيسهم الشاي والسكر والطحين الذي يعطى لهم ، ويختفون على الطريق المؤدية إلى باركولا ونارنغانغ ، وقد علقوا في أحزمتهم علباً فارغة تنط وترقص على وقع خطاهم وعلى أعقابهم كلب هزيل يتدلى بطنه ، ومن النادر أن ترى استرالياً يركب حصاناً ، إذا كانوا يفضلون السفر سيراً على الأقدام .

ومن وقت لآخر ، يظهر رجل شرير يبحث عن امرأة وحيدة ، وهو ينوي السرقة وليس الاغتصاب ، ولهذا فقد كانت « في » تحتفظ ببندقية معبأة ، مسندة إلى زاوية في المطبخ حيث لا يستطيع الأطفال الوصول إليها ، وحيث كان بإمكانها هي أن تقف بقربها إلى أن تتأكد عيناها الفاحصتان من هوية الزائر . ومنذ تولى ستوارت مهام البيت ، أوكلت إليه « في » بندقية الصيد بفرح .

ولم يكن جميع الزوار من المتسكعين على الرغم من أن هؤلاء كانوا أغلبية، فقد كان البائع المتجول «واتكنز» يصل أحياناً في عربته الـ «فورد ت»، وقد حمّلها بكل ما يخطر على البال بدءاً من مرهم الخيول حتى الصابون المعطر الذي لم يكن يشبه القطع الصلبة كالصخر التي كانت «في» تصنعها في البيت من الشحوم والقلويات. وكان يحمل معه أيضاً عطر الخزامى والكولونيا والمساحيق والدهونات للوجوه التي أحرقتها الشمس، وأشياء أخرى لا يفكر أحد بشرائها إلا من «واتكنز»، مثل المرهم الذي كان أفضل من كل ما يمكن أن يجدوه في الصيدلية أو ما يصفه الطبيب، وكان باستطاعته شفاء كل شيء أكان ذلك جرحاً في فخذ الكلب أو تقرحاً على وجه بشري. وفي كل مطبخ كان يصله، كانت النسوة يتجمعن حوله منتظرات بشوق ولهفة أن يفرغ كيسه ويريهم عجائبه.

وكان هناك باعة متجولون آخرون، ولكن زياراتهم لم تكن منتظمة مثل «واتكنز»، ومع ذلك فقد كانوا دائماً يستقبلون بالترحاب، فهم أيضاً يحملون في أكياسهم ما هب ودب: سجائر معبأة في علب، وغلايين مزخرفة، وقطعاً قماشية، وأحياناً أيضاً ثياباً داخلية مغرية، ومشدات تذخر بالدانتيل والشرائط. وكانت

النساء اللواتي يعشن في داخل البلاد محرومات من كل هذه الروائع، فلم يكن يذهبن أكثر من مرة أو اثنتين في السنة إلى أقرب مدينة إليهم، وهي أبعد ما تكون عن سيدني ومخازن سيدني الرائعة، والموضة الجديدة، والكشاكش، والبهرجة النسائية.

كانت الحياة تبدو كأنها لا تحتوي على أكثر من الذباب والغبار. لم يكن المطر قد سقط لمدة طويلة، حتى ولا زخة واحدة تقضي على الغبار والذباب، ومن كل سقف كانت تتدلى شرائط ورقية طويلة لاصقة، تتحرك ببطء وهي مثقلة بعناقيد سوداء من جثث الذباب التي علقت بها. ولم يكن بالإمكان ترك أي شيء دون غطاء فسرعان ما كان يصبح وليمة عامرة أو مقبرة للذباب. وانتشرت نقاط سود لا تحصى من أوساخ الذباب، ورصعت الجدران والأغطية والتقويم المعلق على الحائط. ومن ثم كان هناك الغبار الذي لم يكن هناك من وسيلة للهرب من مسحوقه الناعم الأسمر الذي كان يتغلغل إلى كل الأماكن ويتسلل تحت الأغطية المحكمة الإغلاق، ويلتصق بالشعر الذي غسل لتوه ويهيج بشرة الوجه، ويتوضع في طيات الملابس والستائر، ويرش طبقة رقيقة على سطح المناضد الملمَّعة، وما أن تمسح حتى يعود الغبار من جديد

بإصرار وعناد. أما الأرض فقد كانت مغطاة بطبقة كثيفة منه حملتها إلى الداخل الأحذية التي لم تمسح بعناية خارجاً، ونقلها الهواء الساخن عبر الأبواب والنوافذ المشرعة. واضطرت «في» أن تطوي سجادتها العجمية وترفعها من غرفة الاستقبال، وطلبت من ستوارت أن يثبت لها مكانها مشمعاً للأرضية كانت قد ابتاعته من غيللي بالمراسلة.

أما أرض المطبخ الذي كان مسرحاً للرواح والمجيء بلا انقطاع، فقد كانت مغطاة بألواح خشبية شحب لونها فأصبح بلون العظام القديمة لكثرة الغسل والفرك بالفرشاة المعدنية وماء الصابون الحاد. وكانت «في» وميغي ترشان الأرض بعناية بالنشارة التي كان ستوارت يأتي بها من المحطبة، ثم تبللان النشارة بالماء وبعد ذلك كانتا تكنسان هذا الخليط الرطب العطر إلى الخارج وترميانه عن الشرفة إلى حديقة الخضار حيث كان يتفسخ ويصبح سماداً للحديقة.

ولكن الجهود كانت كلها تبوء بالفشل، فلم يكن بالإمكان إبعاد الغبار مدة طويلة. وبعد فترة قصيرة جف النهر ولم

يبق منه إلا بقعاً مائية صغيرة منتشرة كحبات مسبحة على طول مجراه ولم يعد بالإمكان ضخ الماء منه إلى المطبخ أو إلى الحمّام .

وقاد ستوارت الشاحنة ــ الخزان إلى البئر الارتوازي ، وعاد بها مليئة بالماء فافرغه في أحد خزانات ماء المطر ، وكان على النساء أن يعتدن على استعمال هذا الماء الشنيع لغسل الصحون والملابس ، وللاستحمام ، وكان أسوأ بكثير من ماء الجدول الموحل . وكانت رائحة الكبريت الثقيلة تفوح من هذا الماء المليء بالمعادن فتجعل من الضروري تجفيف أوعية الطعام بعناية فائقة . أما الشعر الذي يُغسَل بهذا الماء فكان يصبح جافاً تماماً كالقش . وما تبقى من ماء المطر في الخزانات كان يستعمل بتقتير شديد للطبخ والشرب .

○

كان الأب رالف ينظر إلى ميغي بحنان وهي تسرح خصلات شعر باتسي النحاسية المجعدة ، بينما وقف جيمس ينتظر دوره بصبر ، وكانت عيونهما الزرق البراقة تنظر إليها بحب كما لو كانت أمّاً صغيرة . وفكر الأب في نفسه أن هذا التعلق ، هذا

الهوس بالأطفال لا بد أن يكون شيئاً فطرياً عند النساء وإلا لأعتبرت ميغي ما تقوم به عملاً شاقاً، ولسارعت بإنجازه حتى تلتفت إلى أشياء أخرى أكثر إغراء، وعوضاً عن ذلك فقد كانت تطيل العملية عن عمد وتلف شعر باتسي على أصابعها لتموجه. وبقي الأب لحظات واقفاً يستمتع بهذا المنظر، ثم ضرب بسوطه جانب جزمته المغبرة ونظر بكآبة عبر الشرفة إلى المنزل الكبير الذي كان يختفي وراء ستار كثيف من أشجار الصمغ والعريش، ووراء أبنية المزرعة الأخرى وأشجار الفلفل التي كانت تعزله عن منزل القيّم الذي كان مركز الحياة في المزرعة. أية خطة كانت العنكبوت العجوز تنسج في شبكتها الواسعة؟

ـــ «إنك لا تنظر إلي يا أبت! قالت ميغي متهمة.

ـــ اعذريني يا ميغي، كنت مستغرقاً في أفكاري.

واستدار نحوها عندما انتهت من تسريح شعر جيمس، ووقف الأولاد الثلاثة ينظرون إليه بترقب، إلى أن انحنى ورفع التوأمين واضعاً كل منهما على أحد ردفيه:

ـــ هيا بنا لنرى عمتكما ميري.

وتبعته ميغي على الطريق وهي تحمل سوطه وتقود فرسه

الكستنائية. وكان يحمل الطفلين بسهولة كبيرة ولا يبدو أنه يشعر بعبئه مع أن المسافة بين الجدول والمنزل الكبير كانت تتعدى الكيلو متر والنصف.

وفي المطبخ ناول التوأمين للسيدة سميث التي كانت تنتظرهما بلهفة وتابع طريقه صاعداً نحو المنزل الكبير وميغي تسير بقربه.

كانت ميري كارسون جالسة في مقعدها المجنح، ولم تكن تتركه إلا نادراً هذه الأيام، فلم يكن ذلك ضرورياً لوجود بادي الذي كان ينظم كل الأمور. وعندما دخل رالف ممسكاً بيد ميغي رمتها ميري بنظرة حقد فغضت الفتاة الصغيرة بنظرها، وأحس الأب رالف بنبضات قلب ميغي المتصاعدة، فشد على مرفقها مشجعاً، وانحنت الصغيرة أمام عمتها بارتباك وهي تمتم بسلام مبهم.

ــ اذهبي إلى المطبخ يا فتاة، وتناولي الشاي مع السيدة سميث.

قالت ميري كارسون بجفاف.

وعندما توارت الفتاة عن الأنظار، سألها الأب رالف وهو يهوي في المقعد الذي أصبح يعتبره من حقه:

ــ لماذا لا تحبين هذه الفتاة؟

ـــ لأنك تحبها .

ولأول مرة شعر الأب بنقص أمامها وأجابها معترضاً :

ـــ هيا ، هيا يا ميري ، إنها ليست إلا طفلة وحيدة ضائعة .

ـــ إنك لا تنظر إليها هذه النظرة ، وأنت تعلم ذلك تماماً .

ونظرت إليها العينان الزرقاوان بسخرية حادة ، وشعر أنه أقوى من قبل :

ـــ هل تظنين أني أقيم علاقات آثمة مع الأطفال ؟ إنني كاهن قبل كل شيء .

ـــ أنت أولاً رجل ، يا رالف دو بريكاسار ! وكونك كاهناً يجعلك تشعر بالأمان . هذا كل ما هنالك .

وضحك بدهشة . لم يكن بإمكانه مواجهتها اليوم ، وكأنها كانت قد وجدت الصدع في درعه وتسللت داخله حاملة سمها كالعنكبوت . لا بد أنه قد تغير ، ربما قد بدأ يشيخ ويتأقلم مع حياته الكئيبة في غيللانبون . هل خمدت النار في أعماقه ؟ أم أنها كانت تتوهج لأمور أخرى ؟

ـــ أنا لست رجلاً ، إنني كاهن ... إنه الحر ، ربما ، الغبار والذباب ... ولكني لست رجلاً وإنما أنا كاهن .

ــ « آه ، لقد تغيرت يا رالف » قالت ساخرة . « هل من المعقول أن يكون هذا الكاردينال دو بريكاسار الذي يتكلم ؟ » .

ــ « كلا هذا ليس معقولاً » قال والتعاسة بادية في عينيه . « أنا لا أظن أنني ما زلت أرغب بهذا » .

وبدأت تضحك وهي تتأرجح من الأمام إلى الخلف في مقعدها وتنظر إليه :

ــ لم تعد ترغب بهذا يا رالف ، أليس كذلك ؟ حسناً ، سأتركك تتحرق مدة أطول ، ولكن يوم التكفير قادم ، لا تنسى هذا أبداً ، لن يكون اليوم ولا غداً ، ولكن بعد سنتين أو ثلاث ، ربما ، وعلى كل حال ، إنه آت . وسوف أكون إبليس الذي يقدم لك .... آه ، لقد ثرثرت بما فيه الكفاية ، ولكن لا تنسَ أبداً أني سأجعلك تتلوى ألماً . إني لم أقابل رجلاً بسحرك أبداً ، ولقد رميت بوسامتك في وجهنا محتقراً ضعفنا ولكني سأسمّرك على الحائط مستغلة ضعفك ، وسأجعلك تبيع نفسك كالعواهر . هل تشك بما أقول ؟ .

فاستند إلى مقعده مبتسماً :

ــ لا شك في أنك ستحاولين ذلك ، ولكني لا أظن أنك تعرفينني جيداً كما تتصورين .

ــ لا أعرفك ؟ إنه الزمن ، والزمن وحده سيكشف ذلك . إنني عجوز ولم يبق أمامي وقت طويل .

ــ وماذا تظنين أن بحوذتي أنا ؟ الوقت يا ميري ولا شيء إلا الوقت . الوقت ، والذباب ، والغبار .

○

وجمّعت الغيوم نفسها في السماء ، وبدأ بادي يأمل هطول الأمطار .

ــ إنها عاصفة جافة » قالت ميري كارسون « إنها لا تحمل أي مطر ، ولن نرى المطر قبل مدة طويلة » .

وإذا كان آل كليري يظنون أنهم قد عرفو قسوة المناخ على أسوأ وجه ممكن أن تقدمه لهم استراليا ، فذلك لأنهم لم يجربوا بعد العواصف الجافة التي كانت تهب على السهول القاحلة المجدبة ، فجفاف الأرض التي لا تحمل قطرة ماء كان يصطدم بجفاف الجو فيشحذان بعضهما بعنف ويتعالى الصرير في احتكاك ساخط يكبر ، ويكبر ، ويكبر إلى أن تتفجر القوى المتجمعة في دوي هائل .

واكفهرت السماء وأظلمت حتى اضطرت «في» إلى إشعال المصابيح في الداخل، وفي المراعي كانت الخيول ترتعش وتقفز في الهواء لأقل ضجة، وتسلقت الطيور مجاثمها وأخفت رؤوسها تحت أجنحتها، وأخذت الكلاب تتعارك مزمجرة، أما الخنازير الأليفة التي كانت تتجول بين قاذورات المزرعة فقد دفنت خياشيمها في التراب وأخذت تخاطر بين الحين والحين بإلقاء نظرة حولها والقلق يلمع في عيونها. وكانت القوى المحتشدة في السماء تلقي بالرعب في عظام كل المخلوقات الحية، بينما كانت الغيوم الهائلة العميقة تبتلع الشمس بكاملها لتلقي على الأرض غبارها الشمسي الحارق.

وأتى الرعد من مكان بعيد بخطى ثقيلة متسارعة أكثر فأكثر، وفي الأفق كانت ومضات البرق الرفيعة تقطع الأمواج العظيمة المتصاعدة إلى أشكال بارزة حادة. وارتفعت قمم ناصعة البياض ترغي وتتلوى على صفحة السماء الكحلية، ومع الريح المزمجرة التي امتصت الغبار ثم قذفته لاذعاً في العيون والأنوف والأفواه، أتت الكارثة.

ولم يحتاجوا لأن يحاولوا تصور غضب الله على الأرض، فقد كانوا يعيشونه. لم يكن باستطاعة أي منهم أن يمنع نفسه من القفز

حين ينفجر الرعد بصخب وغضب وكأن العالم نفسه يتحطم. ولكن بعد فترة، اعتاد سكان البيت على سماعه وأخذوا بالخروج إلى الشرفة لإلقاء نظرة عبر مجرى الجدول نحو المراعي البعيدة. وكان البرق يمتد عبر السماء في عروق نارية كأذرع مذراةٍ هائلة ويلف كعشرات الأحزمة النارية من كل جهة وصوب، والسحب المشتعلة تخترق بلا انقطاع أمواج الغيم العظيمة، ثم تخرج منها لتعود فتدخلها من جديد وكأنها تلعب لعبة اختباء غريبة.

وأما الأشجار المنعزلة التي ضربتها الصواعق فكانت تئن وتدخن وقد فهم الجميع أخيراً لماذا ماتت هذه الأشجار الوحيدة كحراس منفردين في المراعي.

وانتشر في الجو ضوء خفي عجيب، ولم يعد الجو محجوباً بل اضطرم من داخله بنار مشعة، وردية وأرجوانية وصفراء كالكبريت، وانتشرت في الهواء رائحة مَلحّة، معسولة ومحيرة، لا يمكن معرفة طبيعتها. وكانت الأشجار تلمع، وبرقت شعور آل كليري الحمراء بألسنة نارية، وانتصبت الشعيرات على أذرعهم، واستمرت الحال على هذا المنوال طيلة بعد الظهر، ولم تخفّ حدة العاصفة من جهة الشرق إلا عند المغيب لتحررهم من هذه القوة

السحرية الهائلة، وكان الانفعال يسيطر عليهم جميعاً فيوتر أعصابهم بحدة. ولم تسقط نقطة واحدة من المطر.

وظلوا أسبوعاً بكامله ولا حديث لهم إلا عن العاصفة، وكانوا يعتبرون بقاءهم معافين وعلى قيد الحياة بعد هذه الكارثة، نوعاً من القيامة بعد الموت.

— «سترون أكثر من هذا» قالت ميري كارسون بتبرم.

ولقد رأوا أكثر بكثير.

فقد أتى الشتاء التالي جافاً وأقسى بكثير مما كانوا يتوقعونه، بدون ثلوج. وكانت طبقة الصقيع تصل إلى بضعة سنتمترات خلال الليل، والكلاب تتجمع فيما بينها في الأوجرة، مرتجفة، وتحاول أن تدفىء نفسها بالتهام لحم الكنغر وأكوام الشحوم التي كانت تجمع من البقر المذبوح؛ فلقد سمح الطقس أخيراً بتناول لحم البقر والخنزير عوضاً عن لحم الأغنام. وفي البيت، أُضرمت نار قوية، وكان الرجال مضطرين للعودة إلى البيت كلما استطاعوا، لأنهم كانوا يتجمدون في المراعي ليلاً، ولكن الجزازين عند قدومهم كانوا مبتهجين، فقد كان بإمكانهم أن يعملوا بسرعة

أكثر ودون تعرق . وكان كل رجل منهم يقف تحت سقيفة الجز الكبيرة وسط دائرة على الأرض بهت لونها أكثر مما حولها ، وهي البقعة التي وقف بها الجزازون خمسين عاماً ، وعرقهم يتساقط على الأرض الخشبية فيُشحِب لونها .

كانت لا تزال هناك بعض الأعشاب متبقية من موسم الفيضانات الأخير ، ولكنها كانت قد بدأت تتضائل بشكل خطير ، ويوماً بعد يوم كانت السماء رصاصية مغطاة بالغيوم ، ولكن المطر لم يكن يتساقط . وكانت الرياح تعصف بكآبة عبر المراعي ، وهي تدفع أمامها ستائر من الغبار الأسمر كالمطر ، فتعذّب البشر إذ ترسم أمام مخيلتهم صورة المطر . كم كان يشبه المطر ، ذلك الغبار المتعالي الأشعث ! . وتقرحت أيدي االأولاد من شدة البرد وكانوا يجاهدون لكي لا يبتسموا بشفاههم المشققة ، وعندما كانوا يخلعون جواربهم عن أقدامهم الدامية ، كانوا يشعرون وكأنهم يسلخون جلودهم ؛ وقد كان من المستحيل المحافظة على دفء البيت أمام هذا الهواء اللاذع ، وخاصة أن البيوت كانت قد بُنيت خصيصاً لابتلاع كل نسمة هواء لا لإبعادها . وكانوا يذهبون للنوم في غرفهم المثلجة وينهضون في الصباح والغرف مثلجة

وينتظرون بصبر أن تعطيهم أمهم حفنة ماء من الابريق الموضوع على النار حتى لا يصبح غسيل وجوههم عذاباً صقيعياً تصطك منه الأسنان .

وذات يوم بدأ الصغير هال يسعل ويتنفس بجهد محدثاً صوتاً كالصفير ، وساءت حالته بسرعة ، فهيأت « في » لصقة لزجة من رماد الفحم الساخن ، ووضعتها على صدره اللاهث ، ولكن هذا لم يخفف من حدة تعب الصغير . ولم تقلق « في » في أول الأمر أكثر مما ينبغي ، ولكن حين مرت الساعات وأخذت حالته في التدهور بسرعة ، لم تعد تدري ما عليها فعله ، وجلست ميغي بقربه تعصر يديها وفي رأسها نهر من الصلوات الصامتة . وعندما وصل بادي في الساعة السادسة مساء ، كان صوت تنفس الطفل يصل إلى الشرفة وقد ازرقّت شفتاه .

وتوجه بادي على الفور إلى المنزل الكبير حيث الهاتف ، ولكن الطبيب كان قد ذهب لعيادة أحد مرضاه على بعد أكثر من ستين كيلو متراً . وحاولوا أن يجعلوا هال يتنشق بخار الكبريت الساخن لعله يسعل ويخرج كتلة القشع الجاثمة في حنجرته والتي تكاد تخنقه ، ولكنه لم يكن يستطيع أن يقلص عضلات صدره بقوة

ليطرد القشع، وكان لونه يتحول تدريجياً إلى الزرقة الداكنة وقد أصبح تنفسه متشنجاً، وميغي جالسة بقربه تطوفه بذراعيها وتصلي وقلبها يعصر عصراً ويلتوي ألماً أمام جهود الطفل اليائسة للتنفس. فمن بين كل أخوتها كان هال أثيرها، وكانت هي أمه، ولم تكن قد تمنت يوماً في حياتها مثل هذا اليوم وبهذه الحرارة أن تكون أُمّاً كبيرة، فقد كانت تظن أنها لو كانت امرأة كبيرة مثل «في» لاستطاعت أن تشفيه. أما «في» فلم يكن ذلك بإمكانها لأنها لم تكن أمه. وغلبها الارتباك والذعر، فضمت الجسد الصغير المتثاقل بشدة وهي تحاول أن تساعده على التنفس.

ولم يخطر ببالها لحظة أنه من الممكن أن يموت، حتى عندما انزلق بادي و «في» على ركبهما أمام السرير وأخذا يصليان وهما لا يعلمان ما يمكنهما عمله. وعند منتصف الليل أزاح بادي الطفل المستقر بين ذراعي ميغي ومدده برفق مسنداً إياه على الوسائد. وانفتحت عينا ميغي وكانت قد أغفت في اللحظة التي كفّ بها هال عن التخبط:

ـــ آه، إنه أفضل حالاً يا والدي.

وهزّ بادي رأسه وقد بدا عجوزاً متغضناً، وكان ضوء

المصباح يلقي بأشعة جليدية في شعره ولحيته التي لم يحلقها منذ أسبوع :

ــ كلا يا ميغي ، إن هال ليس أفضل حالاً كما تعنين أنت ، ولكنه الآن في سلام ، ولقد ذهب إلى الرب ولم يعد يتألم .

ــ « إن أباك يقصد أنه قد مات » . قالت « في » بصوت أجوف .

ــ آه يا أبي ، كلا ! لا يمكن أن يكون ميتاً !

ولكن المخلوق الصغير المتكور بين الوسائد كان ميتاً .

ولقد فهمت ميغي ذلك منذ اللحظة التي نظرت فيها إليه رغم كونها لم تر الموت من قبل .

كان يبدو كدمية وليس كولد . فنهضت وخرجت إلى حيث كان الفتية ساهرين قلقين حول النار في المطبخ وبرفقتهم السيدة سميث التي كانت تجلس على كرسي قاس بجوارهم وتراقب التوأمين الصغيرين وقد وضع فراشهما الصغير في المطبخ للدفء .

ــ « لقد مات » قالت ميغي .

ورفع ستوارت نظره إليها وكأنه خارج من حلم بعيد وقال :

ــ هذا أفضل ، إنه الآن في سلام .

ونهض على قدميه. وعندما دخلت «في» اقترب منها دون أن يلمسها:

ــ أماه، لا بد أنك تعبة، تعالي وارقدي، سوف أشعل لك ناراً في غرفتك. هيا بنا، تعالي للنوم.

واستدارت «في» وتبعته بدون كلمة. ونهض بوب وخرج إلى الشرفة، وبقي الفتيان الآخرون في مقاعدهم يتململون فترة ثم تبعوه خارجاً، ولم يظهر بادي على الإطلاق. وبدون أن تنطق بكلمة، أخذت السيدة سميث عربة الأولاد من مكانها في الزاوية ووضعت فيها برفق باتسي وجيمس النائمين، ونظرت إلى ميغي التي كانت دموعها تجري على خديها:

ــ ميغي ،أنا ذاهبة إلى المنزل الكبير، وسآخذ جيمس وباتسي معي. سأعود غداً صباحاً، ولكن من الأفضل أن يبقى الطفلان بصحبتي وبصحبة ميني وكات لفترة. أخبري أمك بذلك.

وجلست ميغي في مقعد فارغ وأحاطت ركبتيها بيديها. آه، لقد كان ابنها، ومات! هال الصغير الذي اعتنت به وأحاطته بحنانها كالأم. ولم يكن مكانه في تفكيرها قد فرغ بعد، فكانت

لا تزال تشعر بحرارة جسمه على صدرها، وكان من المهول أن تعلم أنها لن تشعر ثانية بثقل جسده على صدرها، هناك حيث استند أربع سنوات بكاملها. كلا، إن الدموع ليست مناسبة هنا، كانت الدموع عذراً في حالة أنيبس، عذراً للجروح النازفة في كبريائها الرقيقة الهشة، وفي طفولتها التي تركتها وراءها إلى الأبد. أما هذا فكان عبئاً عليها أن تحمله وأن تعيش معه وبالرغم منه، حتى نهاية أيامها، فالرغبة في البقاء كانت قوية جداً عند البعض، وأضعف عند البعض الآخرين، أما عند ميغي فقد كانت صلبة كحبل من الفولاذ. ووجدها الأب رالف هكذا عندما أتى برفقة الطبيب، وأشارت بصمت إلى الممر ولم تتحرك لتتبعهم. ومر وقت طويل قبل أن يتمكن الكاهن من أن يفعل ماأراد فعله منذ اللحظة التي اتصلت بها ميري كارسون هاتفياً ببيت الكاهن: أن يذهب إلى ميغي ويبقى بقربها، ويعطي الانثى الصغيرة الغريبة البائسة شيئاً من نفسه، لها، ولها وحدها. وكان متأكداً أن لا أحد كان يدرك تماماً ما يعني هال بالنسبة لها.

ولكنه كان بحاجة لوقت طويل، فقد كان عليه أن يقوم بالطقوس الدينية الأخيرة ويمسح الطفل بالزيت المقدس في حالة لم

تكن روحه قد غادرت جسده بعد، وكان عليه أن يرى « في » وبادي، ثم يعطي بعض الإرشادات العملية. وكان الطبيب قد رحل مكتئباً، ولكنه كان قد اعتاد من زمن على رؤية المآسي التي كانت حتمية بين زبائنه البعيدين، وبعد أن سمع أقوالهم تأكد أنه لم يكن باستطاعته أن يفعل أكثر مما فعلوا بعيداً عن المستشفى وعن الممرضين الخبراء. إن سكان هذه المناطق البعيدة كانوا يخاطرون مخاطرة كبرى، إذ كانوا يقابلون الشيطان وجهاً لوجه ويتمسكون بالحياة. وفي شهادة الوفاة كتب أن الموت حدث بسبب مرض « الخناق » الواسع الانتشار.

ولم يبق شيء أمام الأب رالف. وكان بادي قد لحق بـ « في » ليبقى بقربها، أما بوب وأخوته فقد ذهبوا إلى المنشرة لصنع نعش صغير. وكان ستوارت في الطابق الأعلى في غرفة « في »، وخيال وجهه الصافي الذي يشبه وجهها يرتسم على السماء المظلمة خارج النافذة. ومن المكان الذي كانت « في » ترقد فيه على وسادتها، ويد بادي تحتضن يدها، لم تغادر عيناها لحظة واحدة الخيال الأسود المتكوم على الأرض الباردة. كانت الساعة قد أصبحت الخامسة صباحاً وقد بدأت الديكة صياحها وهي تستفيق. ولكن النهار كان ما يزال بعيداً.

ونسي الأب رالف أنه مازال مرتدياً بطرشيله الأرجواني، وانحنى على النار التي بدأت تخمد فأضرمها، ثم أخفَتَ ضوء المصباح الموضوع على الطاولة وراءه وجلس على مقعد خشبي بمواجهة ميغي ينظر إليها.

كانت قد كبرت فجأة وكأنها لبست جزمة السبعة الأميال، وأوشكت أن تتجاوزه وتتركه وحيداً وراءها، وشعر وهو ينظر إليها بقلق شديد لم يشعر به طوال حياته التي ملأها الشك اللاذع بشجاعته. ولكن ممّ كان يخاف؟ أمن الشيء الذي لم يكن يظن أن بإمكانه مواجهته إذا ما حدث؟ كان شجاعاً في مواجهته للآخرين، ولم يكن يخشاهم، ولكنه في أعماقه كان ينتظر أن يحدث له هذا الشيء الذي لا يعرف له اسماً ويتسلل إلى وجدانه كاللص، وهو غافل، وكان خائفاً.

وبينما كانت ميغي قد وُلدت بعده بثمانية عشر عاماً، كانت قد كبرت قبله وسبقته. ولا يعني هذا أنها كانت قديسة، أو أكثر من مجرد طفلة. ولكنها لم تكن تشكو من شيء أبداً إذ كانت تتمتع بنعمة الرضى ـــ أم هي لعنة الرضى؟ ـــ ومهما حدث ـــ أو سيحدث ـــ فقد كانت تواجه كل شيء وتتقبله ثم تخزنه في

أعماقها لكي تغذي شعلة حياتها . من علَّمها هذا ؟ وهل يمكن تعلم هذه الأشياء ؟ أو أن الفكرة التي كوّنها عنها ما هي إلا وهم من نسج خياله ؟ ولكن ما همّ هذا كله ؟ وما الأهمّ ؟ هي ، كما هي حقيقة ، أم كما يراها ؟

ـــ آه يا ميغي . قال وهو يتنهد بيأس .

وأدارت بصرها نحوه ، ومن أعماق حزنها ابتسمت له ابتسامة تفيض بحب عارم لا حدود له ، لا يعكره كبت ولا أي من المحرمات التي لم تكن قد دخلت عالمها بعد ، وهزّ هذا الحب أحشاءه هزّاً وشعر بأنه يذوب ، وتمنى إلى الله الذي كان يشك بوجوده أحياناً ، لو كان باستطاعته أن يكون أي شيء آخر في العالم وليس رالف دو بريكاسار . أكان هذا ما يخشاه ؟ أهذا هو الشيء المجهول ؟ يا إلهي ، لماذا كان يحبها كل هذا الحب ؟ وكالعادة ، لم يجبه أحد على سؤاله . وبقيت ميغي جالسة تبتسم له .

ونهضت « في » في الفجر لتهيئة طعام الإفطار بمساعدة ستوارت ، ثم أتت السيدة سميث برفقة ميني وكات ووقفت النساء الأربع أمام الفرن يتحدثن بهمس وقد جمعهن نوع من الحزن لم يكن باستطاعة الكاهن ولا ميغي فهمه . وبعد الطعام ، ذهبت ميغي

لتنجيد الصندوق الخشبي الذي صنعه أخوتها ودهنوه، وكانت أمها قد ناولتها بدون كلمة فستاناً للسهرة من الساتان الأبيض الذي اصفر لونه بفعل الزمن، فقطّعته ميغي قطعاً تناسب قياس الصندوق، وبينما كان الأب رالف يغطيه بقطع من قماش الفوط، خاطت ميغي قطع الساتان على آلة الخياطة، ثم غطيا القماش السميك بقطع الساتان وثبتاها بمسامير إلى جدران النعش الداخلية. وبعد أن ألبست «في» طفلها أجمل ملابسه، وسرحت شعره، مددته في العش الناعم الذي كانت تنبعث منه رائحة «في» وليس رائحة ميغي التي كانت أمه. وأغلق بادي الغطاء وهو ينتحب فقد كان هذا أول من يفقد من أولاده.

منذ سنوات عديدة، كانت صالة الاستقبال في دروغيدا تستعمل ككنيسة خاصة، وفي أحد أطرافها كان هناك مذبح مغطى بقماش مطرز بخيوط الذهب، وقد دفعت ميري كارسون ألف ليرة للراهبات اللواتي طرزنه. وكانت السيدة سميث قد زينت المذبح والصالة بزهور شتوية قطفتها من حديقة دروغيدا التي كانت تعج بها، وأقام الأب رالف القداس الجنائزي وهو يرتدي قميصاً أبيض بدون دانتيل، وحلة سوداء بسيطة.

وكما جرت العادة في أغلب المزارع الكبرى في الداخل، فقد كانت دروغيدا تدفن موتاها على أرضها. وكانت المقبرة تقع خلف الحديقة على ضفة الجدول المظللة بالصفصاف، وقد أحاط بها سور حديدي مطلي باللون الأبيض، وغاصت في الخضرة رغم الجفاف، لأنها كانت تُروى بالماء من خزانات المنزل الكبير. كان مايكل كارسون وابنه يرقدان هناك في مدفن مهيب من الرخام، يعلوه ملاك حارس بحجمه الطبيعي، يشرع بيده سيفاً ليحمي راحة الموتى. وكان هناك حوالي عشرة قبور بسيطة تحيط بالمدفن الفخم وعليها صلبان خشبية عادية بيضاء، وتحدها أقواس صنعت من الشريط الأبيض المسنن، وبعضها لا يحمل أي اسم، كان هناك جزاز مجهول لا عائلة له، مات في شجار، ومتشردان أو ثلاثة أنهيا جولة حياتهما في دروغيدا، وعظام لمجهول، لا رجل ولا امرأة، وجدت في أحد المراعي، وطاهي ميري كارسون الصيني وقد رُفعت فوق رفاته مظلة حمراء غريبة عُلقت عليها أجراس صغيرة ترن كلما هب الهواء وتغني اسمه: هي سنغ، هي سنغ، هي سنغ. وكان هناك أيضاً سائق ماشية كتبت على صليبه هذه الكلمات «شارلي، شارب البيرة، كان شاباً طيباً»، وآخرون أيضاً وبعضهم نسوة.

ولكن هذه البساطة لم تكن تليق بهال، ابن أخ المالكة، فوضعوا نعشه البسيط على رف داخل المدفن الكبير وأغلقوا الأبواب البرونزية بإحكام.

○

وبعد مضي فترة قصيرة لم يعد أحد يتحدث عن هال إلا صدفة. واحتفظت ميغي بحزنها لنفسها، وكان ألمها مصبوغاً بهذه الكآبة الخاصة التي لا تُرى إلا عند الأطفال والتي تضخِّم كل شيء وتجعله سرياً. ومع ذلك، فطفولتها نفسها ساعدتها على دفن هذا الألم تحت أحداث الحياة اليومية وخففت من حدته. أما الصبيان فلم يتأثروا إلا قليلاً ما عدا بوب الذي كان يحب أخاه الصغير حباً جماً. وأما حزن بادي فقد كان عميقاً ولم يعلم أحد إذا كانت « في » حزينة أم لا، وكانت تبدو كأنها تبتعد أكثر فأكثر عن زوجها وأولادها، وعن كل عاطفة، ولهذا فقد كان بادي ممتناً جداً لستوارت لاهتمامه بأمه وللحنان الرصين الذي كان يحيطها به. لم يكن أحد غير بادي قد علم كيف بدت « في » في ذلك اليوم الذي عاد به من غيللي بدون فرانك، فلم يظهر في عينيها الرماديتين الصافيتين أية ومضة من التأثر أو التصلب أو الاتهام، ولا من الكره أو الأسى، وكأنها كانت ببساطة تنتظر ساعة

الانفجار هذه كمحكوم بالإعدام ينتظر الطلقة القاتلة، وهي عالمة بقدرها وبعجزها عن تلافيه.

ــ «كنت أعلم أنه لن يعود إلى البيت».

ــ «ربما سيعود يا «في» إذا كتبت له بسرعة» أجاب بادي.

فهزت رأسها وعلى عادتها لم تفسر حركتها. من الأفضل أن يبني فرانك حياة جديدة بعيداً عنها وعن دروغيدا، وكانت تعرف ابنها حق المعرفة وتعلم أن كلمة واحدة منها تكفي لإرجاعه، ولكنها لن تقول هذه الكلمة أبداً. وإن هي شعرت بأن الأيام طويلة ومرة، يغلّفها الشعور بالفشل، فما عليها إلا أن تتحمل بصمت. صحيح أنها لم تختر بادي بنفسها ولكنه كان طيباً، لم يكن هناك من مخلوق أكثر طيبة من بادي، وأما هي فكانت واحدة من أولئك الأشخاص ذوي العواطف الحادة التي لا تطاق ولا تحتمل، ولقد تلقت درساً قاسياً جداً، ولهذا فقد حرّمت العواطف على نفسها خلال خمسة وعشرين عاماً وكانت واثقة أن نتيجة تصلبها ستكون حسنة.

وتابعت الحياة سيرها في دورتها اللامتناهية على وقع أنغام الأرض، وفي الصيف التالي تساقطت الأمطار، ولم تكن أمطاراً

موسمية وإنما نوعاً آخر خفيفاً، فامتلأ الجدول والخزانات بالمياه، وارتوت جذور الأعشاب الظمأى، وسقط الغبار. وكاد الرجال يبكون فرحاً وهم يقومون بأعمالهم الموسمية وقد تأكدوا أنه ليس عليهم حمل العلف لتغذية القطعان باليد. وكانت الأعشاب قد دامت وقتاً كافياً خلال الجفاف وأضيفت إليها بعض الشجيرات التي قطعت من بين أكثرها عصارة، ولكن الحال لم تكن هكذا في كل مزارع المقاطعة. وكان عدد الرؤوس في مزرعة ما يتعلق بمساحة مراعيها. ونظراً لسعة أراضي دروغيدا فقد كان عدد الرؤوس فيها قليلاً إذا ما قورن بمساحتها، ولهذا فقد كان العشب يكفي لمدة طويلة.

كان موسم الوضع والأسابيع التي تعقبه من أشق الأيام في حياة مربيي الماشية، وكانت الصغار تُمسك ويُطوّق ذيلها بحلقة ثم تقص أذانها. أما الحمل الذكر الذي لا حاجة له للتوالد، فقد كان يُخصى، وكان هذا العمل قذراً كريهاً، يبلل الرجال بالدماء، ولم يكن هناك وسيلة أخرى للقيام بهذه العملية لآلاف الآلاف من الحملان الذكور، وكل ذلك في أيام قليلة جداً. وكانت أصواف هذه الخرفان من أجود الأصواف في العالم، وهي تُربّى على نطاق

غير معروف على الإطلاق في بلد آخر ولا تحتاج إلا ليد عاملة ضئيلة جداً. وكان كل شيء معداً لانتاج أجود أنواع الصوف. أما حلاقة مؤخرة الحملان فضرورية إذ كان الصوف هناك معرضاً للاتساخ ولالتصاق الذباب مما يؤدّي إلى تشكل كتلة قاسية مسودّة، وكانت عملية الحلاقة من أبسط أعمال الجز وإنما مقرفة وكريهة، وتتم في وسط غمامة من الذباب، ولكنها كانت تؤدّي إلى ارتفاع أسعار الصوف.

ثم كانت هناك عملية التغطيس، فكانت آلاف الحيوانات التي تثغو وتقفز، تُساق إلى أحواض مليئة بمحلول مطهر حيث تُغَطَّس لتخليصها من القراد والطفيليات الأخرى، وبعد ذلك يأتي دور الأدوية التي كانت تحقن بواسطة حقن ضخمة تغرز في رقاب الخرفان للقضاء على الطفيليات المعوية.

ذلك أن العمل مع الخراف لا ينتهي أبداً، فعندما ينتهي عمل يبدأ عمل آخر. كانت الحيوانات تُجمع وتُنتخَب ثم تُساق من مرعى إلى آخر، وبعدها يأتي موسم التزاوج، ثم يتم الفصل بينها، ويحين الوضع وتبدأ عمليات الحلق والتغطيس والحقن بالدواء، ثم تُذبح بعض القطعان وتُرسَل إلى أسواق البيع ... وعدا

عن الخرفان فقد كانت دروغيدا تربي ألف رأس من أجود أنواع البقر ولكن مردودها كان أقل من مردود الخرفان. وفي السنوات الجيدة كانت دروغيدا تربي خروفاً على كل هكتار أرض وهذا يعني أنه بها مئة وخمسة وعشرين ألف خروف، وكانت كلها من الميرينوس التي لا تباع لحومها أبداً. وفي آخر حياته، عندما تنعدم قدرته على انتاج الصوف، كان الحيوان يُقتل ويُستعمل لصناعة الجلد والدهن والشحوم الحيوانية والصمغ الذي يُستخدم في مصابغ الجلود ومعامل العلف.

وفي هذا الجو أصبحت المطالعة أكثر أهمية مما كانت عليه أبداً بالنسبة لعائلة كليري المعزولة في دروغيدا عن العالم الخارجي. وكان اتصالهم الوحيد مع العالم يتم عبر الكلمات المكتوبة. ولكن لم يكن هناك مكتبة قريبة لاستعارة الكتب، كما كان الحال في واهيني، ولا زيارات أسبوعية للمدينة من أجل البريد والصحف ومجموعة جديدة من الكتب. وقد سد الأب رالف هذه الثغرة، إذ نهب نهباً مكتبة غيللانبون ومكتبة الدير ومكتبته الخاصة، وغمرته الدهشة عندما اكتشف أنه بعمله هذا قد أسس مكتبة متنقلة بواسطة بلوي ويليامز وشاحنة البريد. وكانت الشاحنة محملة دوماً

بالكتب والمجلدات العتيقة المهترئة تنتقل على الطريق مارة بدروغيدا، وبوغيلا، ودييان ــ دييان، وبريشي بل، وكونوماتا، حيث كانت تتلقفها الأرواح المتعطشة للثقافة والهرب من الواقع. وكان الناس يعيدون الكتب التي تعجبهم بأسف شديد، ولكن الأب رالف والراهبات كانوا يسجلون بعناية أين تذهب الكتب. ومن وقت لآخر كان الأب رالف يطلب مجموعة جديدة من الكتب بواسطة وكالة الأنباء في غيللي، ودون أي خجل كان يرسل الحساب إلى ميري كارسون ويعتبره هبة منها إلى «جمعية مكتبة الصليب المقدس».

كان ذلك في تلك الأيام حيث لا يجرؤ كتاب أن يتحدث عن أكثر من قبلة بريئة، ولا يحتوي على أي مقطع غزلي مثير، وهكذا فلم يكن هناك فاصل واضح بين كتب الأطفال وكتب الناضجين من القراء. ولم يكن من العيب أبداً أن يقرأ بادي ويحب الكتب التي يقرؤها أولاده. وعندما يهبط الظلام كانوا يجلسون في المطبخ ويتناوبون قراءة أشعار بانجو بيترسون ويرتعشون ويضحكون أو يبكون حسب الموضوع.

وكانت قصة «فتاة نهر الاوفرفلو» هي قصتهم المفضلة،

وبانجو شاعرهم المفضل. وربما كان هذا الشعر رديئاً، لكن هذه القصائد لم تكن قد كتبت لعلماء في الفقه، بل كانت أشعاراً من الشعب وللشعب، وكان باستطاعة عدد كبير من الاستراليين ترديد هذه الأشعار عن ظهر قلب قبل أن يتعرفوا على شعر «تينيسون» و «ووردسوورث» الكلاسيكي، لأن هؤلاء كانوا يستوحون شعرهم من انجلترا، فحقول النرجس والزنبق لم تكن تعني شيئاً لعائلة كليري التي كانت تعيش تحت مناخ لا ينبت أيا من هذه الأزهار.

كانت العائلة تفهم شعراء الأرياف أكثر من غيرهم إذ أن نهر الـ «أوفرفلو» كان وراءهم، والقطعان الراحلة كانت حقيقة يعيشونها كل يوم، وكانت هناك طريق لتنقل القطعان تمر قرب نهر الباروون، في أراضي الدولة، وتعبر القارة من طرفها إلى الطرف الآخر. وفيما مضى كان سائقو القطعان يتركون مواشيهم تعيث الفساد في المراعي، ولهذا فقد كانوا يلقون استقبالاً سيئاً، أما سائقوا الأبقار فقد كانوا يثيرون كرهاً حقيقياً عندما يمرون في وسط أفضل مراعي المستعمرين. وفي الوقت الحاضر وبعد أن شقت الدولة طرقاً للحيوانات أصبح سائقوا الأبقار أسطورة، وتحسنت العلاقات بين المتجولين والمزارعين المستقرين.

أما ما تبقى من سائقي القطعان القلة، فقد كانوا يُستقبَلون دوماً بالترحاب عندما يمرون لتناول كأس من البيرة أو لتبادل الحديث أو لتناول وجبة من الطعام الجيد. وأحياناً كانت نساؤهم يرافقنهم في عربات قديمة مشدودة إلى فرس مسكينة عجوز وقد حمّلن عليها القدور والقصاع وعلبا معدنية فارغة تتلاطم وترن. وكانت تلك النسوة من أكثرهن مرحاً أو أكثرهن عبوساً في داخل البلاد، ينتقلن من كينونا إلى بارّو، ومن كاترين إلى كاري. غريب حال هؤلاء النسوة، فهن لم يشعرن يوماً بسقف فوق رؤوسهن أو بفراش قشي تحت ظهورهن الصلبة كالفولاذ، وما تفوق عليهن رجل أبداً، فقد كن بقوة وجلد البلد الذي يطأن أرضه بأقدامهن، ومتوحشات كالعصافير التي تعيش في تلك الأشجار التي أحرقتها الشمس. وكان الأولاد ينزوون بخجل وراء العجلات أو يختبئون في المحطبة بينما كان الأهل يثرثرون وهم يتناولون فنجاناً من الشاي ويتبادلون القصص والكتب، ويعدون بإيصال رسالة شفهية إلى « هوبيرون كولنز » أو « برومبي وولترز » أو يروون مغامرة العامل « بومي » الرائعة. وأحياناً كان هؤلاء المشردون يحفرون قبراً لدفن طفل أو امرأة، أو زوج أو رفيق، في ظل شجرة تبقى صورتها محفورة في أذهانهم إلى الأبد مع أنها تشبه كل الأشجار الأخرى

بجوارها، أو هكذا يراها من لا يستطيع أن يميز بقلبه شجرة وحيدة مميزة بين العديد من الأشجار.

كانت ميغي تجهل معنى عبارة مثل «حقائق الحياة» فالظروف كانت قد التأمت لتسد في وجهها كل مجال يسهل عليها فهم هذا. وكان أبوها قد أقام حاجزاً صلباً بين ذكور العائلة وإناثها، فمواضيع مثل التزاوج والتناسل لم تكن تناقش أبداً أمام النساء كما أن الرجال ما كانوا يظهرون أبداً أمامهن إلا وقد ارتدوا ثيابهم بكاملها. أما الكتب التي كان بإمكانها أن تلقي بعض الضوء على تساؤلات ميغي فلم تكن تصل أبداً إلى دروغيدا، ولم يكن لميغي صديقات من سنها ليساعدن في تربيتها، وكانت متطلبات البيت تشكل المحور الذي تدور حياتها حوله. أما في الجوار فلم يكن هناك أية حياة جنسية، فالحيوانات في الحوش المركزي كانت كلها معقمة تقريباً، وميري كارسون لم تكن تربي الخيول وإنما كانت تشتريها من مارتن كنغ في بوغيلا، لأن فحول الخيل لا تسبب إلا المشاكل ودروغيدا ليست بحاجة للمشاكل. كان هناك ثور متوحش مرعب ولكن الاقتراب من زريبته كان محظوراً تماماً وكانت ميغي تخاف منه بشكل شديد ولا تجرؤ على

الاقتراب من هناك، أما الكلاب فكانت تبقى مربوطة في اوجرتها، وكان الاقتراب منها ممنوعاً أيضاً. ولم تكن ميغي تملك الوقت الكافي لمراقبة الخنازير، أضف إلى ذلك أنها كانت تكرهها وخاصة أنه كان عليها إطعامها. والحقيقة أن ميغي لم تكن تملك الوقت الكافي لمراقبة أي شيء على الإطلاق غير أخويها التوأمين. والجهل يولد الجهل. وحين يرقد الجسد والعقل فهما لا يستفيقان أمام أشياء تبدو واضحة جلية لشخص آخر أكثر تيقظاً ووعياً.

وقبل أن تبلغ ميغي الخامسة عشر من عمرها، وعندما كان حر الصيف يتصاعد إلى أوجّه، لاحظت على سروالها الداخلي بعض البقع البنية اللون، وبعد يوم أو اثنين اختفت هذه البقع لتعاود الظهور بعد ستة أسابيع، وانقلب خجلها إلى رعب. وفي المرة الأولى ظنت أنها علامة على القذارة وآلمها ذلك، ولكن، وعندما ظهرت البقع للمرة الثانية رأت بوضوح أنها بقع دم، ولم تكن تعرف إطلاقاً من أين يأتي هذا الدم لكنها ظنت أنها مجروحة. واختفى النزف البطيء بعد ثلاثة أيام ولم تره بعد ذلك لمدة شهرين على الأقل، وكانت تغسل سراويلها خفية فلم يلاحظ أحد شيئاً لأنها كانت تغسل الثياب بنفسها في أغلب الأحيان. وعندما

حصل النزف مرة ثانية كان مرافقاً بالألم، وهو أول ألم تشعر به في حياتها عدا عن تلبك معدتها، وكان النزيف هذه المرة أسوأ بكثير مما قبله. فسرقت ميغي بعض فوط أخويها التوأمين وحاولت أن تربط نفسها تحت السروال والرعب يغلي في أعماقها من أن يتسرب الدم إلى الخارج.

كان موت هال شبيهاً بزيارة عاصفة لشبح خيالي، ولكن ذوبان كيانها بهذه الطريقة كان مرعباً. كيف يمكنها أن تذهب لأبيها أو لأمها وتخبرهما أنها كانت تموت من مرض مخجل؟ كان بإمكانها أن تحكي عذابها لفرانك ولكن فرانك كان بعيداً جداً ولا تعرف كيف تجده. وكانت قد أصغت إلى النساء أثناء تناولهن الشاي وهن يتحدثن عن أورام خبيثة أو عن السرطان، عن موت صديقاتهن أو قريباتهن البشع بعد أوجاع أليمة، وتأكدت ميغي أنها قد أصيبت بورم ما يأكل أحشاءها وينهشها متقدماً بصمت نحو قلبها المذعور. آه، أنها لا تريد أن تموت.

وكانت معلوماتها عن الموت غامضة جداً، ولم تكن تدري بالضبط ما ستكون عليه حالها في العالم الآخر، فالدين بالنسبة لميغي كان عبارة عن قوانين وليس عن خبرة روحية ولم يكن

باستطاعته مساعدتها أبداً. وتدافعت الكلمات والعبارات في رأسها المذعور، كلمات سمعتها من أهلها، ومن أصدقائها، ومن الراهبات والكهنة في مواعظهم، وعبارات التهديد التي يتلفظ بها الأشرار في الكتب والروايات. ولم يكن باستطاعتها أن تعقد اتفاقية مع الموت، فكانت ترقد ليلة بعد ليلة في خوف هائل لا يوصف وهي تحاول أن تتصور الموت كليل لا نهاية له أو كغور سحيق من النيران المتأججة التي عليها اجتيازه كي تبلغ حقولاً ذهبية في الناحية الأخرى؛ أو كداخل كرة عملاقة مليء بغناء ملائكي ويغمره النور المتسرب من عدد لا يحصى من النوافذ ذات الزجاج الملون.

وأصبحت ميغي هادئة جداً ولكن هدوءها كان يختلف عن انعزالية ستوارت الحالمة الصافية، كان هذا الهدوء نوعاً من التحجر جمّدها كما يجمد حيوان صغير أمام نظرات أفعى. وكانت تقفز عندما يُوَجَّه الكلام إليها على غفلة، وإذا ما بكى الصغيران أخذت تدور حولهما مشغولة بهما وهي تلوم نفسها بقسوة على إهمالها، وما أن تجد نفسها وحيدة حتى تركض إلى المقبرة، إلى قبر هال الذي كان الشخص الوحيد الميت الذي تعرف.

ولاحظ الجميع التغير الذي طرأ عليها وتقبلوه كعلامة على أنها كبرت ولكن أحداً لم يكلف نفسه عناء السؤال عما يعني لها هذا. وكانت تخفي ضيقها جيداً، ذلك أن الدروس القديمة التي تعلمتها كانت قد انغرزت جيداً في أعماقها وكانت قدرتها في السيطرة على نفسها عجيبة، وعزة نفسها هائلة. لا يجب أن يعلم أحد ما يجري في داخلها والواجهة الخارجية يجب أن تبقى صافية حتى النهاية. وكان فرانك وستوارت مثلاً حياً أمامها، وفي عروقها تجري الدماء نفسها التي تجري في عروقهما. كان هذا طبعها وحصتها من الميراث.

وخلال زيارات الأب رالف المتكررة لدروغيدا كان يلاحظ أن التغير في ميغي يزداد عمقاً، ولكنه لاحظ أن التحول الأنثوي الجميل الذي يطرأ عليها كان يطفىء كل حيويتها، فتحول اهتمامه إلى قلق ثم إلى ذعر، وكانت الفتاة تذوي روحياً وجسدياً أمام عينيه وتنزلق مبتعدة عن الجميع، ولم يكن يتحمل رؤيتها وهي تتحول إلى « في » أخرى. كان وجهها الصغير المدبب قد أصبح مجرد عينين تحدقان في منظر مرعب، وبشرتها النقية التي لم تلوحها الشمس أبداً ولا عرفت النمش قد أصبحت أكثر شفافية. وفكر الأب أنها لو

استمرت على هذا المنوال فسوف تغرق ذات يوم في عينيها، كالثعبان الذي يبتلع ذيله، إلى أن يبتلعها الكون كشعاع رمادي لا يُرى إلّا من زاوية معينة حيث يقبع الظلام وتزحف الأخاديد السوداء على الجدار الأبيض.

حسناً، سيكتشف ما بها حتى لو اقتلعه منها رغماً عنها. وكانت متطلبات ميري كارسون في هذه الأيام قد ازدادت أكثر بكثير عما قبل وأصبحت تغار من كل لحظة يقضيها في بيت القيّم، وكان عليه أن يكون صبوراً وبارعاً ومراوغاً لكي لا يسمح لنفسه بالثورة ضد حب التملك الذي يعج في أعماق العجوز، ولذا فلا يجب أن يتغلب انشغاله بميغي على سياسته الحكيمة وعلى الشعور بالرضى الذي كان يجتاحه كلما رأى تأثير سحره وجاذبيته على ميري كارسون المشاكسة المتمردة. وبينما كان قلقه على سعادة مخلوق وحيد يشغل فكره، كان لا بد من أن يعترف بوجود شعور آخر في أعماقه؛ قسوة باردة كقسوة الهر تدفعه للفوز على هذه المرأة المستبدة المغرورة وتهزيئها. آه، كم كانت هذه اللعبة تعجبه! فلن تتغلب العنكبوت العجوز عليه.

وذات يوم استطاع أن يفلت من صحبة ميري كارسون،

وعثر على ميغـي في المقبرة الصغيرة، في ظل ملاك الانتقـــام الشاحب الذي لا يبدو عليه شيء من هيئة المحارب على الرغم من سيفه؛ وكانت تحدق في وجه الملاك الصبياني الهادىء والرعب مرتسم بوضوح على وجهها، وكان التباين رائعاً بين وجه الإنسان الحساس ووجه التمثال الذي لا حياة به؛ فكر الأب. ولكن، ما الذي يفعله هو هنا، جارياً وراءها كدجاجة عجوز قلقة بينما الأمر لا يخصه أبداً؟ كان على أبيها وأمها أن يحاولا معرفة ما يحدث لها، ولكنهما لم يلاحظا شيئاً وهي لا تهمهما كما تهمه؛ ولكنه كاهن وعليه أن يحمل العزاء للوحيـد والبـائس في الـروح. لم يكـن باستطاعته أن يراها تعيسة ولكنه كان ينفر من تراكم الظروف التي تزيد من تعلقه بها، وهو قد بنى في داخله مستودعاً من الأحداث والذكريات التي تدور حولها، وكان خائفاً. كان حبه لها وواجبه ككاهن ملزم بتقديم كل الإسعافات الروحية المنتظرة منه يتصارعان في داخله برفقة هاجس مرعب وهو أن يصبح ضرورياً جداً لكائن بشر ي وأن يصبح كائن آخر ضرورة حتمية له.

وسمعت ميغي وقع خطواته فوق العشب والتفتت لتواجهه وهي تضع يديها في حضنها وتنظر إلى قدميها. وجلس بقربها وقد

عقد ذراعيه حول ركبتيه وطوى رداءه برشاقة لا تقل عن رشاقة جسده. لا داعي للف والدوران، فكّر؛ لو كان باستطاعتها الافلات منه لأفلتت:

ــ ماذا بك يا ميغي؟

ــ لا شيء يا أبت.

ــ إني لا أصدقك.

ــ أرجوك يا أبت، أرجوك، لا أستطيع أن أخبرك.

ــ آه يا ميغي، يا قليلة الإيمان! إن باستطاعتك أن تخبريني أي شيء، أي شيء تحت ضوء الشمس، ولهذا السبب أنا هنا، ولهذا السبب أنا كاهن؛ إنني من اختاره الرب القدير لأمثله على الأرض، وأنا أصغي للجميع عوضاً عنه، واغفر أيضاً عوضاً عنه. ومن ثم يا صغيرتي ميغي، ليس هناك في ملكوت الله شيء يعجز هو أو أعجز أنا عن غفرانه. عليك أن تخبريني عما يقلقك يا عزيزتي، لأنه إذا كان هناك شخص واحد يمكنه أن يساعدك، فهذا الشخص هو أنا، وسأحاول مساعدتك وحمايتك طالما حييت، وإذا شئت فسوف أكون لك ملاكاً حارساً أفضل من هذه القطعة الرخامية التي تنظرين إليها.

وتنفس بعمق وانحنى نحوها:

ــ ميغي ، إذا كنت تحبينني فاخبريني .

فعصرت يديها قائلة :

ــ إني سأموت يا أبت ! إنني مريضة بالسرطان !

وانتابته رغبة جامحة في الضحك ، في أن ينفجر بضحكة مجلجلة تعبر عن انفراجه ، ولكنه نظر إلى البشرة الرقيقة المزرقة ، وإلى الذراعين النحيلتين وتملكته حاجة هائلة للبكاء والنحيب ، لكي يصرخ في وجه السماء ملوحاً لها بظلمها . كلا ، إن ميغي لم تتخيل هذا من لا شيء ، لا بد أن عندها أسباباً معقولة .

ــ وكيف علمت ذلك يا حبيبتي الصغيرة ؟

ومرت فترة طويلة حتى قررت أن تعترف له ، وعندما تكلمت كان عليه أن يقرب رأسه من شفتيها مقلداً بطريقة لا شعورية وضعه في كرسي الاعتراف ، وقد غطّى وجهه بيديه من عينيها ، ومد أذنيه ليستمع إلى آثامها .

ــ لقد بدأ هذا منذ ستة أشهر يا أبت . ولقد آلمني بطني أشد الألم ، ليس كما يحدث من عسر الهضم و .... آه يا أبت ... لقد خرج الدم ، خرج الدم غزيراً ...

ورد رأسه إلى الخلف، هذا شيء لم يحدث أبداً في كرسي اعتراف من قبل، ونظر إلى الرأس الصغيرة التي نكّسها الخجل تتنازعه عواطف شتّى حتى لم يعد بإمكانه أن يستجمع حواسه. وشعر في أعماقه بارتياح مضحك، لذيذ، وبغضب هائل على «في» التي تستحق القتل، وبإعجاب تخالطه الرهبة للكائن الصغير الذي استطاع تحمل صليب كهذا. وفي الوقت نفسه أحس بارتباك مريع يجتاحه.

كان الكاهن مثل ميغي سجيناً لأفكار عصره. كانت البنات الرخيصات في كل مدينة عرفها. من دبلن إلى غيللانبون، يأتين عمداً إلى كرسي الاعتراف ليهمسن له بأحلامهن كما لو كانت حقيقة واقعة ولا يشغل تفكيرهن إلا كونه كاهناً، وإلا رجولته، وقد عجزن عن تقبل فكرة أنه ليس بإمكانهن إيقاظ مشاعره. وكن يحكين له قصصاً عن رجال اغتصبوهن، وعن المحرمات التي يمارسنها برفقة فتيات أخريات، وعن الشهوة والزنى. وكان بينهن من يملكن خيالات خصبة جداً تحكي بأدق التفاصيل عن علاقتهن مع أحد الكهنة... وكان يصغي إليهن بدون أي شعور اللهم إلا الشعور باحتقار المشمئز، لأنه كان قد عاش كل

صرامة وقسوة المعهد اللاهوتي ولا يصعب امتحان كهذا على رجل من جبلته. ولكن تلك الفتيات لم يأتين أبداً على ذكر نشاطهن السري هذا الذي كان يعزلهن ويحط من قدرهن.

وعلى الرغم من محاولاته اليائسة لم يستطع أن يمنع موجة نارية من الانتشار تحت جلده. وجلس الأب رالف دو بريكاسار مشيحاً بوجهه وقد أخفاه بين راحتيه وهو يصارع الذل الذي أحس به لأن وجهه قد احمّر لأول مرة في حياته. ولكنه لم يكن يساعد ميغي بهذه الطريقة. وعندما تأكد أن الحمرة قد اختفت من وجهه، وقف على قدميه ورفع ميغي واجلسها على قاعدة التمثال الرخامية حتى أصبح وجهها على مستوى وجهه:

ـــ انظري إلى يا ميغي، كلا انظري إلي.

ورفعت عيناها المذعورتان ورأت أنه كان يبتسم، فغمر روحها شعور هائل بالارتياح، فهو لن يبتسم إذا كانت مهددة بالموت، إنها تعلم مقدار حبه لها لأنه لم يُخفِ عنها شعوره أبداً.

ـــ ميغي، إنك لن تموتي ولست مصابة بأي سرطان. ليس من شأني أنا أن أفسر لك ما يحدث ولكن من الأفضل أن أفعل.

كان على أمك أن تشرحه لك لسنين مضت، وأنا لا أفهم لماذا لم تفعل.

ورفع نظره إلى الملاك الحجري الساكن، وضحك ضحكة غريبة نصف مخنوقة.

ــ أيها السيد الرب! ما هذه المهمات التي تلقيها على عاتقي!

ثم التفت إلى ميغي:

ــ «في السنوات القادمة، وعندما تكبرين أكثر وتتعلمين أكثر عن حقائق الحياة، سوف تحاولين أن تتذكري هذا اليوم بارتباك وربما بخجل، ولكن لا تتذكريه هكذا يا ميغي، فليس هناك من داع للخجل أو الارتباك. إني في هذا الذي أفعله، كما في كل شيء أفعله، لست إلا أداة في يد ربنا، وهذه هي مهمتي الوحيدة على الأرض ولا أقبل بغيرها. لقد كنت خائفة جداً وكنتِ بحاجة إلى الإغاثة، وأرسل الله لك هذه الإغاثة في شخصي، تذكري هذا فقط يا ميغي. إنني كاهن الرب وأتكلم باسمه.

«إن ما يحدث لك يحدث لنساء الأرض قاطبة يا ميغي، فسوف تنزفين مرة كل شهر وخلال عدة أيام. وهذا يبدأ عادة حوالي

الثانية عشرة من العمر أو الثالثة عشرة ... وعلى فكرة كم عمرك يا ميغي ؟

ـــ خمسة عشر عاماً يا أبت .

ـــ خمسة عشر عاماً ؟ أنت ؟ وهزّ رأسه وهو يكاد لا يصدق :

ـــ حسناً ، إني مضطر أن أصدقك إذا كنت تقولين هذا . على كل حال أنت متأخرة أكثر من غالبية البنات . وهذه الحادثة تحصل كل شهر حتى تبلغي الخمسين عاماً تقريباً ، وهي ظاهرة منتظمة جداً عند بعض النساء ، كدورة القمر ، وأقل انتظاماً عند البعض الآخر ؛ وبعض النساء لا يتألمن والبعض الآخر يقاسين منها الأمرين . وهذا النزيف الشهري علامة على أنك قد نضجت . هل تعملين ما معنى النضج ؟

ـــ بالطبع يا أبت ! لقد قرأت معناه ، هذا يعني إني كبرت .

ـــ حسناً ، يكفي هذا التفسير . وطالما يستمر هذا النزيف فبإمكانك إنجاب الأولاد ، فهو جزء من عملية الخلق ، وفي الأيام التي سبقت سقوط آدم وحواء ، لم تكن حواء تعرف هذه الظاهرة ، ولكنهما عندما سقطا ، عاقب الله المرأة بقسوة أكثر من الرجل لأنها كانت السبب الحقيقي في سقطته ، فلقد أغوت الرجل ، هل تتذكرين كلام التوراة عن هذا الموضوع ؟

« وفي الآلام تلدين » ، وكان الرب يقصد بذلك أن المرأة ستتألم من كل شيء يتعلق بالأطفال ، فهم فرح عظيم ولكنهم في الوقت نفسه ألم أعظم ، هذا هو قدرك يا ميغي وعليك فقط أن تتقبليه .

كان بإمكان الأب أن يقدم هذه التعزية وهذه المساعدة لأي فرد من أفراد رعيته ، وإنما بتجرد أكثر ربما لأن الأمر لا يمسه شخصياً ، وبالطيبة نفسها وإنما بدون أن يعتبر المشكلة مشكلته ، ولكن ميغي كانت تجهل ذلك ، وربما كانت هذه الطريقة أجدى ، كما أنها تحمل تعزية وعوناً أكبر إذ أنها كانت تساعده على تجاوز التفاصيل الدقيقة غير المجدية . ولم يكن هذا متعمداً من قِبَله ، فلم يأته يوماً انسان يطلب العون وشعر أنه ينظر إليه من فوق أو يلومه على ضعفه ؛ وكثير من الكهنة كانوا يتركون رعاياهم وقد غمرهم شعور بالذنب أو بالحقارة البهيمية ، ولكن الأب رالف لم يفعل ذلك أبداً ، لأنه كان يجعلهم يشعرون بأنه هو أيضاً عرضة للأحزان والصراعات ، أحزان غريبة ، وصراعات غامضة ربما ، وإنما حقيقية . ولم يكن يعلم ــ وربما لم يكن يرغب في أن يفهم ــ أن القسم الكبير من جاذبيته كان يكمن ليس في شخصه وإنما في هذا

التحفظ شبه السماوي، وهذه الشرارة الإنسانية التي تضيء روحه. وبما أن الأمر هنا كان يتعلق بميغي فقد كلمها كما لو كان فرانك يكلمها، وكما لو كانت مساوية له، ولكنه هو كان أكبر وأعقل وأكثر ثقافة من فرانك، فكان إذن الصديق الحميم المثالي. وكم كان صوته جميلاً بلهجته الايرلندية الخفيفة المطعمة بالانجليزية التي طردت كل مخاوف ميغي وقلقها.

ولكنها كانت صغيرة، مليئة بالفضول ومتلهفة لمعرفة كل ما يمكنها معرفته، ولم تكن تقلقها أفكار الفلاسفة المعقدين الذين لا يسألون نفسهم أبداً «من؟» وإنما «لماذا؟». كان الأب رالف صديقها، ومعبود قلبها، وشمس عالمها الجديدة.

ــ لماذا لم يكن من شأنك أنت أن تخبرني يا أبت؟ لماذا كان على أمي أن تفعل هذا؟

ــ لأن النساء يحتفظن عادة بهذا الموضوع لأنفسهن، وليس من اللائق التحدث عن هذه الأشياء أمام الرجال يا ميغي، فهذا شيء خاص بالنساء فقط.

ــ لماذا؟

وهزّ رأسه ضاحكاً:

ـــ الحقيقة إني لا أعلم لماذا ، وأتمنى ألّا يكون الأمر كذلك ، ولكن عليك أن تصدقيني إذا قلت لك أن الأمر هكذا . لا تتحدثي عن هذا لأحد يا ميغي إلّا لأمك ، ولا تخبريها أنك قد ناقشت الموضوع معي .

ـــ حسناً يا أبت ، لن أفعل .

كم كان دور الأم صعباً ! وكل الأشياء التي يجب أن تتذكرها !

ـــ والآن يا ميغي عليك أن تعودي إلى البيت وتخبري أمك بما حدث وهي ستعلّمك كيف تحافظين على ملابسك من التلوث .

ـــ هل يحدث هذا لأمي أيضاً ؟

ـــ هذا يحدث لكل امرأة تتمتع بصحة جيدة ، ولكن الظاهرة تختفي عندما تكون المرأة حاملاً وإلى أن يأتي الطفل . وبهذه الطريقة تعلم المرأة أنها حامل .

ـــ لماذا يتوقف هذا عند الحمل ؟

ـــ لا أدري يا ميغي ، إني آسف ولكني فعلاً لا أدري .

ـــ لماذا نزل الدم من الوراء يا أبت ؟

وحملق الأب بغضب في الملاك الذي كان ينتظر بهدوء ولا تعكره هموم النساء، لقد بدأت الأمور تتعقد أمام الأب رالف. ومن المسلي أنها تتابع أسئلتها وهي المتحفظة جداً عادة! ولكنه فهم أنه بالنسبة لها نبع المعرفة التي لا تستطيع إيجادها في الكتب وفهم أيضاً أن عليه ألاّ يجعلها تنتبه إلى ارتباكه واضطرابه، وإلا فإنها ستنطوي على نفسها من جديد ولا تسأله شيئاً أبداً بعد الآن، ولهذا فقد أجابها بصبر:

ــ إن الدم لا ينزل من الوراء يا ميغي وإنما من ممر خفي في الجهة الأمامية، وهو الممر الذي يأتي منه الأطفال عادة.

ــ آه، تقصد أنهم يخرجون من هناك! كنت دائماً أتساءل من أين يخرجون.

وابتسم وأمسكها من خصرها لينزلها عن قاعدة التمثال:

ــ إنك تعلمين الآن، ولكن هل تعلمين طريقة صنع الأطفال يا ميغي؟

ــ آه نعم.

قالت وهي تشعر بأهميتها لأنها تعلم شيئاً على الأقل.

ــ إنهم «ينبتوهم» يا أبت.

ـــ وكيف يبدأ «الإنبات»؟

ـــ عندما نرغب بهم بشدة.

ـــ من قال لك هذا؟

ـــ لا أحد، لقد اكتشفته بنفسي.

وأغمض الأب رالف عينيه وهو يقول لنفسه أنـه ليس بإمكان أحد أن يتهمه بالجبن لأنه ترك الأمور تتوقف هنا. كان يشفق عليها، نعم، ولكنه لم يكن يستطيع مساعدتها أكثر من ذلك. فالتجربة كانت كافية وقد طفح الكيل.

الفصل السابع

أوشكت ميري كارسون أن تبلـغ الثانيـة والسبـعين من عمرها، وكان تخطط للاحتفال بهذا الحدث في سهرة لم تشهد لها دروغيدا مثيلاً منذ خمسين عاماً. كان عيد ميلادها يقع في مطلع تشرين الثاني حيث لا يزال الحر محتملاً على الأقل بالنسبة لسكان غيللي.

ـ «انتبهي إلى ما سأقوله لك يا سيدة سميث»، همست ميني، «إنها ولدت في الثالث من تشرين الثاني».

ـ ماذا تقصدين يا ميني؟

سألت مدبرة البيت، فقد كانت الهالة السرية الايرلندية التي تحيط بها ميني نفسها تثير أعصاب السيدة الانجليزية.

ـــ كيف؟ ألا تفهمين؟ هذا يعني أنها من برج العقرب، أليس كذلك؟ إنها من العقرب.

ـــ إنني لا أفهم شيئاً مما تقولين يا ميني.

ـــ «إنه أسوأ أبراج المرأة يا عزيزتي السيدة سميث. أف! إنها ابنة إبليس، هذا ما هي» قالت كات وقد فتحت عينيها على سعتهما ورسمت إشارة الصليب على نفسها.

ـــ «الحقيقة يا ميني إنك وكات لا تطاقان» قالت السيدة سميث دون أن يبدو عليها أي تأثر.

كان الانفعال يسود الجميع ويتصاعد باستمرار، وكانت العنكبوت العجوز تجلس في مقعدها المجنح في وسط شبكتها وتصدر سيلاً لا ينقطع من الأوامر: افعلي هذا، ولا تفعلي ذاك، ضعي هذا في المستودع أو اخرجي ذلك من المستودع.... وكانت الخادمتان الايرلنديتان تدوران في أنحاء البيت وتلمّعان الفضيات أو تغسلان أجمل الخزفيات، وقد أعادتا الكنيسة الصغيرة إلى ما كانت عليه قبلا أي إلى صالة الاستقبال، كما أُعِدَّت موائد الطعام في الغرف المجاورة.

وكان التوأمان يحاولان مساعدة ستوارت فيربكاه وهو

مشغول مع عمال من المزرعة يجزون الأعشاب من المرج الأمامي وينزعون الضارة منها من بين الأزهار ويرشون نشارة الخشب على الشرفة لتنظيفها من الغبار العالق بين البلاط الاسباني. وبعد هذا قاموا برشّ أرضية صالة الاستقبال بالطباشير حتى تصبح ناعمة للرقص، فقد كان من المنتظر أن تأتي فرقة كلارنس اوتول الموسيقية خصيصاً من سيدني، كما كانت ميري قد طلبت من سيدني أيضاً كمية كبيرة من المحار والقريدس والسراطين والكركند، واستقدمت أيدي عاملة إضافية من غيللانبون، وباختصار كانت المقاطعة بكاملها تغلي بانتظار الحدث المثير.

وبينما كانت الممرات الرخامية ترجّع صدى الأثاث وأصوات الرجال الذين كانوا يسحبونه من مكان لآخر، جرّت ميري كارسون نفسها من مقعدها المجنح إلى مكتبها وتناولت ورقة ثمينة ثم غمست ريشتها في المحبرة وأخذت تكتب. كانت تكتب بدون أي تردد ولم تتوقف حتى لتصلح مكان فاصلة أو نقطة. فخلال الخمس السنوات الماضية كانت قد أعدَّت في رأسها صياغة كل من العبارات المعقدة وصقلتها حتى حصلت على الكلمة المناسبة تماماً. وسرعان ما انتهت من الكتابة وكانت قد

ملأت صفحتين تقريباً، ولكنها بعد أن أنهت كتابة العبارة الأخيرة، بقيت جالسة برهة في مقعدها. كان المكتب بقرب إحدى النوافذ الواسعة وكان يكفيها أن تدير رأسها فقط لترى ما يجري في المرج وقد سمعت ضحكة في الخارج لفتت انتباهها ولم تعطها أهمية في بادىء الأمر ولكن غضبها سرعان ما تعالى. لعنه الله هو ووسواسه هذا.

كان الأب رالف يعلّم ميغي ركوب الخيل، وبما أنها ابنة عائلة ريفية متواضعة فهي لم تكن قد تعلمت ذلك وقد أخذ على عاتقه أن يعالج هذا النقص عندها. وربما كان الأمر غريباً ولكن فتيات الريف الفقيرات نادراً ما كن يركبن الخيل، فالركوب كان تسلية بنات العائلات الثرية في الريف أو في المدينة، أما الفتيات من نوع ميغي فكان باستطاعتهن أن يقدن العربات وخيول الجر الثقيلة والجرارات وحتى السيارة، أما ركوب الخيل فكان نادراً بينهن، إذ أن هذا الفن كان باهظ الكلفة.

وذات يوم وصل الأب رالف إلى بيت القيّم ورمى بجلبة على طاولة المطبخ جزمة مطاطية وبنطال ركوب. ورفع بادي عينيه عن الكتاب الذي كان يقرأه:

ـــ حسناً يا أبت ، **ما هذا؟**

ـــ بدلة ركوب لميغي .

ـــ « ماذا ؟ » صاح بادي .

ـــ « ماذا ؟ » قالت ميغي وصوتها يختنق .

ـــ ثياب ركوب لميغي . بصراحة يا بادي أنك أبله من الدرجة الأولى ! أنت وريث لأكبر وأغنى أرض في « ويلز الجنوبية » ولم تفكر أبداً بأن تعلم ابنتك الوحيدة ركوب الخيل ! كيف تظن أن باستطاعتها مجاراة الآنسة كارمايكل أو الآنسة هوبتون أو السيدة انتوني كنغ وهن فارسات بارعات ؟ يجب على ميغي أن تتعلم الركوب عادياً وجانبياً ، هل تسمعني ؟ إني أعلم أنك جد مشغول ولكني سأعلّم ميغي بنفسي ، أحْببتَ ذلك أم لم تحب ؛ ومن المؤسف أن يشغلها هذا بعض الشيء عن أعمالها المنزلية ، ولكن على « في » أن تتدبر أمر نفسها بضع ساعات في الأسبوع بدون مساعدة ميغي . هذا كل شيء .

كان هناك شيء واحد يعجز عنه بادي وهو الجدال مع الكاهن . ومنذ ذلك اليوم بدأت ميغي تتعلم الركوب وكانت من سنين طويلة تتشوق لهذه الفرصة وقد تجرأت مرة وسألت والدها

بخجل إذا كانت تستطيع أن تتعلم ولكنه نسي ما سألته بعد دقائق، ولذلك لم تسأله ثانية وظنت أن تلك كانت طريقة والدها في الرفض.

أما أن تتعلم تحت إشراف الأب رالف فقد غمرها هذا بفرح لم تشعر بمثله من قبل. وفي ذلك الوقت كان الولع الذي تشعر به ميغي نحو الأب رالف قد تحول إلى هيام صبياني متأجج، وإذا كانت تعلم باستحالته فقد كانت تسمح لنفسها بأن تحلم به وتتساءل كيف من الممكن أن يكون عناقه وقبلاته، ولم تكن أحلامها تذهب أبعد من هذا إذ لم تكن تعلم ماذا أو إذا كان هناك شيء آخر بعده.

وإذا كانت تعلم أن من الخطأ أن تفكر بكاهن على هذا النحو، فهي لم تكن قادرة أن تمنع نفسه عن التفكير به، ولكن ما كان باستطاعتها هو ألّا تدع الأب رالف يلاحظ الاتجاه العاصف الذي أخذته أفكارها.

○

عندما نظرت ميري كارسون من نافذة غرفة الاستقبال

كان رالف وميغي آتيين من الاسطبلات في الطرف الآخر من المنزل الكبير بمواجهة بيت القيّم. وكان رجال المزرعة يركبون خيول الحراثة البائسة التي لم تر اسطبلاً بحياتها وإنما كانت تكتفي بالتجول في الدار أو بقضم الأعشاب في الحوش المركزي في أوقات راحتها القليلة. ولكن دروغيدا كانت تملك اسطبلاتها رغم أن الأب رالف كان الوحيد الذي يستعملها، ولم تكن الخيول البليدة تليق به. وعندما قال الكاهن لميري أن ميغي ستستعمل حصانه، لم يكن بإمكانها الاعتراض، فهذه الفتاة كانت ابنة أخيها وكان هو على حق، يجب أن تتعلم ميغي الركوب.

وكان كل عظم من عظام ميري العجوز يتمنى أن تستطيع الرفض أو على الأقل مرافقتهم، ولكنها لم تكن تستطيع الرفض ولا أن ترفع جسمها على حصان. وقد أزعجتها رؤيتهما الآن وهما يتمشيان عبر المرج سوية، هو ببنطاله القصير وجزمته العالية وقميصه الأبيض، رشيقاً كراقص، وهي، نحيفة، ببنطالها الجميل، وجمالها الصبياني، وكانت تشع منهما رائحة الصداقة الصافية. وللمرة المليون تساءلت ميري كارسون لم لا يستنكر أحد غيرها هذه العلاقة الحميمة الصميمة بينهما. فبادي كان يجدها رائعة،

و « في » ـــ هذا الحائط ـــ لم تقل شيئاً كعادتها ، بينما كان الصبيان يعاملونها كأخوة . أو ألأنها هي نفسها كانت تحب رالف دوبريكاسار ، فكانت تلاحظ ما لا يلاحظه الآخرون؟ وربما كانت تتوهم . أصحيح أن لا شيء هناك إلا الصداقة بين رجل يقارب الثلاثين وفتاة لم تنضج بعد؟ لا يمكن لأي رجل قارب الثلاثين ، حتى لو كان الأب رالف دوبريكاسار أن يعمى عن رؤية الوردة المتفتحة ، حتى رالف دو بريكاسار؟ آه ، خاصة رالف دو بريكاسار . فهو لا يغفل عن شيء .

كانت يداها ترتجفان ، وتساقطت بضع نقاط من الحبر على أسفل الورقة ، فتناولت ورقة أخرى بأصابعها المعقدة ، وأغمست القلم في المحبرة ، وأعادت كتابة الكلمات بالثقة نفسها التي كتبتها فيها في المرة الأولى ، ثم نهضت بثقل على قدميها وجرَّت كتلتها المترهلة نحو الباب .

ـــ ميني ، ميني !

ـــ ليساعدنا الله ، إنها هي بنفسها .

قالت الخادمة بصوتها الرنان في صالة الاستقبال المواجهة ، وأطل وجهها المنمش من الباب .

ـــ وماذا أستطيع أن أفعل من أجلك يا سيدة كارسون الحبيبة ؟

أجابت وهي تتساءل لماذا لم تقرع السيدة الجرس وتنادي السيدة سميث كعادتها .

ـــ اذهبي ونادي توم وصانع الأسيجة ، وأرسليهما إلى هنا حالاً .

ـــ هل أمر أولاً على السيدة سميث لأخبرها بأني خارجة ؟

ـــ كلا ، افعلي فقط ما قلته لك يا فتاة .

كان توم البستاني رجلاً عجوزاً وحكيماً ، هام طويلاً على وجهه عبر البلاد قبل أن يقبل بعمل مؤقت في دروغيدا ، حدث ذلك منذ سبعة عشر عاماً ، فوقع بغرام حدائق دروغيدا ولم يعد بإمكانه مغادرتها . أما صانع الأسيجة ، مشرد كأمثاله ، فكان قد أجّل عمله الذي لا نهاية له ، والذي يتمثل في مدّ الأسلاك الحديدية بين أعمدة المراعي ، لكي يقوم بإصلاح الأوتاد البيضاء استعداداً للحفلة . وقد أرعبتهما دعوة السيدة الكبيرة فوصلا خلال دقائق معدودة ومثلا أمام ميري كارسون ببنطال العمل وقميص الفانيلا الداخلي وأخذا يديران قبعتيهما بعصبية في أيديهما .

ـــ هل بإمكانكما الكتابة ؟

فأحنيا رأسيهما بالإيجاب وهما يبتلعان ريقهما .

ـ حسناً . إني أريد منكما أن تنظرا إلى وأنا أوقع هذه الأوراق ، ثم تكتبان اسميكما وعنوانيكما تحت توقيعي بالضبط . هل تفهمان ؟

وأحنيا برأسيهما .

ـ تأكدا من أنكما توقعان كما تفعلان دائماً ، واكتبا عنوانيكما بوضوح وبأحرف مطبعية ، ولا يهمني أن يكون العنوان مكتب بريد أو غيره طالما أنه بالإمكان الاتصال بكما عبره .

ونظر إليها الرجلان وهي تكتب اسمها ، ولأول مرة لم تكتب بأحرف دقيقة متلاصقة . وتقدم توم وجرّ الريشة بجهد فوق الورقة ومن بعده كتب صانع الأسيجة اسمه ، « شاس هوكينز » بأحرف عريضة دائرية ، وعنوانه في سيدني . وكانت ميري كارسون تراقبهما بانتباه ، وعندما انتهيا أعطت كلاً منهما ورقة من فئة العشر ليرات ، وصرفتهما وهي توصيهما بجفاء ألاّ ينطقا بكلمة عما فعلاه .

كانت ميغي والكاهن قد اختفيا عن أنظارها منذ مدة طويلة . وجلست ميري كارسون إلى مكتبها بتثاقل وتناولت ورقة

أخرى وأخذت بالكتابة مرة ثانية. وهذه المرة لم تكتب بسهولة وسرعة المرة الأولى، وكانت تتوقف بين فترة وأخرى لتفكر ثم تتابع وعلى شفتيها ابتسامة لا فرح فيها، وكان يبدو كأنها تريد أن تكتب أشياء كثيرة لأن كلماتها كانت متلاحمة والخطوط متلاصقة، واحتاجت إلى ورقة أخرى لإنهاء ما أرادت، وعندها أعادت قراءة ما كتبته وجمعت كل الأوراق وطوتها ثم وضعتها في مغلف ختمته بالشمع الأحمر.

وذهب بادي و«في» وبوب وجاك وميغي فقط إلى الحفلة، أما هوغي وستوارت فقد لازما البيت للعناية بالتوأمين، وكان ذلك يرضيهما جداً. ولأول مرة في حياتها فتحت ميري كارسون محفظتها على سعتها ليخرج العث منها. واشترى الجميع أفضل ما وجدوه في غيللي من ملابس جديدة.

وكان بادي وبوب وجاك مكبلين داخل قمصانهم المنشاة وقباتهم العالية وربطات العنق البيضاء الإجبارية مع السترة المذنبة والبنطال الأسود والصدرة البيضاء، فقد كان الاستقبال رسمياً جداً وكان الرجال ملزمين بارتداء السترة السوداء المذنّبة وربطة العنق البيضاء، أما النساء فسيلبسن أثواب سهرة طويلة.

كان ثوب «في» من الكريب وكان لونه فريداً جداً، رمادياً مائلاً إلى الزرقة وملائماً إلى درجة كبيرة، وكان يتهاوى إلى الأرض في طيات لينة ناعمة. كانت قبته واسعة وأما الأكمام فطويلة مشدودة حول الرسغين، وقد طُرّز باللآلىء على غرار ثياب «الملكة ميري»، وكتلك السيدة الوقور رفعت «في» شعرها إلى أعلى رأسها على شكل تموجات منتفخة كما كانت قد وجدت في مخزن غيللي عقداً وأقراطاً من اللؤلؤ المقلد بطريقة يعجز عن كشفها أي من المدعوين اللهم إلا إذا حدق بها عن قرب، وقد أكملت زينتها بمروحة من ريش النعام بلون فستانها، وبدا المجموع جميلاً جداً وإنما بسيطاً للغاية أيضاً. وفي السابعة مساء كان الجو حاراً بالنسبة للفصل، وكان ميزان الحرارة قد تجاوز الدرجة السابعة والثلاثين مئوية. وعندما خرجت «في» مع بادي من غرفتهما، شهق الأولاد، فطوال حياتهم لم يكونوا قد رأوا والديهم بهذا الجمال، وبهذه الغرابة. كان بادي في الحادية والستين، وكان ذلك واضحاً جداً وإنما بطريقة جد متميزة، وكأنه من رجال الدولة، بينما بدت «في» فجأة وكأنه قد عادت عشر سنوات إلى الوراء، جميلة، مليئة بالحيوية، و... بأعجوبة، كانت مبتسمة. وانفجر جيمس وباتسي بالبكاء والشهيق وهما يرفضان النظر إلى والديهما، قبل أن يسترجعا

شكلهما الطبيعي، وفي غمرة الاضطراب نسي الجميع وقارهم، ولكن بعد أن رأى التوأمان والديهما يتكلمان ويتصرفان كالعادة عاودتهما الطمأنينة وانفرجت أساريرهما عن ابتسامة إعجاب عريضة.

أما ميغي فقد استقطبت أنظارهم مدة طويلة. ووضعت خيّاطة غيللي كل قلبها وفنّها في ثوب ميغي، ربما لأنها تذكرت أيام مراهقتها، وربما لغضبها لأن كل السيدات والشابات في غيللي كن قد أرسلن بطلب ملابس الحفلة من سيدني. كان الثوب بدون أكمام وله قبة منخفضة مكسرة، وقد اعترضت «في» على هذا قليلاً ولكن ميغي استعطفتها كما أن الخياطة أكدت لها أن كل البنات يلبسن هذا النوع من الأثواب — وهل تريد أن تتنكر ابنتها بثوب فلاحة فتصبح موضع السخرية؟ — وهكذا وافقت «في» بلباقة.

كان الثوب من قماش الكريب جورجيت، وهو قماش حريري شفاف وثقيل، ولم يكن مشدوداً إلا قليلاً على الخصر بينما أحاط الأرداف بثنيات كثيفة من القماش نفسه. وكان لونه بلون الغسق، رمادياً باهتاً مائلاً إلى الزهري، بهذا اللون الذي كان يُسمى في تلك الأيام بـ «رماد الورود». ولقد تعاونت الخيّاطة

وميغي على تطريز كل الثوب بأزرار من الورود الدقيقة الزهرية اللون. وكانت ميغي قد قصت شعرها قصيراً جداً كالصبيان، وتلك هي الموضة التي اجتاحت المدن الصغيرة مثل غيللي في ذلك الوقت، ولم تكن تجعدات شعرها تسمح لها أن تصففه تماماً بالطريقة الشائعة ولكن القصة القصيرة كانت تناسب تقاطيع وجهها أكثر بكثير من الشعر الطويل.

وفتح بادي فمه ليزمجر لأنه لم ير فيها شيئاً من ابنته الصغيرة ميغي، ولكنه أطبقه حالاً وابتلع كلماته، كان قد تلقى درساً من ذلك الشجار مع فرانك في بيت الكاهن. كلا، ليس باستطاعته أن يبقيها فتاة صغيرة إلى الأبد، لقد أصبحت شابة وخجولة أمام التغيرات التي رأتها في مرآتها، فلماذا عليه أن يزيد من هموم البائسة الصغيرة؟

ومدّ يده لها وهو يبتسم بحنو:

ـــ آه يا ميغي، إنك حلوة! هيا، سوف أواكبك بنفسي، وأما بوب وجاك فسيهتمان بوالدتك.

كانت ستبلغ السابعة عشر بعد شهر واحد، ولأول مرة في حياته شعر بادي بأنه عجوز حقاً، ولكنها كانت كنزه الثمين ولن يدع شيئاً يفسد عليها أولى حفلات صباها.

ومشوا ببطء متجهين نحو المنزل الكبير وكانوا قد دعيوا إلى العشاء على مائدة ميري كارسون حتى يساعدوها على استقبال ضيوفها . كان الوقت لا يزال مبكراً جداً على وصول المدعوين ولم يكن أحد منهم يرغب بتوسيخ حذائه ، ولكنهم بعد أن ساروا أكثر من كيلو متر على أرض دروغيدا المغبرة اضطروا إلى التوقف في المطبخ لمسح أحذيتهم ونفض الغبار عن ذيل الفساتين وأسفل البنطالات .

كان الأب رالف يرتدي رادءه الأسود كالعادة ، ولو ارتدى بذة رجالية على أحدث طراز لما ناسبته بمقدار نصف ما كان يناسبه الرادء الأسود البسيط المتسع قليلاً من الأسفل ، بأزراره الصغيرة المرصوصة من الرقبة إلى الذيل ، والزنار العريض المكفوف باللون القرمزي .

وكانت ميري كارسون قد اختارت لنفسها ثوباً من الساتان الأبيض ، مزيناً بالدانتيل الأبيض ، وريش النعام الأبيض أيضاً . ونظرت إليها « في » بغباء . لماذا زخرفت نفسها بهذه الطريقة ، بحق الشيطان ! وكأنها عانس عجوز حمقاء تتربص لاصطياد عريس ؟ وكانت قد سمنت جداً في الآونة الأخيرة ولم يحسن هذا من أمورها .

ولم يبد على بادي أي استغراب، وتقدم بخطوات واسعة لتناول يد أخته وعلى وجهه ابتسامة عريضة. ياله من رجل طيب، فكر الأب رالف وهو ينظر إلى المشهد الصغير المسلي بشيء من اللامبالاة. وقال بادي:

ـــ حسناً يا ميري، إنك تبدين رائعة كشابة صغيرة!

والواقع أنها كانت تبدو شديدة الشبه بتلك الصورة الشهيرة للملكة فيكتوريا والتي أُخِذت لها قبل وفاتها بقليل. وكان الأخدودان الثقيلان على جانبي أنفها الضخم ما زالا هناك، وفمها المزموم يشير إلى طبيعتها المتعنتة، وكانت عيناها الجاحظتان قلية تنظران ببرود جليدي إلى ميغي دون أن ترفّا. وانتقلت عينا الأب رالف الجميلتان من ابنة الأخ إلى العمة ثم عادتا إلى ابنة الأخ.

وابتسمت ميري كارسون لبادي، ووضعت يدها على ذراعه:

ـــ سوف ترافقني إلى المائدة يا بادرايك، أما الأب رالف دو بريكاسار فسيواكب فيونا، وعلى الصبيان أن يكتفوا برفقة ميغان.

ونظرت من فوق كتفها إلى ميغي:

ـــ هل سترقصين الليلة يا ميغان ؟
ـــ إنها صغيرة جداً يا ميري ، إنها لم تبلغ السابعة عشرة بعد .

قال بادي بسرعة وهو يتذكر نقصاً آخر في عائلته ، فلم يتعلم أحد من أولاده الرقص .
ـــ يا للأسف . قالت ميري كارسون .

كانت الحفلة رائعة ، فاخرة ، لامعة ، عظيمة . أو على الأقل هذا ما قالته الألسن عن الحفلة ، وخصوصاً « رويال أومارا » من « اينشموري » وقد أتى من مسافة ثلاثمئة كيلو متر مع زوجته وأولاده وابنته الوحيدة ، وكان أبعد المدعوين عن دروغيدا ، ولكن ليس بالكثير . ولم يكن سكان غيللي يستصعبون السفر على بعد ثلاثمئة كيلو متر لحضور مباراة في الكريكيت ، فكيف الحال وحفلة كهذه؟ وأتى « دونكان غوردون » من « ايتش ويزج » ولم يستطع أحد أن يقنعه بأن يفسر لماذا سمى أرضه بهذا الأسم وهي البعيدة تماماً عن المحيط ، إذ كان اسمها يعني باللغة الغاليّة « فرس البحر » . وأما مارتن كنغ فقد أتى هو وزوجته وابنه وكنّته ، وكان عميد جيللانبون ، ولم تستطع ميري كارسون الحصول على اللقب لكونها امرأة . وكان هناك أيضاً « إيفان بوغ » من « بريتشيبول » ، وكذلك

« دومينيك أوبروك » من « ديبان ــ ديبان »، و « هوري هوبتون » من بيل ــ بيل وعشرات غيرهم .

وكانوا جميعهم تقريباً من الكاثوليكيين والقليل منهم يحمل اسماً انغلوسكسونياً وكانوا موزعين تقريباً بالنسبة نفسها ما بين ايرلنديين واسكتدلنديين وغاليّين . كلا لم يكن باستطاعتهم أن يحملوا باستقلالهم عن الوطن الأم، كما لم يكن باستطاعة الكاثوليك أن يثيروا عطف البروتستنت في اسكوتلندا وبلاد الغال، وإنما هنا، وعلى آلاف من الأمتار المربعة حول جيللانبون فقد كانوا سادة يمكنهم مواجهة الحكام البريطانيين مواجهة الند للند، فهم أسياد كل الأرض هنا وعلى مدّ النظر، ومساحة دروغيدا، أكبر الملكيات، كانت أكبر من مساحة عدة امارات أوروبية، مثل إمارة موناكو مثلاً، واللوكمسبورغ . انتبهوا يا أمراء، إن ميري كارسون تفوقكم بكثير .

وهكذا كان المدعوون يدورون على أنغام الفالس التي تعزفها فرقة سيدني الشهيرة، ثم يتراجعون ناظرين بتسامح إلى أولادهم يرقصون الشارلستون . وكانوا يأكلون القريدس المشوي، والمحار المثلج، ويشربون شمبانيا فرنسية لها خمسة عشر عاماً من العمر،

وويسكي معتقاً لأثنتي عشرة سنة، ولو سئلوا لاعترفوا بأنهم يفضلون فخذ خروف مشوي، أو لحم البقر المعلب مع بضعة كؤوس من كحول «بوندابرغ» القوي أو من بيرة «غرافتون» المضغوطة في البراميل. ولكنه كان رائعاً أن يعلم المرء أن باستطاعته التمتع بلذات الحياة عندما يرغب بذلك. نعم، كانت هناك سنوات جفاف كثيرة، وكان مربو المواشي يدخرون بعناية ثمن الصوف في السنوات الجيدة لمواجهة مصاعب المواسم العاطلة لأنه لم يكن بمقدرة أحد أن يتنبأ بالمطر. ولكن هذه الفترة كانت حسنة، ومستمرة من مدة طويلة، ولم يكن هناك مجال لإنفاق النقود في غيللي. آه، بالطبع. لم يكن هؤلاء الذين رأوا النور على هذه الأراضي السوداء في «الشمال الغربي الكبير» ليجدوا لها مثيلاً على الأرض، ولم يكن الحنين يدفعهم إلى العالم القديم، فهو لم يفعل شيئاً من أجلهم سوى التفرقة بسبب معتقداتهم الدينية، بينما لا وجود لهذه التفرقة في استراليا رغم انتشار الكاثوليكية الواسع. وأما «الشمال الغربي الكبير» فكان هو «الوطن».

وفضلاً عن ذلك، فإن ميري كارسون هي التي ستدفع النفقات هذه الليلة، وكان بمقدورها أن تفعل، والشائعات تقول أن بإمكانها أن تشتري وتبيع ملك انجلترا بنفسه، فقد كانت تشغل

أموالها في معامل الفولاذ وفي مناجم الفضة والقصدير والنحاس والذهب، وكان لها أموال في مئات المصالح الأخرى، وأغلب هذه المصالح كانت تنتج أموالاً وذلك بالمعنى الحقيقي والمجازي. ومنذ زمن طويل لم تعد دروغيدا هي مصدر دخلها الرئيسي، ولم تكن إلّا هواية مفيدة.

ولم يوجه الأب رالف الكلام مباشرة إلى ميغي وقت العشاء، ولا بعده. وخلال الأمسية كان يتجنبها باستمرار، وصدمها ذلك جداً وكانت عيناها تتبعانه في كل تنقلاته في صالة الاستقبال. وكان واعياً لما يحدث ويوّد أن يتوقف بجانب كرسيها ويشرح لها أنه لا يليق بسمعتها ولا بسمعته أن يهتم بها أكثر مما يهتم مثلاً بالآنسة كارمايكل أو بالآنسة غوردون أو بالآنسة أومارا. وهو مثل ميغي، لم يكن يرقص، ومثلها كانت هناك عيون كثيرة مركزة عليه فقد كان أكثر وسامة من جميع الحضور.

وكان نصفه يكره شكلها الليلة، بشعرها القصير وثوبها الجميل وحذائها الحريري الزهري بلون رماد الورود، وكعبها ذي الخمس سنتمترات، وكانت قامتها قد كبرت، وأنوثتها ازدادت جداً. وأما نصفه الآخر فقد كان فخوراً جداً لأنها أكثر تألقاً من

كل الشابات الحاضرات . كانت ملامح الآنسة كارمايكل رومانية ، إنما كان ينقصها بهاء الشعر الأحمر الخاص ، بينما كانت الآنسة ميكيل تملك جسداً مذهلاً ، أما وجهها فكان يشبه وجه حصان ينهش تفاحة عبر ثقوب سياج حديدي . ومع ذلك فقد كان يشعر بخيبة أمل حادة ويتمنى أن يعيد الزمن إلى الوراء ، فهو لم يرغب في أن تكبر ميغي ، وكان يريدها صغيرة ليحبها كطفلة ، وقد لمح على وجه بادي تعبيراً كان يعكس أفكاره هو ، وابتسم ابتسامة خفيفة . كم سيكون سعيداً لو استطاع مرة واحدة في حياته أن يظهر عواطفه على حقيقتها ، ولكن العادة والتربية والتحفظ كانوا أقوى من كل شيء آخر في نفسه .

وكلما تقدم الليل كلما ازداد الرقص حرية . وحلّ الروم والبيرة محل الشمبانيا ، وسرعان ما تحولت السهرة إلى ما يشبه الحفلات الشعبية التي تقام بمناسبة نهاية موسم الجز ، والفرق الوحيد هو أنه لم يكن بين الحضور عمال زراعيون ولا بنات ريفيات .

كان بادي و« في » ما يزالان هناك ، أما بوب وجاك وميغي فقد غادروا الحفلة بعد منتصف الليل بقليل ولم يلاحظهم أي من

والديهم فقد كانا يستمتعان إلى أبعد الحدود بسهرتهما . وإذ كان أولادهما لا يعرفون الرقص فهما كان يعرفانه وقد رقصا مع بعضهما كثيراً، ولاحظ الأب رالف فجأة كم كانا يليقان ببعضهما، ربما لأنهما ولأول مرة قد وجدا الفرصة النادرة للاسترخاء والاستمتاع كل بالآخر ، فهو لا يذكر أنه رآهما أبداً إلا وبجانبهما على الأقل ولد من الأولاد يتعلق بأذيالهما، ولا شك أن الحياة قاسية على الوالدين في العائلات الكبيرة إذ لا يستطيعان استراق بضعة دقائق لوحدهما إلا في غرفة النوم حيث لهما العذر إذا لم يفكرا بتجاذب أطراف الحديث . وكان بادي مرحاً ضحوكاً كالعادة ، أما « في » فقد كانت متألقة تقريباً هذا المساء، وعندما كان بادي يدعو إحدى السيدات إلى الرقص لم تكن هي تبقى لوحدها، بينما كان هناك عدد كبير من السيدات أصغر منها سناً ولكنهن كن يجلسن على مقاعدهن دون أن يجدن من يدعوهن إلى الرقص مثلها .

ومع ذلك فلم يكن الأب رالف يمتلك وقتاً كثيراً لمراقبة آل كليري، فعندما رأى ميغي تغادر الصالة شعر بأنه قد صغر عشر سنوات، وغمرته الحيوية فجأة فادهش كل من الآنسات هوبتون وميكيل وغوردون وأومارا عندما رقص بطريقة ممتازة رقصة صعبة

جداً مع الآنسة كارمايكل، ولكنه بعد ذلك دعا كل الحاضرات إلى الرقص، كلا بدورها حتى الآنسة بوغ. وبما أن الجميع كانوا قد استرخوا تماماً في ذلك الوقت، وأصابتهم طيبة قلب مفاجئة، فلم يفكر أحد منهم بانتقاد تصرفات الكاهن، والحقيقة أن حماسه ولطفه كانا محط الإعجاب والحديث ولم يكن بإمكان أحدهم أن يقول أن ابنته لم تحظ برقصة مع الأب دو بريكاسار. وبالطبع لو لم تكن الحفلة خاصة لما استطاع أن يتقدم خطوة واحدة نحو حلبة الرقص، وكان من المفرح أن ترى شاباً رائعاً مثله يستمتع بوقته، لمرة واحدة في حياته.

وعند الساعة الثالثة صباحاً، نهضت ميري كارسون على قدميها بتثاقل وهي تتثائب:

ــ كلا، تابعوا احتفالكم. وإذا كنت أنا متعبة، والواقع أني متعبة، فبإمكاني الذهاب للنوم، وهذا ما سأفعله. ولكن الطعام والشراب وفيران، والأوركسترا هنا لكي تعزف طالما ترغبون بالرقص، وقليل من الضجة سيرسلني بسرعة إلى عالم الأحلام. أرجوك يا أبت، هل بإمكانك أن تساعدني على الصعود؟

ولكنها عندما غادرت الصالة لم تستدر حالاً صوب الدرج العريض وإنما مشت برفقة الكاهن نحو غرفة الجلوس وهي تتكىء بثقل على ذراعه. كان باب الغرفة مقفلاً، وانتظرت حتى أدار المفتاح الذي كانت قد ناولته إياه، ثم دخلت قبله.

ــ كانت حفلة رائعة يا ميري.

ــ حفلتي الأخيرة.

ــ لا تقولي هذا يا عزيزتي.

ــ «ولم لا، لقد تعبت من الحياة يا رالف، وسأتوقف» قالت وعيناها الحادتان مليئتان بالسخرية. «هل تشك بقولي؟ لقد فعلت دائماً ما كنت أرغب في فعله لأكثر من سبعين عاماً، فإذا كان الموت يظن أن باستطاعته أن يختار بنفسه وقت رحيلي، فهو مخطىء، سأموت عندما اختار أنا ساعة موتي، وبدون انتحار. إن رغبتنا في الحياة هي التي تحفظنا على قيد الحياة يا رالف، وليس من الصعب التوقف لو أردنا ذلك فعلاً، وأنا قد تعبت وأرغب في التوقف. إن الأمر بهذه البساطة».

كان هو الآخر تعباً وإنما ليس من الحياة بل من الواجهة التي يخفي نفسه وراءها، ومن المناخ، ومن غياب الأصدقاء الذين يمكنهم مشاركته اهتماماته. كانت الغرفة مضاءة بنور ضئيل يشع

من مصباح بترولي له زجاج عقيقي ثمين جداً، وكان يلقي على وجه ميري ظلالاً حمراء شفافة تزيد من مظهرها الشيطاني. كان ظهره وقدماه يؤلمانه، فهو لم يرقص هكذا منذ وقت طويل مع أنه كان يتباهى بمجاراته لأحدث البدع. خمسة وثلاثون عاماً، أسقف ريفي، وشخصية من شخصيات الكنيسة؟ لقد انتهى أمره قبل أن يبدأ. آه، يا لأحلام الشباب! وللألسنة الشابة المتهورة، ولطبع الشباب الحاد. لقد رسب في امتحانه، ولكنه لن يكرر الخطأ ثانية، أبداً، أبداً.

وتململ على كرسيه ثم تنهد، ما الفائدة؟ لن يعاوده الحظ ثانية، ولقد حان الوقت لكي يواجه الواقع ويكف عن الأحلام والتمني.

ــ هل تذكر ما قلته لك ذات يوم يا رالف من أني سأهزمك، وإني سأوقعك في الشرك الذي نصبته أنت بنفسك؟

وأخرجه الصوت الجاف من الشرود الذي جرّه إليه السأم، ونظر إلى ميري كارسون وابتسم.

ــ يا عزيزتي ميري، إني لا أنسى أبداً شيئاً تقولينه. ماذا كان

بإمكاني أن أفعل بدونك طوال السنوات السبع الماضية ؟ لست أدري ، فدماغك وفكرك ونفاذ بصيرتك . . . .

ــ لو كنتُ أصغر سناً مما أنا عليه ، لحصلت عليك بطريقة أخرى يا رالف . إنك لن تعرف أبداً كم كنت أتمنى لو أستطيع أن أرمي من النافذة بثلاثين سنة من عمري ! ولو أتى الشيطان إليّ وطلب مني أن أبيعه روحي لكي أستعيد صباي ثانية ، لما ترددت لحظة ، ولما أسفت بغباء كما فعل ذلك الأبله « فاوستو » . ولكن لا شيطان هناك ولا أستطيع أن أحمل نفسي على الاعتقاد بوجود الله وأنت ؟

ــ ولا أنا . ولكن الاعتقاد لا يبنى على الأدلة والبراهين يا ميري . إنه يبنى على الإيمان ، والإيمان حجر الأساس في الكنيسة ، فلا وجود لشيء بدون إيمان .

ــ إنها عقيدة مفرطة في التبسيط .

ــ ربما ، وأنا أظن أن الإنسان ، رجلاً كان أم امرأة ، يلد حاملاً إيمانه معه . أما بالنسبة لي فالإيمان صراع متواصل ، وإني أقر بذلك ولكني لن أكف عن النضال .

ــ إني أرغب في تحطيمك .

وضحكت عيناه الزرقاوان وقد صبغهما الضوء بلون رمادي :

ـــ آه ، إني أعلم ذلك يا عزيزتي ميري .

ـــ ولكن هل تعلم لماذا ؟

وشعر بضعف هائل يزحف نحوه ، في أعماقه تقريباً ، ولكنه ردّه بعنف :

ـــ إني أعلم لماذا ، وأنا آسف ، صدقيني .

ـــ كم من امرأة أحبتك ، فضلاً عن أمك ؟

ـــ وهل أحبّتني أمي ، إني أتساءل ؟ إنها كرهتني في النهاية ، على أية حال ، فأغلب النساء يفعلن هذا . كان عليهم أن يسموني « هيبوليت » .

ـــ آه ، إن ذلك يفسر أشياء كثيرة .

ـــ أما بالنسبة للنساء الأخريات ، فليس هناك إلا ميغي .. ولكنها طفلة . ولست أبالغ إذا قلت أن نساء كثيرات اشتهينني ، وأما أن يكنّ قد أحببنني ؟ إني أشك كثيراً بذلك .

ـــ « لقد أحببتك أنا » قالت بطريقة مؤثرة .

ـــ كلا ، إنك لم تحبيني وأنا لست إلا مهماز شيخوختك ، هذا

كل شيء. وعندما تنظرين إلي فإن ذلك يذكرك بما لم يعد بإمكانك فعله، بسبب عمرك.

ـــ إنك مخطىء، فأنا قد أحببتك، والله وحده يعلم كم أحببتك. هل تظن أن عمري يمنعني آليّاً عن الحب؟ حسناً أيها الأب رالف دو بريكاسار، دعني أخبرك بشيء. أنا ما زلت شابة داخل هذا الجسد الأبله، وما زلت أشعر، وما زلت أرغب وأحلم، واضرب الأرض بقدمي، وأغضب من الموانع التي يفرضها عليّ جسدي، إن الشيخوخة هي أقسى انتقام يعاقبك به الرب المنتقم. لماذا لا يجعل عقولنا تشيخ أيضاً؟

واستندت إلى ظهر مقعدها وأغمضت عينيها وقد برزت أسنانها بشكل فظ:

ـــ إني سأذهب حتماً إلى الجحيم، ولكن قبل أن أصل إليها، بودّي لو استطعت أن أخبر الله عن حقده، وأي إله مثير للشفقة هو!

ـــ لقد ترملت منذ مدة طويلة، وقد أعطاك الله حرية الاختيار يا ميري، كان بإمكانك أن تتزوجي ثانية. وإذا اخترت ألّا تفعلي، وبالنتيجة وجدت نفسك وحيدة بشكل لا يطاق، فتلك غلطتك وليست غلطة الله.

وبقيت برهة دون كلام، ويداها تشدان بقوة على ذراعي الكرسي، ثم عاودت الاسترخاء وفتحت عينيها فأخذتا تلمعان على ضوء المصباح، وإنما ليس بالدمع بل كان بهما شيء أقسى بكثير، وأشد لمعاناً. وأمسك أنفاسه، وشعر بالخوف، فقد كانت تشبه العنكبوت.

ـــ هناك مغلف موضوع على مكتبي يا رالف، هلّا أتيت لي به، من فضلك؟

ووقف وهو متألم وخائف، وذهب إلى مكتبها، وتناول الرسالة ونظر إليها باستغراب، كان وجه المغلف الأمامي خالياً من أية كتابة، أما الظهر فقد كان مختوماً بعناية بالشمع الأحمر وقد وضعت عليه شعارها: رأس كبش داخل حرف D كبير.

وحمله إليها ولكنها أشارت له إلى الكرسي دون أن تأخذ المغلف:

ـــ «إنه لك» قالت وهي تقهقه» إنه أداة قدرك، يا رالف. هذا ماهو. إنه آخر وأقوى ضربة في صراعنا الطويل. كم من المؤسف إني لن أكون هنا لأرى ما الذي سيحدث، ولكني أعلم ما سيحدث، لأني أعرفك تماماً، إني أعرفك أكثر بكثير مما تظن.

يا للغرور الذي لا يطاق! داخل هذا المغلف يرقد مصير حياتك وروحك. لقد خسرتك بسبب ميغي ولكني أردت أن أتأكد من أنها لن تحصل عليك هي الأخرى.

ــ لماذا تكرهين ميغي بهذا الشكل؟

ــ لقد أخبرتك من قبل عن السبب: لأنك تحبها.

ــ ليس بهذه الطريقة! إنها الولد الذي لن أحصل عليه أبداً، إنها وردة حياتي. إن ميغي فكرة يا ميري، فكرة.

ولكن العجوز كشرت:

ــ لا أريد أن أتحدث عن غاليتك ميغي! إني لن أراك ثانية بعد الآن ولهذا لا أريد أن أضيع وقتي بالكلام عنها. الرسالة. أريدك أن تقسم بنذورك الكهنوتية ألاَّ تفتحها حتى تتأكد بنفسك من موتي، وعندها عليك أن تفتحها حالاً، قبل أن تدفنني. اقسم!

ــ لا حاجة للقسم يا ميري. سأفعل ما تطلبين مني.

ــ اقسم لي وإلا استرجعت الرسالة.

وهزّ بكتفيه:

ــ حسناً إذن. إني أقسم بنذوري ككاهن ألّا أفتح الرسالة قبل أن أراك ميتة، وأن أفتحها حالاً عندئذ قبل دفنك.

ــ جيد ، جيد !

ــ ميري ، أرجوك لا تقلقي ، إنها نزوة من نزواتك لا أكثر . وفي الصباح سوف تضحكين عن نفسك .

ــ إني لن أرى ضوء المصباح ، لأني سأموت الليلة . لست ضعيفة جداً لدرجة أن انتظر لذة رؤيتك ثانية . أي انحطاط سيكون ذلك لو فعلت ! والآن أنا ذاهبة للنوم ، هلاّ قدتني إلى أعلى السلّم ؟

ولم يكن قد صدّقها ولكنه لم يرَ الفائدة من الجدال معها ، ولم يكن في مزاج يسمح له بالمزاح للتهوين عليها . إن الله وحده هو الذي يقرر ساعة الموت إلا إذا قرر الإنسان بملء الحرية التي أعطاها الله له أن يضع حداً لحياته ، وقد قالت أنها لن تنتحر . وهكذا ساعدها على صعود الدرج ، وفي أعلاه تناول يديها بيديه وانحنى ليقبلهما ولكنها سحبتهما :

ــ كلا ليس الليلة . على فمي يا رالف ، قبلني على فمي كما لو كنا عاشقين .

وعلى ضوء الشمعدانات التي أضاءت الحفلة بأربعمئة

شمعة، رأت الاشمئزاز على وجهه، والتراجع العفوي. وعندها تمنت الموت بشدة لا يسعها معها الانتظار.

ـــ ميري، إنني كاهن، ولا أستطيع.

وضحكت ضحكة حادة غريبة:

ـــ آه يا رالف، أيها المحتال! رجل محتال، وكاهن محتال! هذا ما أنت عليه يا رالف. محتال عاجز عديم النفع! رجل عاجز وكاهن عاجز!

لم يكن الفجر قد لاح بعد في الخارج، ولا الضوء الذي يسبقه. كان الظلام يخيم ناعماً، كثيفاً وحاراً فوق دروغيدا، وكانت الضجة في أوجها. ولو كان لدروغيدا جيران بقربها، لكانوا قد استدعوا الشرطة منذ زمن طويل. كان هناك شخص يتقيأ بغزارة وبطريقة مقزّزة من الشرفة، وتحت أحد الأدغال كان هناك خيالان متعانقان، وتجنب الأب رالف الشخص المتقيء والعاشقين وهو يتمشى بهدوء في المرج المجزوز حديثاً، والقلق يغلي في رأسه دون أن يعلم أو يأبه بوجهته. كل ما يعلمه هو أنه كان يريد أن يبتعد عنها، عن العنكبوت العجوز البشعة التي كانت متأكدة أنها ستغزل شرنقة موتها خلال هذا الليل الرائع.

لم يكن الحر خانقاً في مثل هذا الوقت المبكر، وكان هناك تيار هواء خفيف جداً ومتثاقل، وعطر الورود القوي يملأ الجو، وهذا الهدوء الذي لا تعرفه إلا المناطق المدارية. يا إلهي! أريد أن أحيا، أن أحيا حقاً! وأعانق الليل والحياة، وأكون حراً.

ووصل إلى طرف المرج ووقف ينظر إلى السماء باحثاً عن الله لا شعورياً. نعم، في مكان ما، فوق، بين النقاط البراقة بنورها الصافي. ما شأن هذه السماء الليلية؟ كيف يرتفع جفن النهار الأزرق فيسمح للبشر بإلقاء نظرة على الأبدية؟ إن رؤية القبة السماوية المرصعة بالنجوم تستطيع وحدها أن تقنع الإنسان بالخلود ووجود الله.

إنها طبعاً على حق. دجّال. دجّال تماماً. لا كاهن ولا رجل. إنما انسان فقط يريد أن يعرف كيف يكون الاثنين معاً. كلا، ليس هو الاثنين معاً، فالرجل والكاهن لا يمكنهما أن يتعايشا سوية. أن يكون الإنسان رجلاً فهذا يعني ألاّ يكون كاهناً. لماذا علقت قدمي في خيوطها؟ إن سمّها قوي ولربما كان أقوى مما أظن. ماذا تحتوي الرسالة؟ أن تحاول ميري أغواءه فذلك يشبهها جداً. ماذا تعلم بالضبط؟ وماذا تتخيل؟ وماذا هنالك

لكي تعرف أو تتخيل؟ لا شيء إلاّ التفاهة والوحدة، والشك، والألم. الألم دائماً.

كان هناك أحد يبكي في المقبرة. ميغي طبعاً. ومن غيرها يفكر بالمجيء إلى المقبرة؟ ورفع ذيل ردائه وقفز على السياج الحديدي وهو يشعر أنه لم ينتهِ بعد من ميغي هذه الليلة. وبما أنه واجه إحدى المرأتين فعليه أن يواجه الثانية أيضاً. وعاوده تجرده الغريب، فلن تستطيع العنكبوت العجوز أن تنسيه إياه طويلاً. العنكبوت العجوز الشريرة، لعنها الله، لعنها الله.

ــ «لا تبكي يا عزيزتي ميغي» قال وهو يجلس بقربها على العشب المبلل بالندى. «إني أراهن أنك لا تحملين منديلاً لائقاً، فالنساء لا يفعلن ذلك أبداً. خذي منديلي وجففي عينيك كفتاة لطيفة».

وأخذت المنديل وفعلت ما طلبه الأب.

ــ إنك لم تبدلي ثيابك الجميلة بعد. هل أنت هنا منذ منتصف الليل؟

ــ نعم.

ــ هل يعلم بوب وجاك بوجودك هنا؟

ــ لقد أخبرتهما إني ذاهبة لأنام .

ــ ما الأمر يا ميغي ؟

ــ إنك لم توجه لي الكلام هذه الليلة .

ــ آه ، كنت أعلم أن هذا هو السبب . تعالي يا ميغي ، انظري إلي .

وفي الشرق البعيد تصاعد نور لؤلؤي لطخ الظلمة ، وصاحت ديكة دروغيدا مرحبة بالصبح باكراً . واستطاع أن يرى أن آثار الدموع لم تُبهِت جمالها مطلقاً .

ــ « ميغي ، لقد كنت أجمل بكثير من كل البنات الأخريات في الحفلة ، والجميع يعلمون إني آتي إلى دروغيدا أكثر مما يجب ، وأنا كاهن وهذا يعني أن عليّ أن أكون فوق الظنون ــ مثل زوجة القيصر نوعاً ما ــ ولكنني أخشى أن الناس لا يرون الأمور بالطريقة نفسها . وأنا شاب بين الكهنة ولست قبيحاً » وتوقف لحظة ليفكر كيف كانت ميري كارسون ستتلقى هذا التصريح المكبوح ، وضحك بصمت . »لو كنت قد أظهرت أقل الاهتمام بك ، لانتشر الخبر في كل جيللي بأسرع من لمح البصر ، ولضجت خطوط الهاتف عبر المقاطعة بأكملها . هل تفهمين قصدي ؟ » .

فهزت برأسها وخصلاتها النحاسية تلمع بشدة في ضوء النهار الطالع.

ـ حسناً. إنك ما زلت صغيرة على معرفة حقائق الحياة، ولكن عليك أن تتعلمي، ويبدو أنها مهمتي أنا في أن أُعلّمك، أليس كذلك؟ وأنا أقصد أن الناس سوف يقولون أني مهتم بك كرجل وليس ككاهن.

ـ أبت!

ـ هذا بشع، أليس كذلك؟ وابتسم متابعاً:

ـ ولكن هذا ما سيقوله الناس، أؤكد لك ذلك. انظري يا ميغي، أنت الآن لست طفلة صغيرة وإنما شابة، ولكنك لم تتعلمي بعد كيف تخفين عاطفتك نحوي. ولو كنت قد اقتربت منك للتحدث معك تحت عيون هؤلاء القوم، لكنتِ نظرت إلي بطريقة تفضح مشاعرك، ولَفسرها الناس تفسيراً خاطئاً.

ونظرت إليه نظرة غريبة، وسقط فجأة على عينيها ستار لا يمكن اختراقه، ثم أدارت رأسها بعنف حتى أصبح يراه جانبياً فقط:

ـــ نعم ، إني أفهم . كم أنا غبية لأني لم أفهم من قبل !

ـــ ألا تظنين أن الوقت قد حان كي تعودي إلى البيت ؟ لا شك أن الجميع نيام الآن ، ولكن لو استيقظ أحدهم في الوقت المعتاد فسوف تجدين نفسك في ورطة ، وأنت لا تستطيعين أن تقولي أنك كنت معي يا ميغي ، حتى لعائلتك .

ونهضت واقفة ونظرت إليه :

ـــ أنا ذاهبة يا أبت ، ولكني أتمنى لو يعرفك الناس أكثر وعندها لن يظنوا بك أبداً تلك الظنون ، فأنت لست كذلك .

ولسبب ما جرحته كلماتها ، عميقاً ، عميقاً في أعماق روحه ، وهذا ما لم تستطع سخرية ميري كارسون اللاذعة أن تفعله :

ـــ « كلا يا ميغي ، أنت على حق ، فأنا لست كذلك » ونهض مبتسماً . « هل تستغربين الأمر إذا قلت لك أني أتمنى لو كنت كذلك ؟ » ووضع يده على رأسها . « كلا ، لا أتمنى أبداً أن أكون كذلك ! اذهبي إلى البيت يا ميغي ، هيّا » .

كان وجهها حزيناً :

ـــ طابت ليلتك يا أبت .

وأخذ يديها بين يديه وانحنى ليقبلهما :

ـــ طابت ليلتك يا أغلى ميغي .

ونظر إليها وهي تجتاز القبور ، وتقفزِ فوق السياج ، وكانت رشيقة لدنة في ثوبها الوردي ، انثوية جداً وتشبه الأحلام .

رماد الورود .

ـــ اسم مناسب جداً . قال مخاطباً الملاك .

كانت السيارات تبتعد عن دروغيدا مدوية بينما كان يتمشى عائداً عبر المرج . لقد انتهت الحفلة أخيراً . وفي الداخل كانت الأوركسترا تجمع آلاتها بينما أفرادها يترنحون تحت فعل « الروم » والانهاك . أما الخادمات المرهقات والعاملات الإضافيات فقد كن يحاولن تنظيف المكان . وهزّ الأب رالف رأسه عندما رأى السيدة سميث :

ـــ أرسلي الجميع للنوم يا عزيزتي . من الأسهل القيام بهذه الأعمال بعد أن ينال الكل قسطاً من الراحة ، وتأكدي أن السيدة كارسون لن تغضب من ذلك .

ـــ هل ترغب بشيء من الطعام يا أبت ؟

ـــ أيها السيد الرب ! لا . إني ذاهب لأنام .

وفي ساعة متأخرة من بعد الظهر ، شعر بيد تلمس كتفه ، فمد يده ليمسكها بدون أن يقوى على فتح عينيه وحاول أن يمررها على خده وهو يتمتم :

ــ ميغي .

ــ يا أبت ، آه يا أبت ، أرجوك أن تستيقظ .

وعندما سمع لهجة السيدة سميث وهي تتفوه بهذه الكلمات فتح عينيه فجأة وقد استيقظ تماماً :

ــ ما الذي يجري يا سيدة سميث ؟

ــ إنها السيدة كارسون يا أبت ، لقد ماتت .

كانت ساعته تشير إلى السادسة مساء، ورأسه تلف وتدور بسبب التخدير الذي سببه له الحر الهائل . وخلع ثوب النوم وارتدى رادءه الكهنوتي ثم ألقى حول عنقه ببطرشيل رفيع أحمر ، وتناول الزيت والماء المقدسين وصليبه الفضي الكبير ومسبحته الآبنوسية . ولم يخطر بباله لحظة أن يتساءل فيما إذا كانت السيدة سميث على حق ، فقد كان يعلم أن العنكبوت العجوز قد ماتت . هل تناولت شيئاً ما بعد كل حساب ؟ وإن كانت قد فعلت فأرجو من الله ألاّ يكون ذلك واضحاً في الغرفة أو للطبيب . وما الفائدة

من مسحها بالزيت المقدس؟ لم يكن يعلم، ولكن كان عليه أن يمسحها، فلو رفض لأدّى ذلك إلى تعقيدات كثيرة وأقلها طلب تشريح الجثة، ولكن هذا التردد في مسحها لم يكن بسبب شكه في انتحارها بل لأنه كان يعتقد أن الدنس يلحق بأي شيء مقدس يلمس ميري كارسون.

وكانت ميتة فعلاً. ولا بد أن الموت قد حدث بعد لحظات من انسحابها من الحفلة، منذ حوالي خمس عشرة ساعة. وأغلقوا النوافذ بسرعة، ورفعوا أوعية الماء الكبيرة التي كانت ميري تصر على وضعها في كل زوايا البيت لترطيب الجو والمحافظة على شباب بشرتها. وكان في الجو ضجة غريبة، وبعد أن تساءل الأب بغباء عن مصدرها، تحقق فجأة أنه صوت الذباب، جيوش من الذباب تطن وهي تعلن بجنون أنها قد أقامت وليمة على الجثة، وتزاوجت ثم وضعت بيوضها فوقها.

ـــ بحق السماء يا سيدة سميث، افتحي النوافذ.

قال وهو يلهث ويتقدم من السرير وقد شحب وجهه.

وكانت قد تخطت مرحلة التجمد الذي يلي الوفاة وارتخى الجسد من جديد بشكل مثير للاشمئزاز. وكانت عيناها الجامدتان

قد بدأتا بالتشقق وشفتاها بالاسوداد، وعلى كل جسمها، كان الذباب. واضطر أن يطلب من السيدة سميث أن تطردهم بينما كان يتم مراسمه الدينية عليها وهو يردد الكلمات اللاتينية القديمة. أية مهزلة هذه! لقد كانت ملعونة. وأما رائحتها! يا إلهي، إنها أبشع من رائحة حصان نافق في المراعي النقية. وجفل من لمسها ميتة كما كان يكره لمسها حية، وخاصة تلك الشفاه المليئة ببيوض الذباب، أنها ستصبح كتلة من الدود خلال ساعات معدودة.

وأخيراً أنهى عمله وانتصب:

ــ اذهبي إلى السيدة كليري حالاً يا سيدة سميث، وقولي لها بحق السماء أن ترسل الشباب حالاً لصنع النعش فليس لدينا وقتاً لنرسل بطلب النعش من غيللي فإنها تتعفن أمام أعيننا. أيها الرب القدير! أشعر إني سأتقيأ. إني ذاهب لأستحم وسأترك ملابسي أمام الباب. احرقيهم. فلن أستطيع أن أتحمل رائحتها العالقة بهم أبداً.

وفي غرفته لبس ملابس الركوب ــ لأنه لم يكن قد أتى معه بردائين ــ ثم تذكر الرسالة ووعده. كانت الساعة قد دقت السابعة وكان بإمكانه أن يسمع أصواتاً مكتومة بينما الخادمات والعاملات الأجيرات يتسارعن لتنظيف فضلات حفلة الليلة

السابقة ، وتحويل صالة الاستقبال من جديد ، إلى كنيسة ، وإعداد المنزل لجنازة الغد . وكان عليه أن يذهب إلى غيللي هذا المساء نفسه ليحضر رداء كهنوتياً آخر . لم يكن بالإمكان تجنب هذا ، كما كان عليه أن يحضر ملابسه الجنائزية . كانت هناك أشياء ترافقه دائماً عندما يترك بيته ليذهب إلى مزرعة بعيدة ، وكلها مرتبة بعناية في طيات الحقيبة السوداء ، وكان بها الأشياء الضرورية للولادات والوفيات ، والبركة ، والعبادة ، والملابس المناسبة للقداس في أية مناسبة وأي وقت من أوقات السنة ، ولكنه كإيرلندي ، كان يتشاءم من أن يحمل في حقيبته ملابس الحداد السوداء . ورن صوت بادي في البعيد ولكنه لم يكن قادراً على مواجهته في هذه اللحظة . وكان يعلم أن السيدة سميث ستقوم بالواجب . وجلس إلى نافذته يتأمل منظر دروغيدا في الشمس الغاربة ، وأشجار الصمغ الذهبية ، وكتلة الورود البيضاء والحمراء والزهرية ، وكلها مصبوغة بأشعة الشمس القرمزية . وتناول رسالة ميري كارسون من حقيبته وأمسكها بين يديه . ولكنها كانت قد ألحت عليه أن يقرأها قبل دفنها ، وفي مكان ما من رأسه كان هناك صوت يهمس له بأ يقرأها الآن ، وليس فيما بعد ، بعد أن يرى بادي وميغي ، وإنما الآن ، حالاً ، قبل أن يرى أحداً آخر غير ميري كارسون .

كان المغلف يحتوي على أربع ورقات، فمدها ولاحظ أن الورقتين الأخيرتين كانتا وصيتها. أما الاثنتان العلويتان فقد كانتا موجهتين إليه على شكل رسالة:

عزيزي الغالي رالف:

لقد لاحظت بدون شك أن الوثيقة الثانية في هذا المغلف هي وصيتي. والحقيقة إن عندي وصية أخرى صالحة تماماً وموقعة ومختومة في مكتب «هاري غوف» في غيللي، أما الوصية الموجودة هنا فقد كُتبت بعد تلك بزمن طويل، وطبعاً فإنها تلغي الوصية التي بحوذة هاري.

والواقع إني كتبت هذه أول أمس، وشهد عليها توم وصانع الأسيجة لأني أعلم أنه ليس مسموحاً أن يشهد عليها من يستفيد منها، وهي شرعية تماماً رغم أن هاري لم يكتبها لي بنفسه، وليس هناك محكمة في البلاد تستطيع أن تنكر صحتها. إني أؤكد لك هذا.

ولكن لماذا لم أطلب من هاري أن يكتب لي هذه عندما أردت أن أغير فحواها؟ الأمر بسيط يا عزيزي رالف، لم أكن أريد أن يعلم أحد غيرك وغيري بوجود هذه الوصية. وهذه هي

النسخة الوحيدة منها، وهي بين يديك. وليس هناك كائن واحد يعلم بها، فهذا جزء مهم جداً من خطتي.

هل تذكر ذلك المقطع من الأنجيل حيث يأخذ إبليس السيد المسيح إلى جبل عال ويجربه مقدماً له العالم بأسره؟ وكم يسرني أن أعلم إني أملك بعضاً من قدرة إبليس هذا، وإن بإمكاني أن أجرب من أحب (هل تشك بأن الشيطان كان يحب المسيح؟ أنا لا أشك بذلك) وأقدم له العالم بأجمعه. إن التفكير بمعضلتك قد شغل مخيلتي طوال هذه الأعوام الماضية، وكلما اقتربت من الموت كلما ازدادت بهجتي بما أتخيل.

بعد أن تقرأ الوصية ستفهم قصدي. وبينما أحترق أنا في جحيم ما وراء حدود هذا العالم الذي أعرفه الآن، ستكون أنت ما زلت حياً، ولكنك ستحترق في جحيمٍ ناره أقوى بكثير من كل ما استطاع الله تصميمه. آه يا عزيزي رالف، لقد استطعت أن أقيّمك بدقة تامة، وإن لم أستطع أن أفعل أي شيء آخر، فلقد كنت أعلم دائماً كيف أعذّب من أحب، وأنت لعبة أفضل بكثير مما كان عليه العزيز مايكل.

عندما تعرفت إليك، كنت تطمع في دروغيدا وفي نقودي،

أليس كذلك يا رالف؟ ولقد رأيت فيها وسيلة تشتري بها الحق في الوصول إلى مكانك الصحيح. ومن ثم أتت ميغي، ونزعت من رأسك هدفك الأول الذي هو مصادقتي، أليس كذلك؟ وأصبحت أنا عذراً لك لكي تزور دروغيدا وليكون باستطاعتك أن ترى ميغي. إني أتساءل هل كنت ستتغير اتجاه ولائك لو علمت قيمتي الحقيقية؟ أتعلم يا رالف؟ لا أظن أن عندك أقل فكرة عن هذا. أظن أنه لا يليق بسيدة أن تذكر المبلغ الصحيح الذي تتركه في ورثتها، ولهذا فمن الأفضل أن أقوله لك هنا لأتأكد من أنك تملك كل المعلومات الضرورية فيما لو احتجت لها لكي تتخذ قراراً. إن ثروتي تبلغ ثلاثة عشر مليون ليرة استرلينية، مع احتمال خطأ بسيطاً ببضع مئات من الألوف فقط.

إني وصلت إلى أسفل الورقة الثانية، ولا أريد أن أجعل من هذه الرسالة أطروحة. اقرأ وصيتي يا رالف. وبعد أن تقرأها ستقرر ما ستفعله. فأما أن تأخذها إلى هاري غوف للتصديق، وإما أن تمزقها ولا تدع كائناً يعرف بوجودها، إن القرار يعود إليك. ويجب أن أضيف أن الوصية التي في مكتب هاري هي التي كتبتها في السنة التي جاء بها بادي إلى هنا، وقد تركت له فيها كل شيء، وبهذا فأنت تعلم إلى أية جهة ترجح كفة الميزان.

إني أحبك يا رالف لدرجة أنه كان بإمكاني قتلك لرفضك لي لو لم أعلم بوجود نوع آخر من الانتقام أفضل بكثير من القتل. أنا لست من النوع النبيل، إني أحبك ولكنني أريدك أن تصرخ من الألم لأني كما تعلم أعرف ماذا سيكون قرارك. إني أعرف كما لو كنت حاضرة أراقبك. سوف تبكي يا رالف، وسوف تعلم ما الألم. اقرأ إذن يا كاهني الوسيم الطموح! اقرأ وصيتي وقرر مصيرك.

لم تكن قد كتبت اسمها، ولا وقعت الرسالة. وأحس بالعرق المتصبب من جبينه، وشعر به يسيل على مؤخرة رقبته، من شعره. وأراد أن ينهض في تلك اللحظة ويحرق الوثيقتين دون أن يعلم ما تحتوي الأخرى، ولكنها كانت قد خبرت فريستها بدقة، العنكبوت العجوز السمينة، وهو سيقرأ طبعاً، كان فضوله يدفعه. يا إلهي! ماذا فعل حتى دفعها إلى معاملته بهذه الطريقة؟ لماذا تعذبه النساء بهذا الشكل؟ لماذا لم يُخلَق قصيراً، مشوهاً، قبيحاً؟ وكانت الورقتان الأخيرتان مغطاتين بالكتابة الناعمة الدقيقة نفسها، حقيرة مليئة بالضغينة، مثل روحها:

«أنا الموقعة أدناه، ميري اليزابيت كارسون، سليمة الجسد

والعقل، أصرح بأن هذه هي وصيتي الأخيرة، وأجعل بذلك لاغية وغير صالحة، كل الترتيبات الواردة في وصية سابقة كتبتها بنفسي.

وعدا عن الهبات المذكورة أدناه، فإني أوصي بكل أملاكي المنقولة وغير المنقولة إلى الكنيسة المقدسة الكاثوليكية الرومانية حسب الشروط التالية:

أولاً ــ أن تعلم هذه الكنيسة الكاثوليكية الرومانية المذكورة أعلاه، مدى التقدير والمودة اللذين أكنّهما لكاهنها الأب رالف دو بريكاسار. ونظراً لطيبته فقط، وعرفاناً بجميله كقائد روحي، وللمساعدة التي لا تنضب والتي قدمها إلي، فإني هكذا أتصرف بأملاكي.

ثانياً ــ أن تستفيد الكنيسة من دخل هذه التركة طالما هي راضية عن قيمة وكفاءة الأب رالف دو بريكاسار المذكور أعلاه.

ثالثاً ــ أن يكون الأب دو بريكاسار مسؤولاً عن إدارة واستغلال أموالي المنقولة وغير المنقولة باعتباره المسؤول الرئيسي عن التركة.

رابعاً ــ عند وفاة الأب رالف دو بريكاسار، أن تُعتبر وصيته

الأخيرة نافذة شرعاً فيما يتعلق بإدارة أملاكي من بعده. وبهذا تبقى الكنيسة الوريث الوحيد ولكن الأب رالف يكون مسؤولاً عن اختيار خلف له لإدارة الأملاك ولن يكون مجبراً على أن يختار هذا الخلف من بين الكهنة أو من بين أعضاء الكنيسة العلمانيين.

خامساً ـــ ألاّ تباع ولا تقسم مزرعة دروغيدا أبداً.

سادساً ـــ أن يبقى أخي بادرايك كليري قيّماً على مزرعة دروغيدا مع حق السكن في بيتي، وأن يُدفَع له معاش مقرر من قبل الأب رالف دو بريكاسار وليس غيره.

سابعاً ـــ في حالة وفاة أخي المذكور أعلاه، بادرايك كليري، أن يُسمَح لأرملته وأولاده بالبقاء في مزرعة دروغيدا، وأن تنتقل وظيفة القيّم إلى أولاده بالتدرج كما يلي: روبرت، جون، ستوارت، جامس وباتريك، ما عدا فرانسيس.

ثامناً ـــ في حالة وفاة باتريك، أو الوليد الأخير الحي لأخي، ما عدا فرانسيس، أن تنتقل الحقوق نفسها إلى أحفاد بادرايك كليري.

هبات خاصة:

ـــ إلى بادرايك كليري، كل محتويات وأثاث المنزل الموجودة على أرض دروغيدا.

ـــ إلى أونيس سميث، مدبرة بيتي، أن تبقى في مركزها بمعاش عادل طالما رغبت في ذلك بالإضافة إلى مبلغ خمسة آلاف ليرة تصرف لها حالاً، وأن يدفع لها معاش عادل عند تقاعدها.

ـــ إلى مينيرفا أوبريان، وكاترين دونيللي، أن يتابعا عملهما طالما رغبتا في ذلك، وبمعاش عادل، وبالإضافة إلى ذلك أن يدفع لكل منهما مبلغ ألف ليرة حالاً، وعند تقاعدهما أن يدفع لهما تقاعد عادل.

ـــ إلى الأب رالف دو بريكاسار، مبلغ عشرة آلاف ليرة تدفع له سنوياً طيلة حياته، لاحتياجاته الشخصية بغض النظر عن كيفية إنفاقها.».

وكانت الوصية مؤرخة وموقعة أمام شاهدين، كما يجب.

كانت غرفته تطل على الغرب، وكانت الشمس قد بدأت تنحدر، والغشاء الغباري الذي يأتي مع كل صيف يملأ الجو الساكن، ورمت الشمس أصابعها عبر ذرات الغبار الدقيقة حتى بدا وكأن الكون قد تلون بالذهب والقرمز. وكانت الغيوم الممزقة تشع ببريق ناري وترسم موجات فضية أمام الكرة المدماة المعلقة فوق الأشجار المبعثرة في المراعي.

ــ مرحى يا ميري! إني أقرّ بأنك قد انتصرت علي. إنها ضربة معلم. لقد كنت أنا الغبي، وليس أنت.

ولم يعد بإمكانه رؤية الصفحات التي يحملها في يده، فقد كانت الدموع تعميه، وأبعد الأوراق قبل أن تتلطخ. ثلاثة عشر مليون ليرة. ثلاثة عشر مليون ليرة! هذا ما كان يخطط له بالفعل قبل ميغي. وعندما أتت نبذ الفكرة لأنه لم يكن قادراً على أن يقود حملة كهذه برباطة جأش ليحرم الفتاة من ميراثها. وماذا لو علم من قبل مقدار ثروة العنكبوت العجوز؟ لم يكن يظن أنها تصل إلى عشر هذا المبلغ. ثلاثة عشر مليون ليرة! سبع سنوات بكاملها عاشها بادي وعائلته في بيت القيّم وعملوا بكد من أجل ميري كارسون. ومن أجل ماذا؟ للمعاشات الحقيرة التي كانت تدفعها لهم؟ وكما يعلم الأب رالف، لم يشتكِ بادي مرة واحدة من هذه المعاملة الدنيئة، إذ كان متأكداً أنه سيُكافأ بسخاء عند موت أخته لاهتمامه بالمزرعة رغم معاشة الضئيل الذي لم يكن معاش قيّم بل معاش مربي مواشي، بينما أولاده الذين اشتغلوا كمربيي ماشية في المزرعة لم يقبضوا يوماً أكثر من معاش عامل عادي. وقنع بادي بهذا، وتعلق بدروغيدا كما لو كانت ملكه، معتقداً وهو على حق في ذلك أنها ستكون له يوماً ما.

ـــ مرحى يا ميري. ردد الأب رالف والدموع التي يذرفها للمرة الأولى منذ كان طفلاً تنحدر على وجهه وتسقط على ظهر يديه، ولكن ليس على الورق.

ثلاثة عشر مليون ليرة، والفرصة له كي يصبح كاردينالاً. مقابل بادي كليري وزوجته وأولاده وميغي. لقد فهمته بطريقة شيطانية حقاً! لو كانت قد حرمت بادي من كل شيء في هذه الوصية الجديدة لاختار حالاً وبدون تردد، ولأخذ الوصية ورماها في نار المطبخ مباشرة. ولكنها رتبت الأمور حتى لا يقع بادي في العوز، ولكي يكون مرتاحاً في دروغيدا بعد موتها أكثر مما كان عليه خلال حياتها، وحتى لا تؤخذ منه دروغيدا تماماً. سيخسر الأرباح وملكية الأرض، نعم، ولكنه لن يخسر الأرض نفسها. كلا إنه لن يكون صاحب هذه الملايين الخيالية ولكنه سيحظى بالتقدير ويعيش برخاء. وميغي لن تجوع أو تبقى حافية في هذا العالم القاسي، ولكنها لن تكون الآنسة كليري، ولن تقف على قدم المساواة مع الآنسة كارمايكل وأمثالها. ستكون محترمة ومقبولة اجتماعياً ولكنها لن تكون من النخبة، لن تكون أبداً من نخبة المجتمع.

ثلاثة عشر مليون ليرة. هذه هي الفرصة للخروج من

غيللانبون وظلمتها اللامتناهية، الفرصة لكي يحتل مكانه بين أعضاء الإدارة الكنسية، ويكسب رضا أقرانه ورؤسائه. كل هذا بينما لا يزال شاباً، ولا يزال يملك الوقت الكافي ليلحق بالزمن الضائع.

كانت ميري كارسون بوصيتها هذه قد جعلت غيللانبون مركز اهتمام المبعوث البابوي وهي تنتقم انتقاماً ستصل أصداءه إلى الفاتيكان. ومع أن الكنيسة كانت غنية جداً فلن تهمل ثلاثة عشر مليون ليرة. هذا مبلغ لا يُزدرى حتى من قبل الكنيسة. وكانت يده هو هي التي حملت هذا المبلغ إلى حضن الكنيسة، يده التي اعترفت بها ميري كارسون بالحبر الأزرق وبخط يدها على الورق. كان يعلم أن بادي لن يعترض على الوصية أبداً، ومع ذلك، لعن الله ميري كارسون وأحرقها بنيرانه. طبعاً، إن بادي سيغضب، وسيرفض أن يراه ثانية أو أن يكلمه ولكن أساه لن يدفعه إلى المحاكم. وهل هناك من قرار يؤخذ؟ ألم يكن يعلم القرار في اللحظة التي قرأ فيها الوصية؟ كانت دموعه قد جفت، وبرشاقته المعتادة نهض الأب رالف واقفاً، وتأكد من أن قميصه يدخل جيداً تحت بنطاله، ثم توجه إلى الباب. يجب عليه أن يذهب إلى غيللي ليأتي

بردائه الأسود وملابس الجناز . ولكنه أراد أن يلقي نظرة ثانية على ميري كارسون .

على الرغم من النوافذ المشرعة ، كانت الرائحة النتنة تملأ جو الغرفة ، ولم يكن هناك نسمة واحدة تحرك الستائر . وبخطى ثابتة ، اجتاز الغرفة نحو السرير ووقف ينظر ، كانت بيوض الذباب قد بدأت تفقس ديداناً صغيرة في كل فتحات وجهها ، وقد انتفخ ذراعاها ويداها وامتلأت بالبقع المخضرة ، وأخذ جلدها بالتشقق . يا إلهي أيتها العنكبوت العجوز المقرفة . لقد انتصرت ، ولكن أي انتصار . إنه انتصار كاريكاتور بشري متعفن على كاريكاتور آخر . ليس باستطاعتك أن تقهري غاليتي ميغي ، ولن تستطيعي أن تسلبيها ما لم تمتلكيه أبداً . ربما سأُحرق في الجحيم بقربك ، ولكني أعرف الجحيم الذي أُعِدّ لك : أن تتأملي عدم مبالاتي بك التي ستدوم طالما نحترق معاً عبر الأبدية .

كان بادي ينتظره في الأسفل ، في المدخل ، وهو يبدو مريضاً ومذهولاً :

ـــ « آه يا أبت » . قال وهو يتقدم نحوه . « أليس هذا مروعاً ؟ أية

صدمة ! لم أكن أتوقع أن تموت هكذا ، لقد كانت بكامل عافيتها ليلة أمس ! يا إلهي ، ماذا سأفعل الآن ؟

ــ هل رأيتها ؟

ــ لتساعدني السماء ، نعم !

ــ إذن أنت تعلم ما يجب عمله . إني لم أر بحياتي جثة تتعفن بهذه السرعة ، وإذ لم تضعها بسرعة داخل صندوق ما خلال الساعات القليلة القادمة فستضطر إلى « سكبها » في برميل كيروسين . يجب حتماً دفنها في الصباح الباكر . لا تضع الوقت في تزيين نعشها ، غطِّه بالورود من الحديقة أو بأي شيء آخر ، وإنما تحرك بسرعة يا رجل ، أنا ذاهب إلى غيللي لأحضر ملابسي .

ــ « عد بأسرع ما يمكنك يا أبت » . توسل إليه بادي .

ولكن غياب الأب طال أكثر مما تطلبه زيارة بسيطة لبيته . فقبل أن يتوجه إلى هناك بسيارته ، قادها إلى أحد شوارع غيللانبون المزدهرة ، وتوقف أمام منزل تبدو عليه علائم الترف وتحيط به حديقة غناء .

كان هاري غوف قد جلس لتوه إلى مائدة العشاء ولكنه أتى إلى ردهة الاستقبال حالما أخبرته الخادمة عن اسم الضيف .

ــ أبت . هل تأكل معنا؟ لحم بقر معلب، وملفوف، وبطاطا مسلوقة مع مرقة البقدونس، لا يبدو لحم البقر مالحاً هذه المرة .

ــ كلا يا هاري، ليس بإمكاني البقاء هذا المساء. لقد جئت فقط لأخبرك بأن ميري كارسون قد توفيت هذا الصباح .

ــ يا يسوع المقدس! لقد كنت هناك مساء أمس، وكانت تبدو على أحسن حال يا أبت!

ــ أعلم ذلك . لقد كانت في حالة ممتازة عندما رافقتها على السلم في حوالي الثالثة صباحاً ، ولكنني أعتقد أنها توفيت في اللحظة التي غادرت فيها الحفلة تقريباً . لقد اكتشفتها السيدة سميث في الساعة السادسة من هذا المساء ولكنها كانت قد لفظت أنفاسها منذ زمن طويل، وكان شكلها مريعاً . كانت الغرفة مغلقة تماماً كحاضنة الفراخ والحرارة هائلة ، يا سيدي الرب ، إني أتضرع إلى المولى أن أستطيع نسيان منظرها . شيء لا يوصف يا هاري، شنيع .

ــ هل ستدفن غداً؟

ــ ذلك ضروري .

ــ كم الساعة الآن؟ العاشرة؟ إننا نتناول عشاءنا متأخرين مثل الإسبان في هذه الحرارة ، ولكن لا حاجة بك للقلق ، إن الوقت

متأخر ولا يسمح لك بإعلان النبأ. هل تريدني أن أتولى ذلك عنك يا أبت؟

ـــ أشكرك يا هاري، ذلك لطف عظيم منك. لقد أتيت إلى غيللي فقط لآخذ ملابسي إذ إني لم أكن أظن إني سأقيم جنازاً عندما ذهبت إلى هناك، وعلي أن أعود إلى دروغيدا بأسرع ما أمكنني، إنهم بحاجة إلي هناك. سيقام الجناز في التاسعة من صباح الغد.

ـــ قل لبادي أني سأحضر وصيتها معي، وهكذا أستطيع أن أنهي الأمور حالاً بعد الدفن. إنك أيضاً في وصيته يا أبت ولهذا فإني سأكون ممتناً لو بقيت حاضراً لتسمع قراءتها.

ـــ أخشى أن يكون هناك مشكلة يا هاري. لقد كتبت ميري كارسون وصية ثانية. ففي الليلة الماضية وبعد أن غادرت الحفلة، أعطتني مغلفاً مختوماً وجعلتني أقطع على نفسي عهداً بأن أفتحه في اللحظة التي أرى فيها أنها ماتت، وعندما فعلت، وجدت في المغلف وصية جديدة.

ـــ هل كتبت ميري وصية أخرى؟ بدوني؟

ـــ يبدو ذلك. أظن أنها كانت تجتر هذا منذ زمن بعيد ولكنني أجهل السبب الذي جعلها متكتمة بهذا الشكل.

ـــ هل تحمل الوصية معك يا أبت ؟
ـــ نعم .

ومد الكاهن يده إلى داخل قميصه وناوله الأوراق المطوية بعناية .

ولم يتردد المحامي لحظة واحدة عن قراءتها حالاً . وعندما انتهى رفع عينيه وكان بهما أشياء كثيرة تمنى الأب لو لم يرها ، الغضب ، والإعجاب ، وشيء من الاحتقار .

ـــ حسناً ، يا أبت ، إني أهنئك . لقد حصلت على كل شيء ، بعد كل حساب .

كان يمكنه قول هذا لأنه لم يكن كاثوليكياً .

ـــ صدقني يا هاري ، لقد كانت دهشتي أكبر من دهشتك .
ـــ أهذه هي النسخة الوحيدة ؟
ـــ نعم ، على ما أعلم .
ـــ وهي قد أعطتها لك الليلة الماضية ؟
ـــ نعم .
ـــ لماذا لم تمزقها إذن فتكفل لهذا المسكين بادي حقه الشرعي ؟ لا حق للكنيسة مطلقاً بأملاك ميري كارسون .

وألقى الكاهن عليه بنظرة رقيقة :

ــ ولكن هذا كان سيبدو غير لائق يا هاري ، أليس كذلك؟ إنها أملاك ميري كارسون وبوسعها أن تتصرف كما تشاء .

ــ سوف أنصح بادي بالاعتراض .

ــ إنك على حق .

وافترقا عند هذا الحد . وفي الصباح تكون ميري كارسون قد ووريت التراب ، وتعلم غيللانبون وكل المنطقة الميحطة بها أين ذهبت النقود . لقد قضي الأمر ولم يكن هناك مجال للتراجع .

كانت الساعة تشير إلى الرابعة صباحاً عندما عبر الأب رالف آخر البوابات ووصل إلى الحوش المركزي ، لأنه لم يكن مسرعاً في طريق العودة . وطوال الطريق كان يجتهد في أن يفرغ رأسه تماماً ولا يسمح لنفسه بالتفكير لا ببادي ولا بـ « في » ولا بميغي ولا بتلك الكتلة المتفسخة التي « صبوها » (أو هذا ما كان يأمل) في النعش . وعوضاً عن ذلك فتح عينيه وعقله إلى الليل ، إلى الأشجار الفضية التي تشبه الأشباح وتقف وحيدة في العشب الملتمع ، وإلى ظلال الدغلات الكثيفة ، وإلى القمر بدراً وهو يعبر السماء ككرة هوائية . ولقد أوقف السيارة مرة وترجل منها ، ثم مشى

صوب سياج من الأسلاك واستند إليه وهو يتنهد بملل وسط عبق أشجار الصمغ والأزهار البرية. كانت الأرض رائعة الجمال، نقية، ولا مبالية على الإطلاق بمصير هذه الكائنات البشرية التي تدّعي أنها تسيّرها، ربما اعتقد البشر أنهم يملكون الأرض، ولكن الحقيقة أنها هي التي تسيّرهم على مر الزمن. وستبقى لها اليد العليا إلى أن يتمكنوا من التحكم بالمناخ وإصدار الأوامر للمطر.

وأوقف سيارته على مبعدة وراء المنزل واتجه ببطء نحوه. كانت النوافذ مضاءة كلها، وكان بإمكانه أن يسمع أصواتاً ضعيفة قادمة من مسكن مدبرة البيت، وكانت هذه تتلو المسبحة برفقة الخادمتين الايرلنديتين، وتحرك خيال تحت ظلمة عريشة الوستاريا، فتوقف الكاهن على الفور وقد اقشعر بدنه. لقد فاجأته العنكبوت العجوز بأكثر من طريقة. ولكن الشبح لم يكن غير ميغي التي كانت تنتظر عودته بصبر. وكانت ترتدي ملابس الركوب والجزمة وتبدو «حية» جداً.

ــ لقد أرعبتني. قال بجفاف.

ــ إني آسفة يا أبت، لم أقصد ذلك. ولكني لم أرغب بالبقاء في الداخل مع والدي وأخوتي، وأمي لا تزال في بيتنا مع الأطفال.

أظن أن من المفروض أن أصلي مع السيدة سميث وميني وكات، ولكني لا أشعر بالرغبة في الصلاة من أجلها. هذا خطيئة، أليس كذلك؟

ولم يكن في مزاج يدفعه إلى احترام ذكرى ميري كارسون فقال:

ـ «لا أظن أن هذا خطيئة يا ميغي، أما المراءاة فخطيئة. لست أشعر أنا نفسي بالرغبة في الصلاة من أجلها. إنها لم تكن... طيبة جداً» والتمعت ابتسامته. «فلو كنتِ قد ارتكبت خطيئة بقول هذا، فها أنا أيضاً قد ارتكبت الخطيئة نفسها، وبشكل أقوى. لأن من المفروض أن أحب جميع الناس، وهذا عبء لم يُلقَ على عاتقك أنت».

ـ هل أنت بخير يا أبت؟

ـ «نعم أنا بخير». ونظر جهة المنزل ثم تنهد. «إني لا أرغب في الدخول، إني لا أريد أن أكون حيث تكون هي، حتى يطلع الفجر وتهرب الابالسة والظلمة. هل تخرجين معي في نزهة على الجواد لو أسرجت الأحصنة؟

ولمست بيدها كمّ ردائه الأسود، ثم تركتها تهبط:

ـــ وأنا أيضاً لا أريد أن أدخل .
ـــ انتظري لحظة هنا بينما أضع ردائي في السيارة .
ـــ أنا ذاهبة إلى الأسطبل .

ولأول مرة كانت ميغي ستواجهه على أرضه ، مواجهة الند للند ، على أرض الأشخاص البالغين . كان يحس بالتغيير فيها بنفس الوضوح الذي كان يشم به عبير الورود في حديقة ميري كارسون الجميلة . الورود ، رماد الورود ، الورود ، الورود في كل مكان ، أوراقها ساقطة بين الأعشاب . ورود خريفية ، حمراء وبيضاء وصفراء . عبق الورود ، ثقيل وحلو في الليل ، ورود زهرية ، حوّل لونها ضوء القمر إلى رماد . رماد الورود ، رماد الورود . غاليتي ميغي ، لقد تخليت عنك . ولكن ألا ترين أنك أصبحت خطيرة ؟ ولهذا سحقتك تحت حذاء طموحي ، ولم يعد لك كيان بالنسبة لي أكثر من وردة مسحوقة في العشب . رائحة الورود ، رائحة ميري كارسون . ورود ورماد ، رماد الورود .

ـــ « رماد الورود » قال وهو يعتلي حصانه . « دعينا نبتعد عن رائحة الورود في ضوء القمر . غداً سيمتلىء البيت بها » .

وهمز الفرس الكستنائية التي انطلقت تخب أمام ميغي على

الطريق بمحاذاة الجدول، وقد أخذته الرغبة في النحيب، لأنه حتى تلك اللحظة التي استنشق فيها عطر الورود التي ستزين نعش ميري كارسون في الغد، لم يكن قد وعي تماماً لاقتراب الحدث، إنه سيرحل قريباً. وتنازعته أفكار كثيرة ومشاعر كثيرة، لا يمكن التحكم بها.

أنهم لن يتركوه في غيللي يوماً واحداً بعد أن يعلموا بشروط الوصية العجيبة، وسوف يدعونه إلى سيدني على الفـور. على الفور! كان يهرب من ألمه ولم يعرف من قبل ألماً مثله ولكنه كان يلازمه ويرفض الابتعاد عنه. لن يحدث ذلك يوماً ما، وإنما حالاً، على التو. وكان بإمكانه رؤية وجه بادي، ونفور الرجل الطيب، لن يلاقى بالترحاب أبداً بعد هذا في دروغيدا ولن يرى ميغي ثانية.

ثم بدأ يتقبل الفكرة، ويحاول أن يضبط نفسه وهو يشعر بأنه يطير على وقع حوافر الفرس. كان من الأفضل أن يحدث هذا، نعم من الأفضل. والفرس تخب وتخب وتخب. سيكون الأمر أقل إيلاماً له وهو معتصم في إحدى صوامع قصر الأسقف، سيتألم أقل فأقل حتى يمحي الألم في اللاشعور. لا أبداً هذا أفضل. أفضل من البقاء في غيللانبون لكي يراها تتحول إلى

مخلوقة لا يرغب في رؤيتها ، ثم يزوجها ذات يوم إلى انسان غريب . ما لا تراه العين لا يأسى عليه الفؤاد . ولكن ما الذي كان يفعله بها الآن ، وهو يقود حصانه عبر دغلات البقس في الجهة الأخرى من الجدول ؟ لم يكن يدري السبب وإنما كان يشعر فقط بأن قلبه ينزف ألماً . ليس ألم الخيانة ، فلا مجال لذلك ، وإنما ألم فراقها .

ــ أبت ، أبت ، إني لا أستطيع مجاراتك . أرجوك تمهل ، أرجوك .

كان ذلك نداء الواجب والواقع . وكما يحدث في فيلم بطيء ، شد اللجام على أسنان فرسه وجعلها تستدير نصف استدارة وهو يحاول تهدئتها ، ثم ترجل ووقف ينتظر أن تلحق به ميغي . هنا تكمن المشكلة ، كانت ميغي تلحق به .

كان الماء المندفع من « رأس البئر » يهدر بقربهم والبخار يتصاعد من بركة ماء كبريتي كبيرة ، والقسطل كأنه مروحة مركب تقذف الماء الساخن إلى الأعماق . وعلى محيط البحيرة الصغيرة المرتفعة ، كانت الأقنية تنزلق حاملة الماء إلى السهول وكأنها أشعة دولاب عربة هائلة ، وتلتمع ببريق غريب بين الأعشاب الزمردية . وأما ضفاف البحيرة فقد كان كتلاً رمادية من الوحل تشكل مرتعاً خصباً لقشريات المياه العذبة التي يحلو لها العيش في الوحل .

وأخذ الأب رالف يضحك :

ــ إن هذه الرائحة تشبه رائحة الجحيم يا ميغي ، أليس كذلك ؟ الجحيم بذاتها هنا على أرضها وفي عقر دارها . لا بد أنها ستميز هذه الرائحة عندما تصل إلى جهنم وهي تتهاوى تحت ثقل الورود ، أليس كذلك ؟ آه يا ميغي ...

كانت الجياد معتادة أن تتوقف دون حاجة إلى ربطها ، ولم يكن هناك سياج قريب في الجوار ، ولا شجرة على أقرب من بضع مئات من الأمتار ، إنما كان هنالك جذع شجرة ممدد على الطرف الأقصى من البركة ، أبعد من رأس البئر نفسه ، حيث كان الماء أكثر برودة . وكان هذا الجذع بمثابة مقعد يستخدمه المستحمون أثناء الشتاء لتجفيف أنفسهم .

وجلس الأب رالف على الجذع ، وجلست ميغي بعيداً عنه وقد استدارت جانبياً لتنظر إليه :

ــ ماذا في الأمر يا أبت ؟

ورن السؤال غريباً في أذنيه ، هذا السؤال الذي تطرحه عليه ميغي غالباً ، وابتسم :

ـــ لقد بعتك يا ميغي ، بعتك من أجل ثلاثة عشر مليون قطعة من الفضة .

ـــ بعتني ؟

ـــ إنها طريقة في الكلام ، ولكن هذا غير مهم . تعالي ، اجلسي بقربي ، ربما لن تتاح لنا مثل هذه الفرصة للتحدث مع بعضنا ثانية .

ـــ لأننا في حداد على عمتي ، أهذا ما تقصده ؟

وزحفت على الجذع مقتربة منه :

ـــ إنني لا أرى الفرق ، أن نكون في حداد أم لا .

ـــ ليس هذا قصدي يا ميغي .

ـــ هل تعني إذن لأنني قد كبرت وأن الناس سيلغطون في الكلام عنا ؟

ـــ ليس هذا بالتحديد . إن ما أقصده هو إني راحل .

لقد قالها أخيراً وعليه أن يواجه المشكلة وجهاً لوجه ، وأن يلقي على كاهلها بعبء آخر . لا صرخة ، ولا دموع ، ولا تيار من الاعتراضات ، وإنما انكماش ضئيل جداً وكأنما العبء لم يسقط على كتفيها في مكانه بالضبط ، فحاولت تركيزه . ولم يكلف نفسه

عناء مساعدتها على حمله . وأمسكت أنفاسها قليلاً ، ولم يكن ذلك تنهدة :

ــ متى ؟

ــ المسألة مسألة أيام فقط .

ــ آه يا أبت ! سيكون ذلك أقسى من رحيل فرانك .

ــ وسيكون أقسى شيء حصل لي في حياتي ، ولا من شيء سيعزيني . إن لك عائلتك على الأقل .

ــ وأنت لك ربك .

ــ أحسنت يا ميغي ، لقد كبرت فعلاً .

ولكنها كأية أنثى متشبثة ، كانت تدير في رأسها السؤال الذي لم تستطع طرحه خلال الكيلو مترات الخمسة التي قطعاها على الجياد . كان سيرحل ، نعم ، وسيكون من الصعب جداً الاستغناء عنه ، ولكن السؤال أيضاً كان مهماً :

ــ أبت ، عندما كنت في الاسطبل قلت « رماد الورود » هل كنت تقصد بذلك لون ثوبي ؟

ــ نوعاً ما ، ربما . ولكني أظن أني كنت أقصد شيئاً آخر .

ــ ما هو ؟

ـــ لا شيء يمكنك فهمه يا ميغي . إنه موت فكرة لم يكن لها الحق في أن ترى النور ، فكيف بالأحرى أن تعيش وتكبر .

ـــ لا شيء هنا لا يحق له أن يرى النور ، حتى لو كان فكرة .

وأدار رأسه لينظر إليها :

ـــ هل تعلمين عما أتحدث يا ميغي ؟

ـــ أظن ذلك .

ـــ ليس كل شيء يولد بصالح يا ميغي .

ـــ كلا . ولكن بما أنه قد ولد ، فقد كان هذا مقدراً له .

ـــ إنك تناقشين مثل اليسوعيين يا ميغي . كم عمرك ؟

ـــ سأبلغ السابعة عشر في الشهر القادم يا أبت .

ـــ ولقد أمضيت هذه الأعوام السبعة عشر وأنت تكدحين . حسناً ، إن العمل الشاق يشيخنا قبل الأوان . بماذا تفكرين يا ميغي ، عندما يكون عندك وقت للتفكير ؟

ـــ آه . إني أفكر بجيمس وباتسي وببقية أخوتي ، وبأمي وأبي ، وبهال وبعمتي ميري . وأحياناً عن «إنبات الأطفال» . إني أرغب بذلك كثيراً . وأفكر كذلك بركوب الخيل وبالخرفان . بكل الأشياء التي يتحدث عنها الرجال . الطقس ، المطر ، حديقة الخضار ، الدواجن ، وما الذي سأفعله في الغد .

ـــ هل تحلمين بزوج لك يا ميغي ؟

ـــ كلا ، ولكنني أظن أن علي أن أتزوج إذا أردت أن «أنبت أطفالاً » . فليس لطيفاً ألّا يكون للطفل أب .

ورغم ألمه ابتسم . كانت خليطاً غريباً من الجهل والأخلاق . واستدار جانبياً وأخذ بذقنها بيده ونظر إليها . كيف يفعله ؟ كيف يفعل ما عليه أن يفعل ؟

ـــ ميغي ، في المدة الأخيرة لاحظت شيئاً كان علي أن ألاحظه منذ زمن بعيد . إنك لم تكوني صريحة جداً عندما أخبرتني بم تفكرين ، أليس كذلك ؟

ـــ إني ... وصمتت .

ـــ إنك لم تخبريني أنك تفكرين بي . لو لم تشعري بأنك مذنبة لكنت ذكرت اسمي أيضاً إلى جانب اسم والدك . أظن أن من المستحسن أن أرحل ، أليس كذلك ؟ أنت أكبر من أن تقعي في غرام كغرام بنات المدارس ، ولكنك لست كبيرة جداً ، سبع عشرة سنة تقريباً ، أليس كذلك ؟ وإني لمعجب بعدم خبرتك بالحياة والبشر ولكنني أعلم قسوة غرام الطالبات فلقد تألمت منه كثيراً .

وبدت وكأنها تريد الكلام ولكن جفنيها هبطا في النهاية فوق عينيها الملتمعتين بالدموع، وهزت رأسها.

ــ اصغي إلي يا ميغي، إن هذه ليست إلا مرحلة، علامة على الطريق المؤدية إلى بلوغ حالة المرأة، وعندما تصبحين تلك المرأة ستقابلين الرجل المقدر ليكون زوجاً لك، وستشغلك حياتك عن التفكير بي إلا كصديق قديم ساعدك على عبور صعوبات النمو. والذي يجب عليك ألّا تفعليه إطلاقاً هو أن تعتادي على التفكير بي كزوج محتمل، فأنا لا أفكر بك بهذه الطريقة يا ميغي، هل تفهمينني؟ وعندما أقول لك أني أحبك، فأنا لا أعني أني أحبك كرجل. أنا كاهن ولست رجلاً، فلا تملأي رأسك بالأحلام عني. وأنا راحل ولا أظن أني سأتمكن من العودة إلى هنا، حتى في زيارة، لضيق وقتي.

كان كتفاها قد سقطا وكأن العبء كان ثقيلاً جداً، ولكنها رفعت رأسها ونظرت مباشرة في وجهه.

ــ لن أملأ رأسي بالأوهام، لا تقلق. إني أعلم أنك كاهن.

ــ لا أعتقد أني قد أخطأت في اختيار طريقي، فاختياري يملأ في داخلي عوزاً لا يستطيع كائن بشري أن يملأه، ولا أنت.

ــ أني أعلم ذلك أيضاً وأستطيع أن أراه عندما تقيم القداس، فإنك تملك قدرة عظيمة وأظن أنك تشعر كما لو كنت الرب إلهنا.

ــ باستطاعتي أن أشعر بكل نَفَس معلق في الكنيسة يا ميغي، إنني أموت كل يوم يا ميغي، وكل صباح عندما أقيم القداس، أحيا من جديد، وذلك لأني الكاهن الذي اختاره الله، أو لأنني اسمع هذه الأنفاس المربوطة التي تنتظر، وأعلم القدرة التي أملكها على كل روح حاضرة.

ــ وهل يهم هذا؟ إن الأمر هكذا وذلك يكفي.

ــ ربما لا يهمك هذا الأمر إطلاقاً، ولكنه يهمني. والشك يأكلني، الشك.

وأدارت دفة الحديث إلى الجهة التي تهمها:

ــ لست أدري كيف يمكنني الاستغناء عنك يا أبت. أولاً فرانك، والآن أنت. والأمر مختلف. بالنسبة لهال فأنا أعلم أنه قد مات ولا يمكنه العودة، ولكنكما على قيد الحياة أنت وفرانك! وسأسأل نفسي دائماً كيف حالك، وماذا تفعل، وإذا كنت بخير، وإن كان بإمكاني أن أفعل أي شيء لمساعدتك، وساتساءل إذا كنت لا تزال على قيد الحياة.

ـــ إني سأشعر بالشيء نفسه يا ميغي ، وفرانك أيضاً بالتأكيد .

ـــ كلا لقد نسيَنا فرانك ، وستنسانا أنت أيضاً .

ـــ لن يمكنني نسيانك أبداً يا ميغي ، طالما أنا حي ، ولعقابي سأعيش طويلاً ، طويلاً .

ونهض واقفاً وسحبها ليوقفها ووضع ذراعيه حولها بحنان دون أن يشد :

ـــ أظن أن هذا وداعنا يا ميغي . لن نرى بعضنا على انفراد بعد الآن .

ـــ لو لم تكن كاهناً يا أبت ، هل كنت تتزوجني ؟

وهزّه بعنف أن تناديه « يا أبت » :

ـــ لا تناديني بأبت طوال الوقت . إن اسمي رالف .

ولكن هذا لم يجبها على سؤالها .

ومع أنه كان يضمها إلّا أنه لم يكن ينوي تقبيلها ، والوجه الذي ارتفع نحوه كان تقريباً غير مرئي ، لأن القمر كان قد اختفى والظلمة كانت كالحة ، وكان باستطاعته أن يشعر بصدرها الصغير البارز ، هناك على صدره ، إحساس غريب أثاره فيه الاضطراب .

والذي زاد من اضطرابه أنها كانت تختبىء في صدره كامرأة اعتادت أن تفعل هذا كل حياتها، وكانت قد عقدت ذراعيها حول عنقه وشدت عليه بعنف.

لم يكن قد قبّل أحداً من قبل كعاشق، ولم يكن يريد أن يعرف هذا النوع من القبلات، ولا ميغي، كما كان يظن. وإنما عناق حار، لمسة خفيفة على الخد كما تفعل مع والدها لو كان مسافراً، فقد كانت حساسة وفخورة ولا بد أنه قد جرحها بعمق عندما أخذ يمزق أحلامها الثمينة بتفسيراته الباردة. ولا بد أنها كانت تستعجل الوداع مثله، فهل تطمئن لو علمت أن عذابه لم يكن أقل من عذابها؟ وبينما كان يحني رأسه ليصل إلى خدها، رفعت نفسها على رؤوس أصابعه، وبالصدفه أكثر مما عن عمد، لامست شفيته بشفتيها. وارتد متراجعاً كما لو كان قد ذاق سم العنكبوت، ثم أعاد رأسه إلى الأمام قبل أن يفقدها وحاول أن يقول شيئاً بقرب شفاهها المطبقة، وعندما فتحت فاها لتجيب انفرجت الشفتان، وبدا كأن جسدها قد فقد كل عظامه وأصبحت سائلاً يذوب في الظلام، وكانت إحدى ذراعيه ملفوفة حول قامتها والأخرى في شعرها ترفع وجهها مقابلاً لوجهه كما لو كان يخشى أن

تتلاشى في هذه اللحظة بالذات، قبل أن يستطيع التنفس أو أن يفهم هذا الكائن اللا معقول الذي هو أمامه، ميغي، وفي الوقت نفسه ليست ميغي، غريبة جداً، وقريبة، لأن ميغي التي يعرفها لم تكن امرأة، ولم تكن تشعر كامرأة، ولن يمكنها أن تكون أبداً امرأة بالنسبة له. لأنه ليس بإمكانه أن يكون رجلاً بالنسبة لها.

وتغلبت أفكاره على مشاعره، وانتزع ذراعيها من حول عنقه، ودفعها إلى الوراء وهو يحاول أن يرى وجهها في الظلام الدامس. ولكن رأسها كانت مخفضة ولم تنظر إليه.

ــ حان الوقت لنعود يا ميغي.

وبدون كلمة أدارت فرسها وامتطتها ووقفت تنتظره.

كان عادة هو الذي ينتظرها.

كان الأب رالف على حق ففي هذا الوقت من السنة كانت دروغيدا مغمورة بالورود، وهكذا كان البيت مكتظاً بها. وفي الساعة الثامنة صباحاً لم يكن قد بقي في الحديقة زهرة واحدة. وبعد أن قُطفت آخر وردة من الحديقة بزمن طويل، بدأ المعزون الأوائل يصلون، وكان بانتظارهم إفطار خفيف على مائدة غرفة

الطعام الصغيرة ومؤلف من القهوة والخبز الطازج، وبعد الدفن سيكون بإمكانهم أن يتناولوا وجبة طعام دسمة في غرفة الطعام الكبرى قبل أن يعودوا إلى منازلهم البعيدة. كان الخبر قد انتشر، ولا داعي للشك في فعالية خطوط الهاتف في جيللي. وبينما كانت الشفاه تتمتم عبارات التعزية التقليدية، كانت التخمينات والاستنتاجات والابتسمات تشغل الأعين والرؤوس التي خلفها.

ـــ «لقد سمعت أننا سنفقدك يا أبت» قالت الآنسة كارمايكل.

ولم يبدُ في حياته أكثر بعداً وتجرداً من كل عاطفة انسانية أكثر مما بدا في ذلك الصباح بردائه المتزمت وبطرشيله الأسود بصليبه الفضي، وكما لو كان موجوداً بالجسد فقط، أما روحه فقد كانت بعيدة جداً، ولكنه نظر بشرود إلى الآنسة كارمايكل، وبدا كما لو أنه يجمع شتات نفسه ثم ابتسم بفرح جلي:

ـــ إن لله طرقاً غريبة يا آنسة كارمايكل. أجابها ثم توجه ليتكلم مع شخص آخر.

لم يكن أحد يعلم بما يجول في فكره. ربما كان يفكر بمواجهة بادي المقبلة بشأن الوصية، وبخوفه من رؤية غضبه، وبحاجته لغضب بادي واحتقاره.

وقبل أن يبدأ القداس الجنائزي استدار مواجهاً الحضور. كانت الكنيسة مكتظة بهم ومليئة بالورود التي عجزت النوافذ عن تبديد رائحتها الثقيلة.

ــ «ليس في نيتي أن ألقي تأبيناً طويلاً» قال وفي صوته لهجة اوكسفورد واضحة مع شيء ضئيل من الصبغة الايرلندية. «كنتم جميعاً تعرفون ميري كارسون، دعامة للكنيسة التي أحبتها أكثر من أي شيء آخر في حياتها».

وعند هذه النقطة كان بإمكانهم أن يقسموا أنهم رأوا السخرية في عينيه، ولكن بعضهم الآخر أكدوا بشدة أنهم لم يقرأوا بهما إلا حزناً عميقاً وحقيقياً.

ــ «دعامة للكنيسة التي أحبتها أكثر من أي شيء آخر في حياتها» ردد عبارته بجلاء أكثر، لم يكن من النوع الذي يغض بصره. «في ساعاتها الأخيرة، كانت وحيدة، ولكنها لم تكن وحيدة، لأن الرب يسوع سيدنا يكون معنا، بداخلنا في ساعة موتنا، ويحمل عبء نزعنا، فلا يموت أحد وحيداً، كبيراً كان أم صغيراً، والموت حلو. لقد اجتمعنا هنا لكي نصلي من أجل

روحها الخالدة وحتى تجد هذه المخلوقة التي أحببناها على الأرض، المكافأة العادلة والأبدية في السماوات . لنصلِّ .

كان النعش الخشبي البسيط مغطى بالورود بكامله حتى لم يكن بالإمكان رؤيته، وقد وُضِع على عربة ذات عجلات كان الشبان قد صنعوها من قطع مختلفة وجدوها بين آلات المزرعة . ومع ذلك، ورغم النوافذ المشرعة ورائحة الورود القوية، فقد كانوا يشمون رائحة الجثة .

كان الطبيب قد تكلم أيضاً : «عندما وصلت إلى دروغيدا كانت قد تعفنت بشكل شعرت معه بالغثيان» . قال ذلك لمارتن كنغ على الهاتف . «ولم أشعر بهذا الأسى الشديد لأي شخص في حياتي كما شعرت به من أجل بادي كليري، ليس فقط لأنه خرج صفر اليدين من دروغيدا بل لأنه اضطر أن يضع هذه الكتلة القبيحة النتنة في النعش» .

ـ «إذن لن أتطوع لحمل النعش» أجاب مارتن كنغ بصوت منخفض، ذلك أن خطوطاً كثيرة كانت متصلة بالخط الهاتفي نفسه، واضطره الطبيب إلى ترديد ما قاله أكثر من ثلاث مرات قبل أن يفهم جوابه .

ومن هنا كانت فكرة العربة ذات العجلات، فلم يكن أحدهم راغباً في حمل رفات ميري كارسون عبر المرج إلى المدفن. ولم يتأسف أحد عندما أغلق باب القبر واستطاع الجميع أن يتنفسوا أخيراً بشكل طبيعي.

وبينما كان المعزون يحتشدون في غرفة الطعام ويأكلون، أو يحاولون أن يتظاهروا بتناول الطعام، قاد هاري غوف بادي وعائلته والأب رالف والسيدة سميث والخادمتين الايرلنديتين إلى غرفة الاستقبال، ولم يكن أحد المعزين عازماً على مغادرة المكان على الفور، ولهذا فقد كانوا يتظاهرون بالأكل حتى يكونوا على مقربة فيرون هيئة بادي عندما يخرج من الغرفة بعد قراءة الوصية. ولكي لا نظلم بادي وعائلته فعلينا أن نعترف أنه خلال الجناز لم يتصرف لا هو ولا عائلته بطريقة تشعر الحضور أنه يحس بارتفاع طبقته الاجتماعية، فلقد بكى بادي أخته بطيبة قلبه المعتادة بينما بدت «في» كما تبدو عادة، وكأن شيئاً لم يحدث لها.

ــ بادي، إني أريد منك أن تعترض على الوصية.

قال هاري غوف بعد أن قرأ الوصية الغريبة بصوت يعتمل بالحدة والغضب.

ــ «الكلبة العجوز الحقيرة» قالت السيدة سميث. ورغم محبتها للكاهن فقد كانت تحب آل كليري أكثر بكثير، فهم قد أتوا بالأطفال والأولاد إلى حياتها.

ولكن بادي هزّ رأسه:

ــ كلا يا هاري، لا أستطيع أن أفعل هذا، إن الأرض كانت ملكها، أليس كذلك؟ وكان لها الحق أن تفعل بها ما تشاء، وبما أنها قد رغبت في تركها للكنيسة فهذا يعني أنها تريد ذلك. لا أنكر أني شعرت بقليل من خيبة الأمل ولكنني شخص عادي جداً، ليس أكثر، ومن الأفضل ربما أن تكون الأمور هكذا. لا أظن أني سأحب أن أتحمل مسؤولية ملكية أرض باتساع دروغيدا.

ــ «أنت لا تفهم يا بادي» قال المحامي بصوت متمهل واضح كما لو كان يشرح لطفل. «إني لا أتحدث فقط عن دروغيدا. إن دروغيدا هي أصغر من كل ما تركته أختك، صدقني. إنها تملك أغلبية الأسهم في مئة من أكبر الشركات وهي تملك مصانع صلب، ومناجم ذهب، وشركة «ميشار» بكاملها والتي تشغل بناء بعشرة طوابق تملكه هي في سيدني. لقد كانت

أثرى من كل أثرياء استراليا . غريب ، لقد طلبت مني أن اتصل بمديري شركة ميشار لأستعلم منهم عن قيمة ما تملكه بالضبط ، وعندما ماتت كانت تقدر بأكثر من ثلاثة عشر مليون ليرة » .

— ثلاثة عشر مليون ليرة !

قالها بادي وكأنه يتحدث عن المسافة بين الأرض والشمس ، شيء يصعب تخيله تماماً .

— هذا يضع حداً للأمر يا هاري ، إني لا أريد تحمل مسؤولية هذا النوع من النقود .

— ليس هناك مسؤولية يا بادي ! ألم تفهم بعد ؟ إن نقوداً كهذه تعتني هي بنفسها ! ولا حاجة بك أن تشغل نفسك بالزرع والحصاد ، فهناك مئات من العمال المستخدمين للقيام بهذا العمل عوضاً عنك . اعترض على الوصية يا بادي ، أرجوك ! سوف أقدم لك أفضل محامي البلد وسأعاضدك بنفسي حتى لو وصل الأمر إلى محكمة العرش العليا .

وفطن بادي فجأة أنه لم يكن وحده معنياً بالأمر ، وإنما عائلته أيضاً ، فالتفت إلى بوب وجاك وهما يجلسان متعجبين على مقعد رخامي :

ـــ ما رأيكما أيها الشابان؟ هل ترغبان في المطالبة بنقود عمتكما ميري؟ إن كانت هذه رغبتكما فسأعترض، وفقط في هذه الحالة.

فسأله بوب:

ـــ ولكن بإمكاننا البقاء في دروغيدا على كل الأحوال، أليس هذا ما تقوله الوصية؟

وأجاب هاري:

ـــ لا أحد يستطيع أن يبعدكم عن دروغيدا طالما بقي هناك واحد من أحفاد أولادكم على قيد الحياة.

ـــ سوف ننتقل إلى هنا، إلى المنزل الكبير، وسوف تساعدنا السيدة سميث وميني وكات، ويكسبن معاشاً جيداً.

قال بادي كما لو أنه يكاد لا يصدق حسن طالعه، وليس سوءه.

ـــ «إذن، ماذا نريد أكثر من ذلك، يا جاك؟» سأل بوب أخاه. «ألست من رأيي؟»

ـــ هذا يلائمني تماماً.

كان الأَب رالف واقفاً يتململ، ولم يكن قد توقف لحظة لنزع ثيابه الجنائزية ولم يجلس، وإنما بقي واقفاً في الظل عند طرف الغرفة كساحر وسيم غامض، بعزلة عن الآخرين وقد وضع يديه داخل بطرشيله الأسود وبقي وجهه جامداً بينما كانت عيناه الزرقاوان تنمان عن حقد مذهول ومرتعب. فهو لن يحظى حتى بالغضب والاحتقار اللذين كان ينتظرهما، وبادي كان سيقدم له كل شيء على صينية من ذهب، من ذهب طيبة القلب، وسيشكره أيضاً على أنه قد خلّص آل كليري من هذا العبء.

ــ «وماذا عن «في» وميغي؟» سأل الأب بادي بجفاء «هل تظن أن النساء لا يستحققنّ الاستشارة أيضاً؟».

ــ «في»؟ سأل بادي بقلق.

ــ ما تقرره يا بادي، أنا لا فرق عندي.

ــ ميغي؟

ــ أنا لا أرغب في الثلاثة عشر مليون قطعة من الفضة.

قالت ميغي وعيناها مركزتان على الكاهن.

فاستدار بادي نحو المحامي:

ــ هذا هو الأمر إذن يا هاري. نحن لا نريد الاعتراض على

الوصيـة. دع الكنـيسة تأخـذ أمـوال ميري، وعلى السعـة والرحب.

وشد هاري على يديه:

ــ اللعنة! إني أكره أن أراك مظلوماً.

ــ إني أشكر حسن طالعي وما فعلته ميري، فلولاها لكنت الآن ما أزال أشقى عند فلان وفلان في نيوزيلاندة من أجل الحصول على لقمة العيش.

وعندما خرجوا من غرفة الاستقبال، توقف بادي أمام الأب رالف ومد له يده على مرأى من جميع المعزين الذين وقفوا في غرفة الطعام ينظرون إلى المشهد بذهول.

ــ أرجوك يا أبت، لا تعتقد أننا نحمل لك أي حقد من جهتنا. لم يستطع أحد أن يؤثر على ميري طوال حياتها، لا كاهن، ولا أخ، ولا حتى زوجها. صدقني إنها فعلت ما كانت تريد أن تفعل، ولقد كنت شديد الطيبة معها ومعنا أيضاً، ولن ننسى لك هذا ما حيينا.

الشعور بالذنب، والهم، وقد أوشك الأب ألّا يمد يده

ليأخذ بها يد بادي الشقية، ولكن عقل «الكاردينال» بداخله غلبه، فمد يده وشد على يد بادي بانفعال شديد وابتسم وقلبه ينزف.

ـ شكراً يا بادي، تأكد أني سأفعل كل شيء بمقدوري حتى لا تقع في العوز.

وخلال أسبوع كان الأب رالف قد رحل دون أن يعود إلى دروغيدا. فلقد أمضى الأيام القليلة اللاحقة وهو يحزم متاعه الضئيل ويدور على كل المزارع في المقاطعة ليودع العائلات الكاثوليكية هناك، إلّا دروغيدا.

ووصل الأب واتكنز توماس، وقد قَدِم مؤخراً من بلاد الغال، ليقوم بوظيفة كاهن رعية في مقاطعة غيللانبون، بينما أصبح الأب رالف دو بريكاسار السكرتير الخاص للأسقف «كلوني دارك». ولكن عبء عمله كان خفيفاً جداً، وكان عنده هو أيضاً سكرتيران. وكان يمضي غالب وقته في اكتشاف ماذا وكم كانت ميري كارسون تملك، وفي تجميع أزمّة الحكم (إدارة هذه الثروة) لمصلحة الكنيسة.

فهرس الجزء الأول

الكتاب الأول

ميغي

١٩١٥ ـ ١٩١٧

الفصل الأول ١٣

الفصل الثاني ٥١

الكتاب الثاني

رالف

١٩٢١ ـ ١٩٢٨

الفصل الثالث.. ١٢٩

الفصل الرابع.. ١٨٥

الفصل الخامس.............................. ٢٢٩
الفصل السادس.............................. ٢٦٩
الفصل السابع.............................. ٣٢٧

انتهى الجزء الأول
ويليه الجزء الثاني

طيور الشوك = The thorn birds / تأليف كولين مكلو ؛ ترجمة نضال حوّاط . ــ ط . ١ . ــ دمشق : دار طلاس ، ١٩٨٦ . ــ ٣ ج . (١٣٢٨ ص.) ؛ ١٨ سم .

١ ــ ٨٢٣ أ س م ك ل ط ٢ ــ العنوان ٣ ــ مكلو
٤ ــ حوّاط

رقم الإيداع ــ الجزء الأول ٤١٥ / ٤ / ١٩٨٦

هذا الكتاب

هناك كتب كالحدث التاريخي، كتب تدمغ عصراً بكامله، وتشع فتتجاوز كل الحدود وتغرق بالسعادة ملايين القراء والقارئات .. هكذا كان «ذهب مع الريح» في فترة ماقبل الحرب وهذه حال (طيور الشوك) الآن .

إنه الموضوع ــ قصة عائلة كليري ــ يمتد على أكثر من نصف قرن، من ١٩١٥ إلى ١٩٦٩، وإطاره قارة بكاملها ــ استراليا . ولكن عندما يحتوي كتاب على هذا النَفَس الطويل، على هذه الروح الملحمية، وعلى هذا الفن الهائل الذي ينفث الحياة في أجساد وأرواح ليس فقط الشخصيتين الرئيسيتين ــ سيفي ورالف ــ بل عشرات من الشخصيات الأخرى التي لم يكن مصيرها ثانوياً، فإن محاولة تلخيصه وحصره في حدود سيناريو بسيط لهي محاولة مضحكة .

لقد أخرجت القصة على شكل مسلسل تلفزيوني، ومع ذلك فإن أجمل فيلم هو ذلك الذي يتصوره كل منا حينما ينفرد بنفسه مع القصة . لأن الساعات التي يمضيها القارئ بصحبة قصة الحب المؤثرة هذه هي من الساعات التي لا تنسى .

كولين مكلو

علي مولا